الى استاذى الفاضل
الدكتور رشيد الناضورى
مع فائق شكرى وتقديرى

٢٠/٥/٧٥

الحياة الاجتماعية
في مصر القديمة

تأليف: سير و. م. فلندرز بترى

ترجمه وعلق عليه وقدم له

حسن محمد جوهر
وكيل وزارة التربية والتعليم السابق

عبد المنعم عبد الحليم
المفتش بوزارة التربية والتعليم

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٥

تقـــديم

لقد نشر هذا الكتاب أول مرة فى عام ١٩٢٣م ، فنفذت طبعته فى أقل من سنة ، فاعيد طبعه للمرة الثانية عام ١٩٢٤م ، وصدرت آخر طبعة له عام ١٩٣٢م ٠

وعلى الرغم مما قام به علمـــاء الآثار المصرية من كشوف بعد هذا التاريخ أماطت اللثام عن كثير من نواحى الحياة المصرية ، فانه مازال من أهم المصادر عن حياة المصريين القدماء وأصدقها ٠

ولا تعزى أهمية هذا الكتاب الى غزارة مادته وصحتها فحسب، ولكنها تعزى أيضا الى صدق فراسة مؤلفه ، وصـــدق حكمه على الأشياء ٠ ولا غرو فالسير فلندرز بترى يعد بحق فى طليعة علماء الآثار الراسخين فى العـلم ، الذين استطاعوا أن يتحرروا الى حد كبير من ميولهم الشخصية ، ومن عقـــد البيئة والجنس والدين ، ودونوا الحقائق العلمية مجردة من الغرض ، ومن غير تحريف فيها ،

ولا تشويه لها ؛ فجاءت كتبه صـــورة صادقة للحقائق التاريخية الثابتة ؛ فهو مثلا عندما يكتب عما أشاعه المؤرخون المغرضون عن السخرة فى مصر القديمة ، يردها الى أسبابها الطبيعية الحكيمة ..

ولقد تعرضت حياة الشعب المصرى فى الأزمان الغـابرة لكثير من المسخ والتشويه على يد المؤرخين الاجانب قديما وحديثا . وأولهم الرحاله اليونانى هيرودوت ، الذى زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ابان محنـــة من أشـــد المحن التى ابتليت بها ، ألا وهى الاحتلال الفارسى ، الذى أثر تأثيرا سيئا فى أخلاق المصريين آنذاك، شأن كل احتلال أجنبى ، فخدعته ظواهر الأمور ، فأخذ بها ، وكتب عنهم ما أزرى بهم ، وحط من شأن حضارتهم ، حتى خيل لمن قرءوا ما كتبه عنهم أنهم قـــوم بدائيـــون يعبـــدون التماسيح والعجول والقطط .

وقد ظلت هذه الصـــورة المشـــوهة والروايات الكاذبة التى أذاعها هيرودوت وغيره من الجهـــال المغرضين يرددها الناس مئات السنين .

وعلة هذا كله أن اللغة المصرية القديمة ، المرجع الحق لتاريخ مصر الفرعونية وحضــــارتها العريقة ، ظلت سرا خفيا حتى جاءت الحملة الفرنسية مصر فى يولية سنة ١٧٩٨ م (فى محرم ســـنة ١٢١٣ هـ) وأصدر العلماء الفرنسيون الذين جاءوا معها كتـــاب وصف مصر ، ذلك الكتاب الجليل الشامل ، وحل أحدهم ، وهو العالم الأثرى شمبليون رموزها (١) !

فما ان ذاع هذا الكشف العظيم حتى هرع العلماء الى مصر ، وانكبوا على دراسة تاريخها الفرعونى ، وحيـــاة سكانها فى ذلك العهد المجيد ، مما دونه المصريون أنفســـهم ، منقوشا على معابدهم

---

(١) الضمير يرجع الى اللغة الهيروغليفية .

وحيطان مقابرهم · وكانت النتيجة اللازبة لهذه الدراسات أن عرف الناس فى شتى أنحاء العالم أن حضارة مصر أروع حضارة عرفها الانسان ، وأنها المعين الذى منه نهلت أثينا وعبت روما ·

ولكن مما يؤسف له كثيرا أنه جاء فى اثر العلماء الأعلام الذين جاءوا مصر من بلادهم ، وانقطعوا لدراسة آثارها ، جاءت فئة نهازة، كان همهم الأول سرقة الآثار وتهريبها الى بلادهم لبيعها لمتاحفها وجمعياتها العلمية ، ولم يصدهم خلق عن انتزاع بعض الأحجار المنقوشة من أماكنها فى جدران بعض المعابد أو حيطان بعض المقابر(١) ·

وحتى العلماء الأعلام الذين جاءوا مصر ، وكان هدفهم دراسة آثارها دراسة علمية ، لم يكونوا كلهم يسيرون على نظام مرسوم ، ونسق فى التنقيب معلوم ، الأمر الذى أدى فى كثير من الأحيان الى الاضرار ببعض الآثار ·

وهنا يبرز فضل الأستاذ العالم فلندرز بترى على الآثار المصرية. فقد كان فى طليعة العلماء الذين لم يتبعوا فى التنقيب عنها الطرق العلمية المنظمة فحسب ، بل كان المعلم الأول لها ، وكان لآرائه فيها الفضل الأكبر فى ارساء فن البحث والتنقيب عن الآثار على أسس علمية سليمة ·

ومن أجل هذا كله وقع اختيارنا على هذا الكتاب القيم لترجمته الى اللغة العربية · ولقد لقينا فى ترجمته نصبا ، لأن فى بعض عباراته اختصارا يوشك أن يخل بمعناها ، وفيه اشارات لبعض حقائق تاريخية غير مذكورة فيه ، اعتمادا على أن القارىء ملم بالتاريخ

---

(١) ولنضرب لذلك مثلا : الصورة المنقوشة التى تمثل زوجة ملك بنت، وكانت فى الأصل جزءا من جدران معبد الملكة حتشبسوت فى الدير البحرى ، ولقد نقل بعضهم مقبرة كاملة مثل مقبرة متن التى نقلت الى متحف برلين ·

المصرى ، ولهذا بسطنا بعض العبارات المجملة ، وفسرنا كثيرا من الفقرات الغامضـــة ، واستبدلنا الحقائق التى عرفت بعد تأليف الكتاب بالمعلومات المذكورة فى الكتاب والتى ظهر عدم صحتها ، وأضفنا كثيرا من الحواشى والتذييلات التى توضح غامضا أو تجـلى حقيقة ، ولم نشأ أن ننسبها الى أنفسنا لأننا لم نجد داعيا لذلك ، لأن الكتاب خلو منها ، فجميع الحواشى من تأليفنا .

هذا وقد أضـفنا نبتا بالترتيب الزمنى لملوك مصر العظام ، والذين ورد ذكرهم فى الكتاب بخاصة ، ليستطيع القارىء أن يرجع اليه كلما اقتضى الأمر ذلك ، كما زودنا الترجمة بخرائط ورســوم توضيحية خلا الكتاب منها .

والله ولى التوفيق .

المترجمان

ثبت
بالترتيب الزمنى لملوك مصر المشهورين

تمهيد

لقد استقى المؤرخون علمهم عن العصر التاريخى لمصر ، وهو العصر الذى يبدأ بتدوين المصريين لأعمالهم وشتى نواحى حياتهم ، من مصادر عدة ، أهمها ماخلفوه من آثار ، وما على بعضها من نقوش ، سواء أكانت كتابات أو صورا ، وما تركه المؤرخون القدامى من مؤلفات ، وأشهرهم المؤرخ المشهور مانيثون (١) الذى

---

(١) هومانيثون السمنودى ، كان كاهنا فى مدينة هليوبوليس فى عهـدى بطليموس الاول وبطليموس الثانى ، وقد كلفه الملك الأخير بكتابة تاريخ جامع لمصر ، فكتبه فى ثلاثة أجزاء .

ومما يؤسف له كثيرا أن هذا الكتاب القيم فقد ، ولم يبق منه الا ما اقتبسه منه المؤرخون ، الذين جاءوا بعده ، ونسبوه اليه .

ألف كتاباً عن تاريخ مصر فى جميع العصور ، تحدث فيه عن الأسرات التى حكمت مصر ، وأحصاها فبلغت احدى وثلاثين ! وقد أخذ عنه المؤرخون الذين جاءوا بعده .

ولقد قسم المؤرخون الأسرات أقساما عدة ، يشمل كل قسم منها الأسرات المتواليه ، التى تتسم بطابع خاص ، والتى لها صفات مشتركة ، ولتاريخها صبغة مميزة .

أما عصر ما قبل الأسرات ، ويطلق عليه عصر ما قبل التاريخ، فقد اعتمد علماء الآثار فى تحديد حقبه على الآلات والأدوات والأوانى التى خلفها سكان مصر فى ذلك العصر الواغل فى القدم ، وقسموه وفقا لهذا ثلاث حقب :

(أ) الحقبة الباليوليتية : أى عصر الحجر المنحوت نحتاً ساذجاً .

(ب) الحقبة النيوليتية : أى عصر الحجر المصقول بعد النحت .

(ج) الحقبة الانيوليتية : أى عصر استعمال الحجر والنحاس فى صنع الآلات .

ولقد ابتدع فلندرز بترى طريقة لترتيب ذلك العصر ، وهى الطريقة التى تعرف بالتوقيت المتتابع (١) ، والتى سهلت على العلماء معرفة المراحل الحضاريه التى مرت بها مصر ابانه .

---

(١) تعتمد هذه الطريقه على دراسة الأوانى المصنوعه من الفخار التى عثر عليها فى المقابر المصرية التى ترجع الى ذلك العصر العتيق ، ومقابر نقاده بخاصه ، وترتيبها تبعا لتطور صناعة مقابضها أو تبعا لألوانها ودرجات صقلها ، وعلى تطور=

ويبدأ العصر التاريخى بابتداع المصريين للكتابة واستعمالها ، وهو عهود يتلو بعضها بعضا :

١ ـ العهد العتيق ، ويشمل الأسرتين الأولى والثانية :

(أ) الأسرة الأولى (٤٧٧٧ ق.م ـ ٤٥١٤ ق.م)
وأعظم ملوكها مينا (نارمر) .
(ب) الأسرة الثانية (٤٥١٤ ق.م ـ ٤٢١٢ ق.م) .
وأشهر ملوكها برايب سن .

وأهم حوادث ذلك العهد توحيد القطرين (الوجهين) البحرى والقبلى ، وبناء مدينة منف واتخاذها عاصمة للبلاد .

٢ ـ عهد الدولة القديمة :

وفي عهدها أصبحت مصر دولة قوية ، متينة البنيان ، كثيرة الموارد ، واسعة الثراء استطاع ملوكها بناء الأهرامات الضخمة ،

= الآثار الاخرى كالأوانى المصنوعة من الحجر والآلات المتخذة من الظران ، وقد قام بترى بترتيب ٩٠٠ مقبرة ترتيبا زمنيا ، ثم قسمها فترات ثلاثا ، كل فترة تمتاز بأوانيها الفخارية بصفات خاصة وترك ١٩ مقبرة من (١ ـ ١٩) يضاف عليها ماعسى أن يعثر عليه من مقابر أقدم .

واليك هذه الفترات :

(١) من ٢٠ ـ ٣٩ وقد أطلق عليها عصر ماقبل الأسرات القديم .
(٢) من ٤٠ ـ ٥٩ وقد أطلق عليها عصر ماقبل الأسرات المتوسط .
(٣) من ٦٠ ـ ٨٠ وقد أطلق عليها عصر ماقبل الأسرات الحديث .

ويطلق المؤرخون على ذلك العهد المجيد بعهد بناء الأهرام ٠

ويشمل الأسرات الآتية :

(أ) الأسرة الثالثة (٤٢١٢ ق٠م ـ ٣٩٩٨ ق٠م) ٠

وأشــهر ملوكها زوسر بانى الهرم المدرج ، وأشهر شخصية فى عهدها امحتب المهندس ، والطبيب ، مصمم ذلك الهرم ٠

(ب) الأسرة الرابعة (٣٩٩٨ ق٠م ـ ٣٧٢١ ق٠م) ٠

وأعظم ملوكها سنفرو وخوفو بانى الهرم الأكبر ، وخفرع بانى الهرم الثانى ، ومنقرع بانى الهرم الثالث والملكة خنت كاوس بانية الهرم الرابع ٠

(ج) الأسرة الخامسة (٣٧٢١ ق٠م ـ ٣٥٠٣ ق٠م) ٠

وأشهر ملوكها أوسركاف وساحورع ٠

(د) الأسرة السادسة (٣٥٠٣ ق٠م ـ ٣٣٣٥ ق٠م) ٠

وأشهر ملوكها بيبى الأول وبيبى الثانى ٠

٣ ـ عصر الاضمحلال الأول أو الفوضى :

(٣٣٣٥ ق ٠ م ـ ٣٠٠٥ ق ٠ م) ٠

ويشمل الأسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة ، وفيه قام المصريون بثورة عارمة ضــد الملوك تعد أقدم ثــورة اجتماعيــة فى

التاريخ ، وقد تمزقت فى أثنائه البلاد وصارت امارات ، وغزا الدلتا الأسيويون من الشرق والليبيون من الغرب ، ولهذا أصبح من الصعب عمل قوائم بأسماء الأسرتين السابعة والثامنة ، أما الأسرتان التاسعة والعاشرة فقد حكم ملوكهما من أهناسيا ، وكان يطلق على بعضهم اسم خيتى •

٤ ـ الدولة الوسطى :

يعد عصرها من أزهى العصور المصرية القديمة ، فقد ازدهر فيه الفن والأدب •

وقد انتشر النظام الاقطاعى فى أثنائه •

وتشمل الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة •

(أ) الأسرة الحادية عشرة (٣٠٠٥ ق • م ـ ٢٩٦٢ ق • م) •

وأشهر ملوكها منتوحتب •

(ب) الأسرة الثانية عشرة (٢٩٦٢ ق • م ـ ٢٥٦٥ ق • م) •

وأشهر ملوكها أمنمحات (١) الأول ، وسنوسرت الأول

---

(١) يكتب هذا الاسم فى الكتب التاريخية المختلفة فى صور ثلاث : امون‌محات، أمنمحت ، وأمنحمعات •

وامنمحات الثانى ، وسنوسرت الثالث (سيزوستريس) وامنمحات الثالث •

٥ ـ عصر الأضمحلال الثاني :

ويشمل الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة (٢٥٦٥ ق • م ـ ١٩٢٨ ق • م) وفى أثنائه تمزقت البلاد مرة أخرى ، وتنازعها الأمراء والملوك الصغار ، وكان ملوك الأسرة الثالثة عشرة من طيبة ، وملوك الأسرة الرابعة عشرة من الدلتا ، وقد أدى ذلك الانقسام ؛ وما أصاب البلاد نتيجة له من ضعف الى تمكين الهكسوس من غزوها •

٦ ـ عصر الهكسوس :

ويشمل الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة (١٩٢٨ ق • م ـ ١٧٣٨ ق • م) وأشهر ملوكها خيان وأبيبى (أبو فيس) •

أما الأسرة السابعة عشر (١٧٣٨ ق • م ـ ١٥١٧ ق • م) •

فقد كان ملوكها يحكمون من طيبة ويسيطرون على مصر العليا على حين كان الهكسوس يحكمون مصر السفلى (الدلتا) وكان الصراع على أشده بينهما •

وأشهر ملوك مصر العليا آنذاك سكننزع وكامس •

٧ ـ عصر الدولة الحديثة (١) :

فى أول عهده طـرد الهكسوس من مصر ، وأصبحت مصر قوة عظمى ، غزا ملوكها العظام أقطار آسـيا الغربية ، وصـارت مصر بذلك امبراطورية عظيمة ، مترامية الأطـراف (٢) وأقدم امبراطورية فى التاريخ .

وتشمل الأسر الآتية :

(أ) الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٧ ق . م ـ ١٣٢٠ ق . م) .
وأشهر ملوكها :

أحمس الأول وتحوتمس الأول ، والملكة حتشبسـوت ، وتحوتمس الثالث وامنمحتب الثالث وأخناتون ، وتوت عنخ آمون وحور محب .

(ب) الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ ق . م ـ ١٢٠٠ ق . م)
وأشهر ملوكها سيتى الأول ورمسيس الثانى ومنفتاح .

(جـ) الأسرة العشرين (١٢٠٠ ق . م ـ ١٠٨٥ ق . م) .
وأشهر ملوكها رمسيس الثالث .

---

(١) يرى بعض المؤرخين أن الأسرة السـابعة عشرة من أسرات الدولـة الحديثة .

(٢) بالغ بعض المؤرخين فى اتساعها حتى جعلوها تشمل شـمالى أفريقية ومعظم جنوبى أوروبا وغربى آسيا .

٨ ـ العصر المتأخر :

وفي أثنائه دب الضعف والوهن فى الامبراطورية المصرية ، وفقدت مصر أملاكها في الشام ؟ وعادت الى الانقسام مرة أخرى ، فحكم الوجه القبلى كهنة آمون ، وحكم الوجه البحرى ملوك آخرون !

ويشمل الأسر الآتية :

(أ) الأسرة الحادية والعشرين (١٠٨٥ ق • م ــ ٩٥٢ ق • م) •

(ب) الأسرة الثانية والعشرين (٩٥٢ ق • م ــ ٧٤٩ ق • م) • وملوكها ليبيون ، وأشهرهم شيشنق الأول •

(جـ) الاسرة الثالثة والعشرين ! (٧٤٩ ــ ٧٢١ ق • م) وأشهر ملوكها بعنخى الأول •

(د) الأسرة الرابعة والعشرين (٧٢١ ــ ق • م ــ ٧١٥ ق • م) • وأشهر ملوكها بوكوريس •

(هـ) الأسرة الخامسة والعشرين (٧١٥ ق • م ــ ٦٧٢ ق • م) • وأشهر ملوكها شباكا •

(و) الأسرة السادسة والعشرين (٦٧٢ ق • م ــ ٥٢٥ ق • م) •

وكان عهدها عهد نهضة شاملة ، ازدهرت فيه الفنون ، ونشطت التجارة ، ولكن كان ملوكها يعتمدون على المرتزقة

الأجانب ! وأشـــهرهم ابسماتيك الأول وينخاو وابريز وأمازيس الثانى (أحمس) •

٩ ـ غزو الفرس للبلاد (٥٢٥ ق • م) :

وبذلك بدأ الاحتلال الأجنبى لمصر لأول مرة فى التاريخ •
ويشمل الأسرة السابعة والعشرين (٥٢٥ ق • م ـ ٤٠٤ ق •م)
وأشهر ملوكها قمبيز ودارا •

١٠ ـ عهد الأسرة الثامنة والعشرين
والتاسعة والعشرين والثلاثين

(٤٠٤ ق • م ـ ٣٤١ ق • م) وفيــه اســتقلت مصر بعد طردها للفارسيين ، وكان ملوكها مصريين وأشهرهم لقطانب•

١١ ـ العهد الفارسى الثانى :

وفيه غلب الفرس المصريين ، وأعادوا ســـيطرتهم عليهـــا
(٣٤١ ق • م ـ ٣٣٢ ق • م) •
ويشمل الأسرة الحادية والثلاثين •

١٢ ـ الفتح المقدونى لمصر :

وفيه طرد الاسكندر الأكبر الفرس من مصر عام ٣٣٢ ق•م•

١٣ ـ البطالمة (٣٢٣ ق ٠ م ـ ٣٠ ق ٠ م) :

ازدهرت البلاد فى عهدهم ، ولكنها لم تلبث أن تدهورت فى أواخره ٠

وأشهر ملوكهم ٠

بطليموس الأول (سوتر) وبطليموس الثانى (فيلادلفوس ، وبطليموس الثالث (ايوارجيتس) وبطليموس الحادى عشر (الزمار) وكليوباتره ٠

١٤ ـ العصر الرومانى (٣٠ ق ٠ م ـ ٦٤٠ م) ٠

صارت فى أثنائه مصر ولاية رومانية ، وقد طال أمده ، وقاست مصر فيه من الظلم والقسوة والأضطهاد ألوانا ٠

وأشهر براطرة الرومان فى ذلك العصر اكتافيوس وتراجان وهادريان وماركو أوريليس ودقلديانوس ، وقسطنطين ، وجستنيان وهرقل ٠

١٥ ـ العصر الاسلامى :

فتح العرب مصر بقيادة عمر بن العاص سنة ٦٤٠ م ٠

تعريف بالمؤلف

هو السير وليام فلندرز بترى ، ولد سنة ١٨٥٣ م ببلدة تشارلتون بانجلترا ، ونشأ فيها وشغف فى ربيع حياته بالآثار القديمة ، فعكف على دراسة منطقة ستون هنج الأثرية ، فى سهل سلسبرى بانجلترا ، وألف عنها كتاباً نشر فى سنة ١٨٨٠ م •

وجاء مصر فى السنة نفسها ، وبدأ فيها سلسلة من الأبحاث والحفائر ، استهلها بأهرام الجيزة ، ثم انتقل الى الدلتا ؛ ولم يلبث أن كشف عن معبد تانيس الكبير فى سنة ١٨٨٤ م ثم كشف عن مدينة نقراطيس الاغريقية فى غربى الدلتا ، وعن مدينة دفنى فى جنوب بحيرة المنزله •

وفى عام ١٨٨٨ م انتقل الى الفيوم ، وبدأ حفائره فيها ، فكشف مداخل أهرام هوارة واللاهون واللشت ، ثم كشف معبد ميدوم سنة ١٨٩١ م •

وذاعت أخبار كشوفه ، فشرقت شهرته وغربت ، وعين أستاذا لعلم الآثار المصرية بجامعة لندن سنة ١٨٩٣ م • وفى سنة ١٨٩٤ م أسس جمعية الأبحاث المصرية ، التى عنيت بدراسة الآثار المصرية

والكشف عنها ! وكان أهم عمل قامت به الكشف عن آثار مدينة منف •

وفى سنة ١٩٢٣ م أنعم عليه بلقب سير •

وفى سنة ١٩٣٣ م استقال من الجامعة ، وسافر الى فلسطين حيث عكف على الحفر والتنقيب فيها •

وتوفى فى مدينة القدس فى سنة ١٩٤٢ م •

ويعد السير فلندرزبترى فى طليعة علماء الآثار الراسخين فى العلم الذين استطاعوا أن يتحرروا الى حد كبير من عقد البيئة والجنس والدين عندما يكتبون عن أقوام لا يمتون اليهم بصلة ما ، كما ذكر ذلك فى التقديم •

وقد ألف سير فلندرزبترى عشرات الكتب عن المصرين القدماء ، وعن آثارهم كما نشر عنهم مقالات كثيرة فى المجلات التاريخية والأثرية وفى الصحف •

واليك أهم مؤلفاته عن مصر وآثارها الخالدة •

(1) History of Egypt.
(2) Religion and Conscience in Ancient Egypt (1889).
(3) Religion of Ancient Egypt.
(4) Arts and Crafts in Ancient Egypt (1909).
(5) The Pyramids and Temples of Giza (1898).
(6) Egyptian Science (1939).
(7) Egyptian Architecture (1938).
(8) Pre-historic Egypt (1920).
(9) Syria and Egypt (1896).

مقدمة المؤلف

يعتبر هذا الكتاب « الحياة الاجتماعيه في مصر القديمة ، موجزا لسفر أضخم وأشمل اشترك فى اعداده نخبة من مشاهير العلماء والمؤرخين عنوانه : Descriptive Sociology of Egypt

ولقد راعيت فيه ربط الحقائق الماضية المجردة بأمثلة من حياة سكان مصر الحاليين ، الذين لم تتغير حياتهم الاجتماعيه كثيرا ، كما اعتمدت على كثير من المصادر اليونانية والرومانية ، لا لأنها تمثل عصر هاما من عصور التاريخ المصرى فحسب ، ولكن للشبه الشديد بين المصريين القدماء وبين المصريين فى عهدهما ! على الرغم من انتشار المسيحية فى العهد الرومانى !

وفيما يختص بالفصول الأخيرة من هذا الكتاب فاننى عالجت فيها الفنون والصناعات من حيث تأثرها بالعوامل الاجتماعية . أما تاريخهما فسوف أفرد له كتاباً مستقلا (١) .

(١) توجد قائمة للمراجع أكبر فى كتاب Descriptive Sociology of Egypt عليرجع اليها من يريد المزيد .

هذا ولم أكتب أسـماء المراجـع فى آخـر هذا الكتاب لأنها مذكورة بالتفصيل فى كتاب :

« Descriptive Sociology of Egypt »

وأملى كبير فى أن أقوم باصدار كتاب عن :

« The Religious Life in Ancient Egypt »

فى القريب العاجل .

مراجع الكتاب (١)

(1) Breasted : Ancient Records (B.A.R.).

(2) Breasted : Book of the Dead (B.D.).

(3) Breasted : Development of Religion (B.D.R.).

(4) Beadnell : Egyptian Oasis (B.E.O.).

(5) Carnarvon and Carter : Five Years (C.C.F.Y.).

(6) Davis : Tell el Amarna (D.A.).

(7) Garstang : El Arabah (G.A.).

(8) Petrie : Abydos (P.A.B.).

(9) » : Diospolis Parva (P.D.P.).

(10) » : Gizeh and Rifeh (P.G.R.).

(11) » : Hawara and Biahmu (P.H.B.).

(12) » : Hyksos and Israelite Cities (P.H.T.).

(13) » : Heliopolis and Kafr Amarna (RPHKA).

(14) » : Labyrinth (P.L.).

(١) توجد قائمة للمراجع أكبر فى كتاب Descriptive Sociology
فليرجع اليها من يريد المزيد .

(15) Petrie : Medum (P.M.).

(16) Pliny : Natural History (P.N.H.).

(17) Petrie : Sinai (P.S.).

(18) » : Tell el Amarna (P.T.A.).

(19) Ouibell : Hierakonopolis (Q.H.).

(20) » : Tomb of Hesy (Q.T.H.).)

ملاحظة :

حافظنا فى المتن على المختصرات الموضوعة بين قوسين ، ولم نترجم حروفها الى العربية .

الفصل الأول

نشأة المجتمع المصري

نشأة المجتمع المصرى وتطوره

ان نظام المجتمع البشرى معقد جد التعقيد ، ومن أجل ذلك فان دراسته ليست بالأمر السهل اليسور • وانك لتجد فى كل طبقة من طبقات المجتمع فى القطر الواحد وفى الزمن الواحد اختلافات عديدة أو لعل تلك الفوارق الحالية فى طبقة ما تبلغ فى كثرتها الفوارق التى سادت تلك الطبقة خلال الأجيال الماضية • وان تلك الاختلافات تتجاوز حدود التصور والادراك حينما تحاول دراسة المجتمع فى أقطار شتى ، ذات ظروف مناخية متباينة ، تسكنها سلالات بشرية مختلفة تتبع أساليب معيشة مختلفة وتسود فيها مذاهب دينية متعددة • وغاية ما يمكننا عمله هو دراسة العوامل التى تهيىء الظروف لنمو الجماعات البشرية وتكاثرها ، ثم محاولة تتبع الاستكشافات والابتكارات ، التى بدونها لايتاح لتلك الجماعات فرصة التكاثر والتقدم • وليس من المبالغة فى شىء اذا قلنا أن

المبتكر لشيء جديد أحد بنـاة المجتمع البشرى ، وذلك أن كل خطـوة فى ميدان الابتـكار أو الاختراع لها أثر فعال فى تقدم المجتمعات البشريه واستمرارها وتوثيق ما بينها من روابط .

ولقد رأينا ذلك فى العصر الحاضر حينما حدث ذلك الانقلاب العظيم فى حياتنـا الاجتماعية نتيجـة لذيوع استخدام الآلات فى المصانع . وقد أحدث استخدام الكهرباء وانتشار الاحتراق الداخلى لتسيير السـيارات تطورا بعيد المدى فى الروابط القائمة بين المدن من ناحيه ومناطق الريف من ناحية أخرى .

ولهذا فاننـا حين نسـتعرض الظـروف الاجتماعية المتعاقبـة فى مصر القديمة فسوف نحاول أن نتبين التغيرات التى حدثت فى مجال الابتكارات والمعرفة مما كان سـببا فى تكوين مظاهر الحيـاة الاجتماعية فى تلك البلاد .

احوال قبائل الصيادين

ان أولى المراحـل التى نعرفها عن حياة المصريين أنهم كانوا قوما يشتغلون بالصـيد . فقد كان النيـل يغمـر واديه المنخفض بالمياه . وكانت بعض الأمطار تسقط على الهضاب المجاورة وكانت تعيش هنـاك أنواع من الغزلان والثيران البرية والفيلة وكثير من أنواع الحيوانات الأخرى التى لاتوجد اليوم الا فى أواسط أفريقيا.

ولم يـكن للسـكان بد من احتراف الصيد لتعذر احتراف الرعى لأن العشب لم يكن من الوفرة بحيث يسمح بتربية الحيوان بطريقة عملية مجدية ولكن من الجائز أن يكون الانسان حينئذ قد استطاع تربية بعض الأغنام وبذل عناية خاصة فى اعداد المراعى لها • وان أول ركن تقوم عليه مهنة الصيد هو احتفاظ القبيلة لنفسها بحقوق خاصـة على مسـاحة معينة من الأرض • بحيث لاتعتدى على تلك الحقوق قبائل أخرى •

ولقد اسـتمرت الحروب بين القبائل للظفـر بمواطن الصيد ومناطق جمع الثمار للحصـول على اللحوم والفـاكهة والحبوب والجذور والعشب •

وكانت كل قبيلة تتخذ نظاما اجتماعيـا يهيىء لهـا أسـباب الدفاع عن تلك الحقوق • واننا لنشاهد هذا النظام الاجتماعى ذاته فى دنيـا الحيوان • فالماشـية والكلاب البرية تدافع عن حـدود مواطنها • وقد لوحظ أخيرا أن الطيور تتخذ فى كل موسم مواطن معينة تدفع عنها كل دخيل واغل وعلى الأخص فى فترة التزاوج • وهذه الظاهرة تشاهد فى عالم النبات أيضا فان بعض النبات ينشر أوراقا عريضة تمتد على مساحات واسعة كى يطرد أى نبات طفيلى ينمو على مقربة منه •

وهناك بعض شعوب كالاسكيمو والعرب يعملون على تجنب

هذا اللون من المنافسة والتصارع وذلك بتهيئة ظروفهم للمعيشة فى أوطان قاحلة تدرأ التطفل وتصد الدخلاء . ومثل هؤلاء الأقوام كمثل بعض أنواع الزهور التى هيأت ظروفها بحيث تزدهر فى موسم الشتاء البارد للافادة من الضوء الساطع والهواء الكافى قبل أن تورق أشجار الغابة وتلقى بظلالها عليها (١) .

على أن استغلال الأرض استغلالا خالصا للحصول على موارد القوت يتطلب وجود قبيلة متماسكة العرى للدفاع عنها وحمايتها من الدخلاء . ومن أجل ذلك كانت الحاجة ماسة الى وجود رئيس (شيخ) يقبض على زمام تلك القبيلة . وان آخر مخلفات ذلك النظام يتجلى فى بعض المناطق بآسيا الوسطى . وكذلك فى مواطن حفظ الحيوان البرى (٢) ولانزال نجد الى اليوم أقواما يأخذون

---

(١) فى الجهات الشمالية مساحات من الغابات النفضية . وهذه الغابات ذات أشجار تسقط أوراقها فى فصل الشتاء البارد فيتاح وقتئذ لبعض الازهار البرية التى تنمو وسط تلك الغابات فرصة الاستفادة من ضوء الشمس والهواء .

(٢) فى بعض جهات العالم مثل كينيا واتحاد جنوبى أفريقيا مناطق معينة يأوى اليها أنواع من الحيوانات البريه النادرة . وتسن حكومات تلك البلاد قوانين تحظر على الناس دخول تلك المناطق الا بتصريح خاص ، ومنع الصيد فيها الا برخصة معتمدة وتسمى «مناطق حفظ الحيوان البرى» والغرض من وجودها المحافظة على تلك الحيوانات من الانقراض اذا أبيح الصيد فيها بدون قيد . والمؤلف هنا يعمل على الربط بين منع القبيلة للدخلاء من انتهاك حرمة أراضيها ومنع بعض الحكومات الصيادين وغيرهم من التسرب الى المناطق المحظور دخولها بغية المحافظة على مافيها من الحيوان البرى النادر .

بنظام القبيلة البدائى ويعيشون بعقلية سكان العصر الحجرى القديم • وكثيرا ما تقتصر أعمالهم على جمع الثمار البرية أو صيد الحيوان (١) •

وعندما قل سقوط المطر فى شمالى أفريقيا وقلت موارد مياه النيل انحسر الماء عن مسطحات غرينية تصلح للزراعة وقل عدد الحيوان فوق الهضاب • وقد أغار على مصر وقتئذ أقوام من الغرب أدخلوا حرفة الزراعة فى البلاد وقضوا على عادة أكل لحوم البشر (٢) التى كانت متبعة قبل قدومهم • وقد نسب المصريون هذه التغيرات للاله أوزوريس وأتباعه من الآلهة •

---

(١) لعل المؤلف يقصد بعض قبائل سكان استراليا الأصليين وجزيرة غينيا الجديدة وبعض قبائل حوض الكنغو وقبائل البوشمان والهوتنتوت .

(٢) يشير المؤلف الى رأى ينادى به بعض علماء الآثار بأن الاله أوزريس لم يكن مصرى الاصل بل هو اله ليبى من آلهة الزراعة والحصاد انتقلت عبادته الى مصر فى فجر تاريخها مع الليبيين الذين غزوا مصر فى ذلك العهد البعيد . أما عادة أكل لحوم البشر فلم تكن موجودة فى مصر منذ بزوغ فجر الحضارة المصرية ولكن يبدو أنها كانت موجودة بين الأقوام البدائيين الذين سكنوا هضاب وادى النيل فى عصر ماقبل التاريخ بدليل الاشارة اليها فى نصوص الاهرام (وهى كتابات دينية دونت داخل أهرام ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة ولكنها تسجل حوادث وعقائد وعادات ترجع الى ماقبل ذلك بآلاف السنين) . فقد جاء فى الفصل ١٧٣ — ١٧٤ من هذه النصوص مايلى : «أن الملك يأكل الناس ويعيش على الآلهة .... فالكبار منهم غذاؤه فى الصباح والمتوسطون حجما وجبته فى المساء وصغارهم أكلته بالليل» ولاشك أن هذه العادة اندثرت من مصر منذ فجر التاريخ ولكن ظل صداها يتردد فى نفوس الناس حتى دونت ضمن نصوص الاهرام

Breasted, Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, pp. 127-129.

هذا وكان المصريون القدماء يعتقدون ان الذى علم أجدادهم المدنية ودربهم على الزراعة ونهاهم عن أكل لحوم البشر هو الاله أوزريس .

دور الحنطة فى نشأة المدن

وان الانتاج المنتظم للغذاء عن طريق الزراعه قد أمد الزراع فى مصر بمقادير وفيرة من الحبوب مكنتهم من اختزان مازاد عن حاجاتهم منها • وهذا الفائض المدخر من الغلال امدهم برأس مال زودهم بأسباب القوة التى كانت من عوامل التمهيد لظهور « حكومات المدن » • وقد لوحظ أن هناك تشابها عجيبا فى طول المسافات التى تفصل بين حواضر المقاطعات فى كل من اقليم الدلتا وبلاد مابين النهرين فيبلغ متوسطه فى الأولى واحدا وعشرين ميلا وفى الثانية عشرين ميلا • والظاهر أن هناك عاملا طبيعيا يحتمل أن يكون قد تحكم فى تحديد تلك المسافات من شأنه أن جعل المخازن الرئيسية لمحاصيل المقاطعة مراكز لدوائر لاتزيد أنصاف أقطارها على عشرة أميال وهى أطول مسافة يمكن نقل المحاصيل خلالها من غير أن تتكلف نفقات كثيرة تبهظ أثمانها وبذلك أصبحت مراكز المقاطعات هى مخازن الغلال الرئيسية التى تحفظ بها المحاصيل الفائضة المدخرة والتى بدورها ساعدت على نشأة المدن المستقلة • وكانت وسائل التبادل هى التى تحدد مساحة كل من تلك المقاطعات • وسنرى أن هذا المبدأ يصدق كذلك فى عصور لاحقة • وفى خلال الحقبة التى نحن بصددها نجد أن الغلال المخزونة تمثل رأس المال الأوحد الذى يمكن استخدامه فى

المعاملات المشتركة • وفى تنفيذ المشروعات التى ليس فى مقدور قرية واحدة النهوض بها •

وقد كان من المستحيل على احدى هذه المدن أن تسيطر على البلاد كلها فى الوقت الذى تشعر فيه أن الحنطة أساسا لمبادلاتها • فلا مصر ولا اليونان ولا ايطاليا استطاعت توحيد مقاطعاتها حتى حان الوقت الذى شاع فيه استعمال المعادن فأمكن جمعها لاستخدامها فى دفع الأجور ونفقات مختلف الخدمات • ولم يكن من الميسور نقل الحنطة من جهة الى أخرى وفاء للضرائب المقررة ثم ارسالها بالتالى عبر المسافات الطويلة لدفع الأجور وغيرها لأن أكداس الحنطة كانت كبيرة الحجم ثقيلة الوزن معرضة للتلف والفساد • ولما توفر لدى مصر قدر كاف من معدن النحاس كما تدل على ذلك الأدوات النحاسية الكبيرة التى كانت مستعملة فى نهاية عصر ما قبل التاريخ صار توحيد الدولة مستطاعا •

تداول العملة المعدنية

بين مختلف البلاد

وكانت السلع وغيرها تدفع أثمانها بالنحاس منذ ذلك العهد حتى عصر البطالمة حين استبدلت بها عملة أخرى أخف حملا وأغلى ثمنا •

وهكذا كان الحال فى أقطار أخرى • بيد أن ايطاليا قد

حافظت على ذلك التقليد البالى وهو استخدام النحاس فى عمليات البيع والشراء حتى بعد ذيوع عملة الفضة والذهب بوقت طويل .

ولقد كان استعمال الفضة أساسا للتبادل فى المرحلة الطبيعية الثانيه لأنه مورد دائم ولأنه أخف وزنا وأسهل تداولا فى جمع الضرائب ودفع الأجور والمرتبات فى مساحات واسعة . بيد أن الفضه لم تكن كثيرة الاستعمال فى مصر اذ كان يؤتى بها من أقطار بعيدة (١) ومع ذلك فقد أصبح استعمال مخلوط الفضه والذهب(٢) شائعا فى عصر الأسرة الثامنة عشرة . ومن ثم نرى ذلك التوسع العظيم فى أملاك مصر . فقد أمكن جبى الضرائب معدنا نفيسا أتاح للدولة امداد جيشها بكافة حاجاته بطريقة منتظمة .

أما فى أرض الجزيرة فاننا نرى نقطة التحول نحو استعمال الفضة قد سجلت على مسلة مانيشتوسو (وهذا التحول يعاصر

---

(١) لم تكثر الفضة فى مصر الا فى العصور المتأخرة من التاريخ المصرى القديم عندما بدأت جماعات الاغريق تستوطن البلاد . وقد عثر فى عهد الاسرتين ٢١ و ٢٢ على مقبرة للملك بسوسنس الأول والملك شيشنق الثانى بها تابوتان كاملان وكثير من الاوانى مصنوعة من الفضة وهى محفوظة بالمتحف المصرى بالقاعة ٢ شرقا بالدور الثانى . وقبل ذلك العهد كان العثور على الفضة فى المقابر شيئا نادرا وليس أدل على ندرة الفضة من أن قيمتها فى عهد الدولة القديمة كانت تعادل نصف قيمة الذهب .

(٢) كان هذا المخلوط يعرف عند المصريين القدماء باسم «جعم» وهو المعروف باسم Electrum وقد استخدامه لملوك الأسرة (١٨) فى كسوة قمم المسلات حتى اذا ما سقطت عليها أشعة الشمس أرسلت أشعة تنير أرجاء المعبد وتبهر القادمين لزيارته . انظر Budge, Cleopatra's Needle, p. 37.

الأسرة التاسعة فى مصر) عندما قدرت قيمة الأراضى الزراعية بالحنطة والفضة على السواء • ثم أخذت الوحدة المعدنية تحل محل وحدة الحنطة شيئا فشيئا • ولم يمض بعد ذلك قرن من الزمان حتى تحققت لأرض الجزيرة أول وحدة كبرى على يد الملك « نارام سين » (١) •

وفى بلاد اليونان مكنت الفضة أثينا من توحيد الولايات الاغريقية تحت زعامتها • وكان الرصيد المشترك لتلك الولايات يحفظ فى مدينة (ديلوس (٢)) وكان ذلك الرصيد كافياً لدفع عجلة الحياة فى بلاد اليونان • بيد أن هذه الدولة لم تجرؤ على الاحتكاك بدولة الفرس التى كانت تعتمد على رصيد من الذهب • وعندما بدأ فيليب المقدونى فى اصدار عملة ذهبية أصبح لليونان

---

(١) «نارام سين» هو الابن الثالث للملك سرجون الاول المشهور مؤسس امبراطورية أكاد «التى كانت تشغل الجزء الجنوبى من أرض الجزيرة» • وقد حكم نارام سين من ٢٧٩٥ الى ٢٧٣٩ ق٠م وقاد حملة ضد حلف مكون من ١٧ ملكا من ملوك الحيثيين وهزمهم جميعا • ثم رد الآريين عن حدود بلاده الشمالية• وقد كشفت أعمال الحفر التى قام بها دى ورجان فى مدينة السوس بايران عن لوحة لهذا الملك تمثله رجلا مفتول العضلات مسلحا بالقوس والسهام يطأ بقدميه أجسام من ظفر بهم من أعدائه الذين يتوسلون اليه ويسترحمونه • وصور بين الأعداء أحد الضحايا وقد أصابه سهم اخترق عنقه فسقط على الأرض يحتضر. ولهذه اللوحة أهمية فنية لأنها تنبىء عن وجود فن ناشىء فى طريقه نحو الازدهار •

(٢) « ديلوس » جزيرة فى بحر أيجه ضمن مجموعة الجزائر التى كانت قديما باسم «الكيكلاد» وجزيرة ديلوس هى أصغر هذه الجزائر جميعا وفى عصر سيادة الاغريق كان بها معبد مشهور للاله أبولو •

تبعا لذلك رأس مال جار أمكن استخدامه فى مهاجمة فارس ٠ وكانت وحدة مملكة الدولة العظيمة (١) التى تعد أقوى دول العالم حتى ذلك التاريخ والتى امتدت حدودها من البلقان الى لاهور تعتمد على رصيد ضخم من الذهب بلغ المخزون المركزى منه مائتى طن ويقدر الآن بثمانية وعشرين مليونا من الجنيهات الاسترلينية ، وهو رأس مال ضخم بالنسبة للعالم القديم ٠ وقد كان رأس المال هذا خمسة أضعاف احتياطى المانيا من الذهب فى (سنة ١٩٢٣ (٢)) وكان ذلك الرصيد يحفظ فى برج يوليوس ٠ وقد شد هذا الرصيد أزر الشعب الاغريقى ومكن له من السيطرة على الممالك التى ظهرت فيما بعد وادماجها فى العالم الاغريقى والتى كانت مساحة كل منها على حدة تربو على مساحة اليونان قبل عهد الاسكندر بمائة سنة وكذلك الحال بالنسبة لنمو قوة الدولة الرومانية فقد اتسعت أملاكها عندما اتخذت عملة الفضة ثم الذهب أساسا لمعاملاتها ، وحينما كانت انجلترا تعتمد على عملة فضية كان فى مقدورها الابقاء على كيانها فحسب ٠ وما أن أخذت العملة الذهبية تؤتى ثمارها هناك حتى أخذت هذه الدولة بعد انتصارها فى موقعة سلويس Sluys (٣) تفتح عهدا جديدا من التوسع

(١) يقصد المؤلف دولة الاسكندر الاكبر .

(٢) ذلك تقدير المؤلف .

(٣) معركة «سلوى» معركة بحريه حدثت قرب ميناء سلوى بالساحل الفرنسى فى منتصف صيف سنة ١٣٤٠م بين الانجليز والفرنسيين . وهى أول نصر بحرى فى التاريخ الانجليزى كله وكانت فاتحة حرب المائة عام .

الاستعمارى الذى نجده عقب محاولة غزو فرنسا قد اتخذ فى النهاية وجهة السيطرة على أقطار فيما وراء البحار . وهانحن أولاء نخطو خطوة أخرى الى الأمام آخر الأمر ذلك أن التجارة العالمية يكاد لا يتيسر نقل أثمانها ذهبا الى جهات العالم المختلفة ؟ وبذلك استخدم الورق فى المعاملات على نظام الاصدار وهكذا استطاع الانسان اليوم الاهتداء الى نظام التبادل بالصكوك ، وهو أسهل تبادلا وأخف وزنا فى شئون التعامل . واذن فأساس الوحدة السياسية وانتشار التجارة يتوقفان أولا وقبل كل شيء على سهولة نقل القيم المدفوعة ، فالحنطة تكفى للتعامل داخل حدود المدينة الواحدة ، والنحاس يفى بحاجات مجموعة صغيرة من المدن ، والفضة لقطر قائم بذاته ، والذهب لامبراطورية تضم أكثر من قطر واحد . أما الورق فمجاله العلاقات المتبادلة بين شتى أقطار العالم .

ان الملك الواسع الذى تنقصه دعائم القوة المرتكزة على رأس المال انما يعتمد فى حفظ كيانه على السطوة والجبروت فحسب . وهذا النوع من الدول قد يخرج الى حيز الوجود حينا . ومثال ذلك دولة « الهون (١) » أو دولة « المغول » ولكنه لا يلبث قليلا حتى تتداعى أركانه وتتوارى سطوته وجبروته . ومهما يكن من الأمر لا يمكن لدولة ثابتة الأركان متماسكة الأجزاء تجبى نوعا من

---

(١) مجموعة كبيرة من قبائل التتر اتصفت بالقسوة والوحشية تدفقت من آسيا فى القرن الرابع الميلادى واكتسحت أمامها قبائل القوط سكان شرقى أوربا .

العملة وتنفقهـا أن يمتد نفوذها الى أبعد من حـدود تداول تلك العملة •

مصر فى عصر استخدام الحنطة

ولنعد الآن الى بحث حالة المجتمع فى مصر فى عصر ما قبل التاريخ حينما كان التعامل يجرى على قاعدة استخدام الحنطة • لقد كان حاكم كل مقاطعـة وقتئذ يسـتولى على نصيب من الضرائب من المخزن المركزى لتلك المقاطعـة • غير أنه عندما اتحدت عدة مدن وأصبحت آفاق حدودها أكثر اتسـاعا كان على حاكم تلك الولاية الكبيرة أن يتنقل بين ربوعها للحصول على الضرائب المفروضه على كل مركز من مراكزها • وكان هذا الاجراء يشبه ما كان يمارسه أى رئيس من رؤسـاء عشـائر « الكلت (١) » اذ كان يحصل على الأتاوة المطلوبة مواداً غذائية تتناسب مع مساحة كل ضيعة من ضياع أتبـاعه وكان يرتحـل الى تلك الضـياع ويبقى فى كل منها أياما معددوات وفى انجلترا اسـتمرت تلك الطريقة فى جمع الأتاوات المحلية الى عصر السكسـونيين والنورمانديين • وكان ذلك راجعا الى ندرة المعادن النفيسة حينئذ • ومن أجل ذلك كان البلاط الملكى الانجليزى ينتقل من مـكان الى آخـــر وعلى الأخص بين لندن

---

(١) كانت قبائل الكلت تسكن وسط فرنسا وجنوبيها وكذلك فى بعض المناطق الغربية من فرنسـا والجزر البريطانية وهى سلالات مختلفة تتكلم اللغة الكلتية .

وونشستر وجلوستر خـلال العام الواحد حتى لا يأتى على موارد اقليم واحـد وحتى يتحاشى ضرورة نقل المؤن المجبـاة من الأهلين لمسافات طويلة ٠ ومن الجائز جدا أن تلك الحال كانت فى مصر ؛ وكانت أساس نشأة ذلك التقليد المعروف « بالهبات الملكية » التى كان يقدمهـا الفرعون (١) لاحيـــاء ذكرى بعض الموتى من النبلاء وأفراد الأسرة المالكة عند وفاتهم ٠ كما كان يفرض قدرا معينا من ايجار أملاكه مقوما بالحنطة والمواد الغذائية لبكون قربانا للراحلين من أسلافه وأجداده (٢) وأننا نقرأ فى احدى العبارات المدونة على مقبرة من أقدم المقـابر وهى مقبرة « متن (Meten) (٣) » تنـازل الملك عن ملكية احدى الضياع الى « متن » وتنازله عن اثنتى عشرة منحة عقارية لتقديم القرابين الجنائزية الى روح ذلك النبيل ٠ ولم يعثر على أى أثر من آثار العصور التاريخية يشير الى منح هبة من الأرض الى فرد أو أفراد مدى الحيـاة ثم استـرداد الدولة لها بعد ذلك ٠ واذن فلا داعى لأن نفترض وجود ذلك فى عصور ما قبل

---

(١) كان الأموات يدونون على أبواب مقابرهم صيغا جنائزية تبـــدأ جميعها بكلمة «قربان من الملك» (حتب دى نيسوت) ٠

(٢) ومثال ذلك ماورد فى قصة الساحر « د دى » من أن الملك «خوفو» وهب لروح الملك « نب كا » قربانا مكونا من ألف رغيف ومائة جرة من الشراب ٠

(٣) متن (Meten) موطف كبـــير عاش فى أواخر الأسرة الثـــالثة وبداية الأسرة الرابعة وكان للكشف عن مقبرته أهمية كبيرة فى معرفة نظام الوراثة فى ذلك العهد وفى معرفة الكثير من الألقاب والوظائف ٠ وقد نقلت مقبرته بأكملها الى متحف برلين أيام الفوضى التى تعرضت لها الآثار المصرية فى القرن الماضى ٠

التاريخ . على أنه لما كانت الأرض تعتبر فى الأصل ملكا للملك جاز لنا أن نفترض أنه فى الوقت الذى ساد فيه النظام القبلى فى مصر كان شيخ القبيلة يمنح فردا أو أفراداً مساحة من الأرض على أن تعاد الى الأملاك العامة للقبيلة فى حالة الوفاة بدون ورثة . والظاهر أنه لم يكن هناك نظام اقطاعى على الأرض يستتبع التزامات خاصة وانما كان على من يستغل الأرض أن يؤدى مختلف الرسوم والضرائب المقررة الا اذا كانت الأرض معفاة من ذلك بصفة خاصة لوقفها على أحد المعابد .

التغيرات فى عصر النحاس :

وعندما أهل عصر الأسرات فى مصر ـ وكان ذلك عقب بدء استعمال النحاس على نطاق واسع ـ قامت الدولة باعداد جهاز كبير من الموظفين كان يتزايد على مر الأيام ، وكان أولئك الموظفون موزعين فى شتى أرجاء البلاد ، يستخدمون معدن النحاس فى معاملاتهم وكان كل مصرى يود لو يعمل للحصول على هذا المعدن لصنع الأدوات اللازمة له . وما جاء عصر الأسرة الثالثة حتى ظهر منصب المشرف على الفيضان . وفى عهد الأسرة الرابعة نجد قائمة بأسماء عدد من المقاطعات منقوشة على خاتم أحد الموظفين وكان يشرف على أعمال مختلفة فيها ثم كان بعد ذلك مناصب قادة القلاع ومديرو مصالح الداخلية وغير ذلك من الوظائف . وقد

أعقب ذلك زيادة سريعة فى عدد كبار الموظفين • حتى جاء عهد استقرار الدولة العظيم تحت حكم الملك « خوفو » وحينئذ نجد أن ممتلكات الكهنة قد نقصت وشئون الدولة قد نظمت وفق أساليب جديدة استمر العمل على هديها منذ ذلك التاريخ •

وسوف ندرس فى هذه المناسبة حالة الطوائف المختلفه التى تألفت منها طبقات المجتمع المتعددة وعلاقة كل منها بالأخرى مرجئين الحديث عن واجباتها فى شيء من التفصيل الى فصول لاحقة •

مركز الملك

لقد كان الملك فى مصر أكثر من كونه مجرد حاكم شرعى للبلاد فقد كان يعد نفسه السيد لكافة الدويلات التى انضوت فيما مضى تحت لواء حكومة مركزية واحدة تحت امرة الملك مينا • لذلك نجد الملك قد اكتسب كافة الألقاب والامتيازات التى كان ينعم بها حكام تلك الدويلات (١) فيما مضى • وعلى هذا فقد كان

(١) كانت مصر مقسمة فى فجر التاريخ مقاطعات وكان لكل مقاطعة اله خاص تعبده وشعار يمثلها وكانت هذه المقاطعات مستقلة فى بادىء الامر . وبعد مضى زمن قامت حركة اتحاد فى البلاد ، وذلك حينما تجمعت مقاطعات الوجه البحرى فى مملكتين الأولى فى الغرب وعاصمتها « بحدت » بالقرب من دمنهور الحالية • والثانية فى الشرق وعاصمتها «بوصير» بالقرب من سمنود الحالية . وبعد فترة من الزمن اندمجت هاتان المملكتان فى مملكة واحدة شملت الوجه البحرى وأصبحت عاصمتها «بحدت» وكان الهها حور (حورس) . وفى الوقت الذى اتحدت فيه

الملك يحمل القابا رسمية (١) كانت لحكام تلك الولايات . وعدا

الدلتا قامت مملكة أخرى فى الوجه القبلى مؤلفة من اتحاد مقاطعاته واتخذت عاصمتها بلدة « نقادة » الحالية الواقعة بالقرب من « قفط » وكان الهها «ست» .

ثم قامت مملكة الشمال (فى الدلتا) بعزو مملكة الجنوب (بالصعيد) وأمكنها توحيد القطرين وأصبحت العاصمة فى «بوصير» .

= ولكن بعد فترة من الزمن ثار أهالى الوجه القبلى برعامة «نقاده» وانفصمت عرى الاتحاد . ثم ظهرت قوة «بحدت» عاصمة مملكة «حور» فى الشمال من جديد وتمكنت من احضاع مملكة «ست» فى الوجه القبلى وتوحيد القطرين واتخذت العاصمة فى مدينة هليوبوليس (عين شمس الحالية) حتى تكون فى مركز متوسط من القطرين وكان ذلك عام ٤٢٤١ ق.م. وكانت شارة هذه المملكة المتحدة «قرص الشمس الناشر جناحيه» الذى يشاهده الزائر فى كثير من الآثار المصرية .

وبعد مضى فترة من الزمن ضعفت مملكة هليوبوليس فانقسمت البلاد مره اخرى مملكتين احداهما فى الوجه البحرى وعاصمتها «بوتو» (المعروفة الآن بتل الفراعين فى شمال دسوق والأخرى فى الوجه القبلى وعاصمتها « نخن » (وهى المعروفة الآن بالكوم الأحمر على شاطىء النيل الغربى فى مواجهة «ادفو») . وقد تم توحيد البلاد للمرة الثالثة والأخيرة على يد الملك «مينا» ملك الجنوب وأنشأ عاصمة الدولة المتحدة عند رأس الدلتا وسماها «القلعة البيضاء» وهى التى عرفت فيما بعد باسم « منف » أو « منفيس » وتوجد أطلالها الآن على مقربة من «البدرشين» جنوب أهرام الجيزة .

وبالرغم من أن أهالى القطرين اندمجوا تماما بعد ذلك واختفت معالم ذلك الانقسام الا أن ذكر مملكتى الشمال والجنوب ظل يرد على الآثار المصرية حتى آخر عصور التاريخ المصرى . فكان الملك يسمى ملك الوجهين القبلى والبحرى وكان «بيت المال» يسمى «البيت المزدوج» وهكذا ..

(١) الالقاب الرسمية الخمسة للفرعون هى :

(أ) «حور» وكان يطلق على الملك بمجرد اعتلائه العرش ومعناه أنه صورة حية من الاله : «حور» (حورس) تعيش على وجه الارض . وكان هذا اللقب ينقش داخل مستطيل يمثل واجهة القصر الملكى وعلى قمته صورة الصقر الذى يرمز به للاله حور . =

ذلك فقد خلع الملك على نفســـه ألقابا للوظائف الدينية التى كان يتولاها أولئك الحكام ٠

على أن الوظائف الدينيـــة التى كان يتقلدها ملك مصر لم تســجل تسجيلا وافيا حتى يمكن تتبع أسسها الأصلية ٠ فقد كان الملك يؤدى صلواته اليومية بوصفه الكاهن الأعظم للبلاد ٠ وكانت كافة الهبات الجنـائزية والقرابين تقدم باسمه من الناحية الشكلية ٠

وكان المصريون كما هو الحال عند كثير من الشعوب القديمة يعتبرون أن رخاء البلاد ورفاهيتها تتوقف الى حد كبير على حيوية الملك ونشـــاطه ٠ ومن هنـا فقط يمكننا أن ندرك سر ذلك النظام الصـــارم الذى قام على أساســه تحديد المواقيت اليومية لكل ما كان يؤديه الملك من أعمال ٠ وقد جعله هذا النظام أشبه بعبد لوظيفته ٠

= (ب) «نبتى» أى التاجان الأبيض والأحمر وكان يمثل بنسر وصل (ثعبان) يرتكز كل منهما على سلة رمزا للملكية ٠ ويمثل هذان الحيوانان رمزين لمعبودى مدينة «نخب» فى الوجه القبلى و «بوتو» فى الوجه البحرى ٠

(جـ) «نسوت بيتى» ومعناه ملك الوجهين القبلى والبحرى ويمثـل بنبات «البوص رمز الوجه القبلى» والنحلة «رمز الوجه البحرى ٠ وكان هذا اللقب يطلق على الملك فى اليوم الذى يتوج فيه ٠

(د) «حورنب» ومعناه فى الاصل «حورس الذهبى» ثم تطور فيما بعـد فاصبح مدلوله فى العصر المتأخر وعصر البطالة «حورنبتى» أى حورس المنتصر ٠ وهو يشير بذلك الى انتصار «حورس» على عدوه «ست» الذى كان يقطن بلدة «نوبت» وهى «البلاص» الحالية بالقرب من «قفط» كما ورد فى قصة «ايزيس واوزوريس» ٠

(هـ) واللقب الأخير هو «سا ٠ رع» ومعناه «ابن الشمس» وكان يليه اسم الملك نفسه داخل خرطوش ٠

وهناك مسألة أخرى كانت مثار دهشة عظيمة للاغريق تلك هى خضوع الملك التام للقانون .

ويروى المؤرخ ديودورس الصقلى (١) أن ملوك مصر لم يحكموا البلاد حكما أوتوقراطيا مطلقا كغيرهم من الحكام فى الدول الأخرى ولم يحيوا حياتهم طليقة من كل ضابط أو قيد ، وانما كانوا يراعون حرمة القانون فى كافة تصرفاتهم سواء أكان ذلك خاصا بأمور الحكم أو بشئونهم الخاصة . وعندما بدأ الملوك الأقوياء فى توحيد البلاد فى فجر التاريخ المصرى كانت الدويلات المنتشرة فى أرجاء الوادى تخضع لهم بشروط تعتبر ملزمة للملوك وعليهم احترامها . ومن هنا جاءت فكرة تقييد سلطة الملك خلال العصر التاريخى .

ومن هذا نرى أن تقييد سلطات الملك فى مصر جاء نتيجة تلك التقاليد القديمة التى آلت اليه باستيلائه على مختلف الدويلات التى كانت قائمة فى مصر من ناحية ولشخصيته المقدسة كرمز لحياة مصر من ناحية أخرى .

---

(١) «ديودورس الصقلى» مؤرخ رومانى ولد فى جزيرة صقلية وزار مصر حوالى عام ٥٩ ق.م أيام حكم البطالمة لها . والف كتابا من اربعين جزءا فى تاريخ العالم خصص جزءا منها لمصر . وقد ضاعت أغلب هذه الكتب ولم يبق منها الا ستة أجزاء .

الوزير

في عهد الأسرة الأولى كان الوزير (١) وهو رئيس الأداة الادارية يسمى حامل أختام الملك .

وفي عصر الأسرة الثالثة أصبح منصب قاضي القضاة « سبختي (٢) » أكبر مناصب الدولة . ولبث الوزير يحتفظ بلقب قاضي القضاة حتى زوال الملكية في البلاد . وكان الوزير قطب الرحى في الشئون الرسمية ناهضا بأمور الادارة والقضاء معا ويتلقى التقارير التي ترد من مختلف المقاطعات وسنتحدث عنه بتفصيل في الفصل الخاص بالادارة .

وكانت باكورة الأعمال اليومية التي يزاولها الملك الاطلاع على الرسائل الواردة من أنحاء البلاد . ومن الواضح أن ماكان لديه من تبعات دينية وأعمال أخرى متعددة في حياته اليومية قد

---

(١) لم تكن وظيفة الوزير بمعناها الصحيح معروفه في مصر قبل بداية الاسرة الرابعة اذ أن أول وزير معروف يرجع الى عصر الملك «سنفرو» وهو «نفر ماعت» حفيد الملك «سنفرو» كما يقول بعض المؤرخين (أنظر كتاب مصر ، لدريتون وترجمة عباس بيومي ص ١٦٤) . أو «كانفر» ابن «سنفرو» كما يقول البعض الآخر (أنظر سليم حسن ، في الجزء الثاني ، ص ١٤) . هذا ويعتقد بعض المؤرخين «كادوارد ماير» أن وظيفة الوزير كانت موجودة في عهد الأسرات الأولى ويعتمدون في ذلك على الكتابة التي وردت على لوحة الملك «نارمر» (الذي يرجح أنه مينا) فوق رسم شخص يتبع الفرعون ويرتدي جلد فهد . وهذه الكتابة تقرأ «ثت» وهو لفظ معناها وزير ولكن ذلك غير مؤكد ولايمكن الاعتماد عليه بصفة قاطعة .

(٢) «سبختي Sebekhti » أو «ساب سبختي» .

حال بينه وبين التفرغ الكافي لادارة شئون الدولة • ومن أجل ذلك كانت وظيفة الوزير على أعظم جانب من الأهمية • وعندما وجهت الدولة عناية كبرى الى بلاد النوبة أصبحت الحاجة ماسة الى وجود منصب وزير ثان للجنوب • ولما حكمت الجنوب الكاهنات العظيمات (١) في مدينة « طيبة » ورث مساعد وهن الكبار بطبيعة الحال منصب وزير الجنوب •

توارث الحرف

واذا نحن درسنا شئون الطبقات المختلفة للمجتمع في مصر القديمة نلاحظ وجود نسبة كبيرة من الوظائف والمناصب والمهن انحدرت الى أصحابها عن طريق الوراثة وهو أمر جد طبيعي • ونشاهد مثل هذه الظاهرة في انجلترا وغيرها من الأقطار وذلك

في عهد الأسرة الثانية والعشرين الليبية الأصل لجأ الملوك الى حيلة بارعة للسيطرة على الأملاك الواسعة التابعة لمعابد الاله «آمون رع» اله طيبه فعينوا أبناءهم رؤساء لكهنة هذا الاله في مدينة طيبة .

(١) وقد ابتدع أحد ملوكهم وهو «أوسركن» الثالث بدعة جديدة هي تعيين النساء في هذه الوظائف . فعين ابنته الكبرى «شبن أوبت» كبيرة لكهنة أمون رع وبالتالي مشرفة على ايرادات معابده . وسار «تاكلوت» الثاني على منوال أبيه. ولما غزا النوبيون مصر وطردوا الليبيين عين الملك « شباكا » أخته في هذا المنصب . وقد عرفت تلك الكاهنات في التاريخ باسم «الكاهنات العظميات لآمون» ولما كانت سلطتهن تمتد على النوبة والوجه القبلي فقد كان كبار مساعديهن من الكهنة يعتبرون وزراء للجنوب .

على الرغم من أن لكل فرد هنـاك مطلق الحرية فى تغيير مهنته كما بطيب له •

وعلى النقيض من ذلك نجد أنه اذا ما احترف شخص ما مهنة معينة استحال عليه احتراف مهنة أخـرى غيرها • وان السهولة الطبيعيه التى كان يتعلم بها الابن حرفة والده جعلت كل جيل من الأبناء يثبت على حرف الآباء ثم يعلمها بدوره لأبنائه • وهكذا تنتقل الحرفة بين أفراد الأسرة على مدى الأجيـال ، ومن أجل ذلك فان الأثر الذى اسـتقر فى نفوس الاغريق عندما اختلطوا بهذا المجتمع أن بنيانه قام على نظام وراثى •

تقسيم الأراضى طبقا لنظام الطبقات

وقد لحظ الاغريق أن كلا من الطبقات الثـلاث المؤلفة من الكهنة والجنود والمزارعين يمتلك أنصبة متسـاوية من الأراضى الزراعية • ويروى المؤرخ « استرابون (١) » أن هذه المساواة لم تكن مراعاة فى مصر كلها بوجه عام فحسب ، ولكنها كانت مراعاة فى كل منطقة على حدة • وان تقسيم أراضى كل مقاطعة الى ثلاثة أنواع من الملكيات طبقا لما رواه استرابون وغيره من الكتاب الاغريق

(١) استرابون جغرافى ومؤرخ رومانى زار مصر حوالى عام ٢٥ ق٠م بعـد الفتح الرومانى لها . وظل بها خمس سنوات وألف عنها كتابا رائعا وصف فيـه خططها وأورد بعض الاشارات عن تاريخها . وأهم ماجاء فى كتاب استرابون وصفه الدقيق المفصل لمدينة الاسكندرية .

يشبه ما ذكرته النصوص المصرية القديمة (١) من تقسيم كل مقاطعة في مصر ثلاث فئات :

١ ـ الحقول التى تمع على جوانب القنوات والترع وضفاف النيل •

٢ ـ الأراضى العامة أو المتوسطه الموقع •

٣ ـ الأراضى الممتدة على مقربه من حدود الصحراء وكانت عادة أكثر انخفاضا من أراضى القسمين الآخرين ويعيبها وجود بعض المناقع والبرك فيها •

ولتفصيل ما أجملنا نجد أن الأراضى المتوسطه الموقع هى التى اختص بها الآلهة • فقد كانت فى نصف مجموع مقاطعات الدلتا مخصصة للآلهه « رع » و « حورس » و « آمون »

---

(١) أهم هذه النصوص ماورد على جوسق الملك «سوسرت الثالث» فى الأقصر . اذ دونت عليه جميع المقاطعات على هيئة قائمتين احداهما تشمل مقاطعات الوجه البحرى والثانيه تحتوى على مقاطعات الوجه القبلى . وتذكر القائمة اسم المقاطعه مبتدئه من أسوان التى تعتبر فى نظر المصريين المقاطعه الأولى ثم اسم الاله الذى يعبد فيها واسم العاصمة ، ثم مساحة الأراضى المنزرعة التى تحتويها المقاطعة . هذا وكان عدد مقاطعات الوجه القبلى ٢٢ والوجه البحرى ٢٠ مقاطعة .

و « حابى (١) » و « سبك (٢) » و « بنو (٣) » •

وكان يطلق على هذه الأراضى اسم « الحقول المقدسة » ومن الواضح أن الكهنة هم الذين استأثروا بتلك الحقول • على أنه لم يرد فى تلك السجلات القديمة عند الكلام عن القسمين الآخرين من الأراضى الزراعية ما يتبين منه أنهما خصصا لرجال الجيش أو المزارعين • واذا اعتمدنا على الافتراض والاجتهاد فانه يبدو جائزا أن الجند وقتئذ استحوذوا على الأراضى الزراعية المتاخمة للصحراء • وذلك لصد غارات البدو وأداء التدريبات العسكريه اللازمة والانتقال فى سهولة ويسر عبر الطريق الصحراوية فى أى وقت ن السنة ومهما يكن من الأمر فالظاهر أن تقسيم الأراضى بين طبقات الشعب طبقا للسجلات القديمة يمكن أن يتمشى بوجه عام مع التقسيم الذى ذكره استرابون وغيره من المؤرخين •

ولنفحص الآن مسألة « تملك طبقة ما من المجتمع لمساحة معينة من الأراضى » •

---

(١) «حابى» اله النيل وكان يمثل على هيئة عجل .

(٢) «سبك» اله الفيوم فى الأصل وكان رمزه التمساح وقد انتشرت عبادته فى كثير من جهات القطر .

(٣) « بنو » Benu : أحد آلهة الشمس وكان يمثل فى شكل طائر ويبدو أن كهان مدينة هليوبوليس فى فجر التاريخ المصرى كانوا يشاهدون هذا الطائر يحط كثيرا على شجرة فى معبد الشمس فربطوا بينه وبين عبادة الشمس •

لقد كان عبيد الأرض يؤدون كافه الأعمال الزراعيه فى الأراضى المخصصة للكهنة وكانت معفاة من الضرائب • وكان يعمل فيها عدد من الأفراد مساو لعدد الأفراد الذين يعملون فى أراضى القسمين الآخرين • غير أن محصول « الحقول المقدسة » كان يستحوذ عليه ويستأثر به طبقه رجال الدين • وكانت تلك الحقول قريبه الشبه بالأراضى الموقوفة على الأديرة فى العهد المسيحى والتى كانت تتضمن شروط التنازل عنها بطريق الهبه للصرف منها على بعض أبواب الخير كنفقات التعليم وتقديم المنح تشجيعا للشباب على مواصلة التعليم فى الجامعات بالاضافة الى الأنفاق على نواح أخرى متعددة من الخدمات الاجتماعية •

أما فيما يختص بالأراضى التى كانت فى حوزة رجال الجيش فقد بلغ عدد الجند فى عهد « رمسيس الثانى » ستمائه وخمسين ألفا من الرجال كما رواه « ديودورس » ولعل هذا التقدير فى جملته مقبولا • ذلك أن عدد سكان مصر وقتئذ قدر بحوالى اثنى عشر مليونا • وعلى هذا تكون ثلث مساحه أراضى مصر وهى المخصصة للجند بها أربعة ملايين نسمه • فاذا كان نصفهم من الرجال • وكانت سن التجنيد بين العشرين والستين • واذا استبعدنا من هذا العدد من مات قبل أن يبلغ سن التجنيد • كان عدد الجيش المصرى الذى صوره « ديودورس » فى روايته معناه أن الأراضى المخصصة للجيش لم تكن فى حاجة الى استخدام عبيد الأرض والأرقاء •

اذ كان ينهض بالعمل فيها فى أثناء الحرب الكهول والنساء والغلمان . على أنه اذا فرض أن تعداد الجيش بلغ أربعمائة ألف جندى كما كان الشأن فى عهد الأسرة السادسة والعشرين أو اذا كان مكونا من الأرقاء من كافة أنحاء البلاد فربما تطلب الأمر حينئذ استخدام عبد أو اثنين فى ضيعة من الضياع الكبيرة من الاراضى المخصصة لرجال الجيش .

بيد أن واقع الأمر يحتمل أن يكون أمرا وسطا بين الاحتمالين السابقين .

والظاهر أن رجال الجيش ممن كانوا يملكون أرضا زراعية لم يكن فى استطاعتهم الحصول الا على قدر محدود من معونة عبيد الأرض . فكان لذلك لزاما عليهم أن يقوموا هم أنفسهم بخدمة أراضيهم وزراعتها .

أما الطبقة الثالثة وهى « طبقة الفلاحين » فقد كان لها وضع من حيث امتلاك الأرض أو استئجارها يختلف عن وضع طائفة عبيد الأرض (١) الذين كانوا يعملون تحت امرة الطبقتين الأخريين .

---

(١) استخدم المؤلف كلمة Serf (عبيد الأرض) التى كانت تطلق على العمال الزراعيين فى اقطاعيات العصور الوسطى فى أوربا للدلالة على الأجراء الذين كانوا يعملون فى الأراضى فى مصر . ولكن هذه الكلمة لاتدل تماما على الحالة الاجتماعية لهؤلاء الاجراء لانهم لم يكونوا عبيدا أو رقيقا ذلك أن الرق فى جميع عصور التاريخ الفرعونى لم يتناول أى طائفة من أهالى البلاد . وانما اقتصر على الأسرى الأجانب فقط

. . . .

= والواقع أن مركز هؤلاء الأجراء كان يتغير على مدى العصور بتغير النظم السياسية والاجتماعية السائدة فى البلاد . ففى الدولة القديمة ادعى بعض العلماء بأن عبيد الارض كانوا يعتبرون ضمن الأملاك الخاصة بصاحب الأرض تنتقل ملكيتهم بانتقال ملكية الارض التى يعملون فيها . واستندوا فى ذلك على وثيقتين احداهما وردت فى مقبرة أحد كبار موظفى الدولة فى عهد الأسرة الرابعة المدعو «متن» جاء فيها أنه خلف لأولاده ضيعة من الأراضى ومعها «الأنفار» والمواشى وجاء فيها أيضا أن والد متن ترك لابنه أمواله التى كانت تتكون من «أنفار» و « مواشى » .

والوثيقة الأخرى سند صادر من أحد أفراد حاشية الملك «حفرع» ورد فيها أن هذا العظيم جعل أمواله من أرض و «أنفار» للمؤسسة (أى الأرض والأشياء الموقوفة على مقبرته) التى ذكرها السند . وأن هذا كله أصبح مما لايجوز التصرف فيه . وهذا معناه أن العمال أو الزراع من الأنفار ينطبق عليهم التصرف كما ينطبق على الأشياء سواء بسواء .

ولكن يرد العلماء المعارضون على هذا بقولهم ان هذه النصوص لاتفيد حتما أن العمال أو الزراع يعتبرون من الأرقاء . فالعامل أو الزارع وفقا لهذا الرأى لم تنتقل ملكيته من شخص الى آخر (من «متن» الى أولاده مثلا) . وكل ماهنالك أن العقد الذى يربط العامل أو الزارع بمالك الارض يعطى حقا شخصيا لهذا المالك قبل العامل . ولهذا المالك اذا شاء أن ينقل حقه الشخصى هذا الى من يشاء فيكون المالك الجديد قد حل محل المالك الاصلى فى هذا الحق . أى أن المسألة هى مجرد انتقال للذمة لا انتقال للملكية . ويؤيد هؤلاء العلماء حجتهم بأن جميع الناس فى ذلك العصر كانوا أحرارا . كما ورد فى مرسوم «دهشور» بأن العامل الزراعى لايعمل الا ساعات معينة بالنهار . وكما ورد فى مرسوم آخر للملك «بيبى» الأول بأن العامل كان يعمل بأجر . وهذا كله دليل على أن العامل الزراعى لم يكن مملوكا لصاحب الأرض .

ولكن فى أواخر عهد الدولة القديمة وفى الدولة الوسطى ازداد نفوذ الأشراف فى الاقاليم وكونوا اقطاعيات كبيرة حتى انتهى الأمر بهم الى أن يصبحوا حكاما حقيقيين فى اقاليمهم . وتبعا لذلك فقد الزراع الكثير من حريتهم وأصبح الملاك يتعاقدون معهم على البقاء فى الأرض هم وأولادهم من بعدهم . وتطور الامر بأن أصبح ذلك الامر وراثى ينتقل من الشخص الى ولده ثم الى حفيده بلا قيد ولا شرط . فكان الزارع ملازما للارض لاينتقل منها الى غيرها ولايخرجه المالك

فقد كانوا مزارعين أحرارا من صميم أفراد الشعب
يكونوا خاضعين الا لأداء الضرائب أو الايجارات المقررة •
أنهم كانوا يمتلكون الأراضى المجاورة لضفاف النيل و
الترع • وقد أتاح لهم موقع أرضهم الاستفادة بفترة أطول ل
الزراعى وذلك أنه كان فى استطاعتهم استغلالها فى كل حين
بلغت حالة فيضان النيل من الانخفاض •

أما الطوائف الأخرى التى ورد ذكرها فى كتب مؤ
الاغريق فهم رعاة الأغنام ورعاة الخنازير والصيادون وال
المهرة والتجار وربابنة السفن • ولم يكن أحد من هؤلاء
أرضا زراعية • وكانت الطوائف الثلاث الأولى وهم رعاة
ورعاة الخنازير والصيادون تقتصر أعمالهم على مجرد التنقل
الأراضى القاحلة الخالية من السكان طلبا للكلأ سائمتهم •

وقد استقينا هذه الحقائق عن طبقات الشعب المصرى

= منها أبدا • فأصبح بذلك تابعا للارض • ولأدل على شدة ارتباط بالأرض فى ذلك العهد من أن الكلمة الهيروغليفية الدالة على الضيعة (ز نفس الكلمة التى تطلق على الزراع • ولكن ليس فى هذا كله مايدل على الاسترقاق • فلم تكن للمالك ولاية على شخص الاجير أو الزارع • ولم تكن بينهما علاقة السيد بالمسود بل علاقة التابع بالمتبوع • وعلى ذلك اصبح الزراع نصف أحرار •

وفى عهد الدولة الحديثة اضمحل هذا النظام وتحرر العمال الزراعيين نظام التبعية • ولكن عادت الحال فى العصر المتأخر الى ما كانت عليه فى الوسطى مع فارق واحد هو أن الاقطاعيين الاسياد أصبحوا من الكهنة وا المرتزقة بدلا من أمراء الأقاليم •

من المؤرخين المتأخرين (١) ولكننا عثرنا على نص مصرى فى مدينة أسيوط يرجع الى بداية الأسرة الثانية عشرة يذكر شيئا عن نظام هذه الطبقات يختلف عما ذكره هؤلاء المؤرخون . فيبدأ النص بذكر الملك وموظفيه ، ثم يذكر طبقتين فقط يسمى احداهما « الرجل الصغير » وفلاحيه أو أجراءه (العبيد) أما الرجل الصغير فيقصد به طبقة صغار الملاك من المزارعين وهم الذين يمتلكون مساحات كافية من الأراضى تمكنهم من التبرع بهبات عقارية للمعابد على حين تمثل طبقة الفلاحين أحط طبقات المجتمع ، ولا يملك أفرادها شيئا وهى تعادل الطبقة الثالثة التى يشير اليها المؤرخون . هذا ولم يذكر هذا النص شيئا عن طبقة رجال الدين أو الجيش ولعل السبب فى ذلك أن رجال الجيش فى العصر الذى دون فيه هذا النص (عصر الأسرة ١٢) لم يكونوا قد أصبحوا طبقة منفصلة ، نظرا لأن الملوك كانوا يعتمدون فى حروبهم على تعبئة أفراد الشعب (٢) ثم يسرحونهم بعد انتهاء القتال فيعودون الى حرفهم الأصلية .

---

(١) المقصود بالكتاب المتأخرين هنا كتاب الاغريق والرومان ويعرفون أيضا بالمؤرخين الكلاسيكيين .

(٢) كانت مهنة الجندى من المهن غير المرغوب فيها فى عهد الدولتين القديمة والوسطى . ودليل ذلك وثيقة من ذلك العهد كتبها أحد الحكماء يوصى ابنه بالانخراط فى وظيفة الكتابة والبعد عن مهنة الجندية والسبب فى ذلك يرجع الى عدم وجود جيش موحد ثابت ولكن فى عهد الدولة الحديثة تغير الحال بعد أن أصبح لمصر امبراطورية واسعة اذ أصبح لمهنة الجندية المكان الأول بين وظائف الدولة ، وأغدق الفراعنة على جنودهم وضباطهم الرتب والنياشين والاقطاعيات . فصار الجيش طبقة منفصلة بين طبقات الشعب .

السيد الكبير فى القرية

ويظهر أن النظام الأساسى للمجتمع فى الدولة فى العصور الغابرة قد استمر كما هو دون تبديل أو تغيير (١) . فكان السيد الكبير فى القرية يمتلك ما بين المائة والألف فدان وكان قصره مركز النشاط الاقتصادى والاجتماعى للقرية . وكان خدمه وحاشيته يؤدون وظائف رجال الشرطة ويقبضون على المستضعفين من المذنبين ويسوقونهم قسرا فى المساء للمثول بين يدى ذلك السيد الآمر الناهى . فكان يستمع الى شكايات المعتدى عليهم ودفاع المتهمين ثم يوقع الغرامات المناسبة . وقد يتقدم الحاضرون يلتمسون استعمال الرأفة ويؤكدون عدم قدرة المحكوم عليهم على أداء الغرامات المطلوبة منهم . وهنا قد يعبد السيد الكبير النظر فيها فينقصها ويفسح بعض الوقت أمام المخالفين لتدبير الغرامات المقررة عليهم .

وقد كان قصر السيد الكبير بمثابة منتدى يقصده الأصدقاء والخلان ينشدون فيه الاستجمام والمتعة فى كل وقت من الأوقات . فكنت تراهم مابين متجول فى رحابه الفسيحة أو جالس على أرائكه

(١) يقصد المؤلف بهذا كبار الملاك وكان كثير منهم حتى ماقبل ثورة سنة ١٩٥٢ يشغلون منصب العمدية . ويلاحظ أن كتاب المؤلف يرجع الى عام ١٦٢٢ قد أعيد طبعه سنة ١٩٣٢ .

الممدودة يتسامرون ويحتسون كؤوس النبيذ بين الفينة والفينة ، ثم يستأنفون حياة اللهو والتسلية ، وسواء أكان سيد القصر غائبا عنه أم مشغولا بأموره الخاصة فان ذلك لا يغير من الأمر شيئا بالنسبة لهؤلاء السادة .

وان على السيد الكبير بعض التبعات تجاه السلطات الحاكمة . فقد كان يبلغ عن الجنايات الخطيرة ، ويحتفظ بسجل فيه أسماء المواليد من الذكور لاستدعائهم للتجنيد وقت الحاجة . وكان عليه أن يتأكد من أن مسجل الأراضى ومسجل الايجارات يؤديان واجباتهما وأنهما يعملان على حفظ الأمن والنظام عامة وعلى تحقيق مآربه الشخصية بوجه خاص . ولقد كانت الفرص له مواتية فاذا كان فظا غليظ القلب أسيراً لحمقه ونزقه أرهق الأهلين بظلمه وابتزاز أموالهم ، واذا كان حصيفا طيب القلب رفيقا بالناس استفاد من التذبذب الطبيعى للأسعار طول العام ، اذ يبيع الفلاح عادة محصوله بثمن بخس عقب الحصاد مباشرة ، ويستطيع ذلك الحازم الحصيف أن يشترى فائض منطقة من المناطق ويختزنها . ومع ذلك ينظر اليه الناس نظرتهم الى المحسن المنقذ من الكرب والضيق .

ومن أقوال بعضهم :

ولقد قدمت الخبز لكل جائع وكسوت العارى . ولم اغتصب

شيئا من ملك الغير • ولم أنطق الا بالحق ولم أتحدث الا بالخير ولم أرو الا صدقا وما خشى انسان على نفسه فى منطقتى ممن هو أقوى منه حولا أو أعز نفرا (١) • وقد يقول كثير من الأغنياء الآن فى طول البلاد وعرضها هذه الأقوال وأمثالها كما كان يقول أضرابهم منذ نحو خمسين قرنا •

وللمحافظة على هذا المستوى الرفيع من العدل والانصاف فلابد من سيطرة يقظة نشيطة كان يقوم بها حاكم الاقليم فى الماضى ويقوم بها المدير فى الوقت الحاضر وبدون ذلك يصبح ما ذكر من بر واحسان استثناء لا قاعدة • فالجيش واغتصاب الأملاك وابتزاز الأموال كانت الأمور الشائعة فى كل العصور •

ان الاستقامة أصبحت منبوذة والظلم يضرب أطنابه فى المجلس (Council) (٢) • ان القوم جميعا يسلكون طريق الخطايا والذنوب • ولم يعد للاحترام المتبادل بين الناس من أثر فى الحياة ، بل ولم يبق للرجل الفقير من حول يدفع به عن نفسه ظلم من هم أقوى منه بأسا ، وان من ينتقد قولا يفقد صديقا ويكسب

---

(١) ردد ذلك القول أمراء الاقطاع فى أواخر الدولة القديمة وفى الدولة الوسطى من باب المباهاة والتفاخر ووجدت هذه العبارات منقوشة على مقابرهم فى أسوان وبنى حسن (بالقرب من المنيا) .

(٢) كان فى عاصمة كل مقاطعة مجلس Council يسميه المصريون (زازات) موكل اليه الأمور القضائية .

عدوا لأن القلوب أصبحت لا تقبل الصدق (١) (B.D.R.) وهذا ما كان يحدث فى مصر حتى عهد قريب (٢) •

ومن العبث أن نحمل كبار الملاك فى القرى تبعة ذلك العيب وذلك أنه لو أتيح للفلاح العادى فرصة الاستحواذ على النفوذ والقوة والسيطرة لعامل الناس نفس المعاملة • ولهذا فان الأمر يستوجب هيمنة قوية من جانب الحكومة على شئون البلاد كى يتحقق الأمن وتزدهر أحوال الشعب وهذا ما حدث فى عهود « خوفو » و « أمنحات » و « أمنحتب » •

طائفة الموظفين

وقد تعددت ألقاب الموظفين بدرجة عجيبة فى عهد الدولة

(١) ردد هذه التأملات الحزينة الكاهن «خع ــ خبر ــ رع ــ سنب» الذى كان كاهنا لاله الشمس فى مدينة هليوبوليس فى عهد الملك سنوسرت الثانى زمن الأسرة الثانية عشرة • وقد ظلت هذه التأملات تردد لمدة أربعمائة عام حين دونها أحد الكتبة فى عهد الأسرة الثامنة عشرة على لوح يوجد الأن بالمتحف البريطانى. ولعل هذا الرأى لايعبر عن الواقع لأن مصر فى ذلك العصر كانت فى أزهى عصورها. ولعله يعبر عن رأى متزمت •

(٢) لقد تغير كل ذلك الآن بعد ثورة يوليه سنة ١٩٥٢ فتلاشت طبقة كبار الملاك الاقطاعيين التى يتحدث عنها المؤلف . وأصبح كل مواطن يشعر بمسئوليته وكيانه فى المجتمع • وربطت القومية بين جميع المواطنين برباط متين ، ولذلك لم يعد الخوف من السلطة الحاكمة هو الوازع الوحيد بل هناك دوافع أخرى نابعة من النفوس •

القديمة . حتى أنه كان من النادر العثور على مقبرة دون مشاهدة صفوف طويلة من ألقاب صاحبها مدونة على جدرانها (١) وقد اتسع نطاق هذه الظاهرة الغريبة حتى بلغت ذروتها فى عهد الأسرة

---

(١) يرجع تعدد ألقاب الموظفين فى مصر القديمة الى عدة أسباب منها :

(أ) كان الموظفون شديدى الولع بالألقاب . وكانوا ينشئون لقبا خاصا لكل عمل من أعمالهم القضائية أو الاداريه . فاذا لزم مثلا أن ينقلوا الأوامر الملكية الى منطقتهم لقبوا أنفسهم «المستشار للأوامر الملكية» . وعندما كانت واجباتهم تقتضيهم أن يديروا الاشغال العامة كانوا يسمون أنفسهم ، «المشرفون على أشغال الملك» و «المشرفون على المهام الملكية» فاذا جمعوا ضرائب الغلال والماشية فى دوائرهم الادارية أو أشرفوا على الجيش الاقليمى حملوا لقب «المشرف على بيوت الصحية والتموين» أو «المشرف على ديوان الاسلحة» .

فاذا كان لهم مكتب يضم الكتبة المتصلين بعملهم حملوا لقب «المشرف على الكتبة» .

(ب) كان هؤلاء الموظفون يكتبون ألقابهم الصغيرة الى جانب الألقاب الكبيرة . ولذلك يجد الانسان فى قائمة ألقاب الموظف الواحد تباينا كبيرا بين لقب صغير جدا « كاتب المئونة » وبين الالقاب الكبيرة .

(حـ) بمرور الزمن أصبح كثير من الالقاب فخرية ولاتدل على ممارسة الموظف فعلا للاختصاص الذى يخوله له اللقب . وكان الموظفون يكتبون هـذه الالقاب لمجرد الشرف . ومثال ذلك لقب «المقـرب من الملك» و «الثـانى بعـد الملك» وهكذا ...

(د) كانت الوظيفة الواحدة متعددة الاختصاص وهذا بديهى لأنه فى ذلك الزمن البعيد لم يكن المجتمع قد بلغ تعقيده الحالى . ولـما كان لكل ناحيـة اختصـاص لقب ، فقد تعددت ألقاب الموظف .

(هـ) فى أواخر عهد الدولة القديمة ضعف الملوك فصاروا يغدقون الالقاب على كبار الموظفين وحكام المقاطعات بغير حساب .

السادسه • فقـد دون « ايبى » على مقبرته فى دير الجبراوى (١) الألقاب الآتية :

فى البروتوكول : « الأمير الوراثى » و « الذى يلى الملك فى المكانة »

وفى البلاط الملكى : « حامل أختام الملك » و « المشرف على القصر الملكى » و « المكلف بخـدمة العـرش » و « رئيس الحجاب » و « المشرف على خزائن الثياب » و « كاتم السر » •

فى القضاء : « رئيس القضاة » و « كاتب سجلات المعابد » •

فى الدين : « رئيس المرتلين للتعاويذ والأسرار » و « الكاهن المكلف بتقديم القرابين » و « مـدير الخدمات والطقوس الدينيـة » و « كاهن أحد الأهرام » •

فى الأقاليم : « حاكم المقاطعتين » و « المشرف على صوامع الغلال ومناقع طيور الصيد وخزائن المال وشئون اقليم الجنوب » وهو أيضا « حامى حمى عاصمة الجنوب وقلعتها فى الكاب (٢) » •

---

(١) الأمير «ايبى» حاكم مقاطعة طينة (فى مديرية جرجا) فى الأسرة السادسة ومقبرته فى دير الجبراوى شرق النيل فى مواجهة منفلوط وكان ابنا للأمير «راو» صهر الملك «ببيى» الأول •

(٢) «الكاب» مدينة «نخب» القديمة وتوجد أطلالها شمال «أدفو» بقليل شرق النيل . وكانت عاصمة الصعيد قبل توحيد القطرين على يد الملك «مينا». وكان بها قلعة ضخمة . ولعل ذكر «ايبى» لهذا اللقب يشير الى ذكرى العهد البعيد عندما لم تكن حدود الدولة المصرية تتعدى هذه المدينة مما استدعى انشاء قلعة لحمايتها من هجمات النوبيين . أما وقد امتدت أملاك الدولة الى ماوراء حدود «أسوان فقد أصبح لقب» حامى عاصمة الجنوب وقلعتها فى الكاب» من القاب الشرف فقط .

وهذه الألقاب وغيرها تصل الى الأربعين منصبا كان يتقلدها رجل واحد ، وكانت كلها أو بعضها تأتى بايراد طيب له •

لقد كان عدد الخدم الذين يحتفظ بهم كبار الملاك عظيما • وكانت حاشية كل أمير من أمراء « بنى حسن » (١) تنقسم الى أربع فئات : الخدم الخاصون وخدم القصر وخدم الضياع ثم الموظفون • ونذكر فيما يلى عدد رجال الحاشية والخدم لكل من الأمير « امونمحات » والأمير « حنوم حتب » على التوالى :

أولا : الخدم الخاصون :

كتبة ٥ ــ ٥ وحملة أختام ٢ ــ ٤ وناقل أخبار ــ ورئيس خدم وخادم شخصى وخادم لنشر الحصير أمام الأمير ونديم ووصيفة وأتباع ٤ ــ ١ •

ثانيا : خدم البيت :

مشرفون على الجناح الخاص لصاحب القصر ١ ــ ٢ ومدير للمستودعات والمخازن وأمناء للقصر ٣ ــ ٥ وكتبة للتثمين والمبادلة ٢ ــ ١ وكاتب لشئون الأغذية وأمين للمطبخ وأمين لأشياء أخرى ومستوردون لحاجات القصر ١ ــ ٣ وساقى

---

(١) «بنى حسن» قرية فى مديرية المنيا بها مقابر صخرية لحكام هذا الاقليم فى عهد الدولة الوسطى أهمهم «أمونمحات» و «حنوم حوتتب» وكان هؤلاء الحكام يمثلون الطبقة الاقطاعية فى البلاد اذ كانوا شبه مستقلين فى أقاليمهم •

وخبازون ٢ ومشرفَ على المغاسـل ومشرفات على شـئون القصر ٧ ـ ٥ •

ثالثا : مستخدمو الضياع :

مشرفون على محاصيل الضياع ٥ ـ ٤ ومشرف على قطعان الماشـية ورعاة ٤ ـ ٤ ومشرف على كـل ألف رأس من الماشية وراعى حمر وراعى غزلان ومشرفون على مصـايد السمك ٣ ـ ٣ ومشرف على قطعـان الماعز ٢ ـ ٢ ومدير لمكاتب الضياع ومشرفون علىالنجارين والنساجين وبستانيون ومشرفون على الطعام المحفوظ •

رابعا : الموظفون الرسميون المشرفون على الأعمال العامة :

حاكم القلعة وقائد عام لجيش الأمير ومسجلون حـكوميون للاشراف على تحصيل الضرائب المستحقة ٢ ـ ٢ ومراقبون للشـئون المنزلية ٣ ـ ومراقبـون للخـزانة ٢ ـ ورئيس محكمة وقائد للشرطة وقائد للجند ومحاسبون ٣ ومشرفون على شئون المقاطعـة ٣ ومشرفون على شئون الصـحراء ٢ ومشرفون على الترع ومشرف على الصيادين • لأن الأمير « خنوم حتب » كان صـيادا ماهرا وكثيرا ماجاب أطـراف الصحراء طلبا للصيد والقنص بالشباك •

ولعل هذه القائمة تعطينا فكرة عن ذلك الجهاز الضخم من الموظفين والخدم الذين كانوا يساعدون الأمير فى الخدمات العامه أو يقومون بخدمته الخاصة . وعلى الرغم من أنه لا يرد ذكر لتلك الوظائف جميعا فى المقبرتين فليس ضروريا أن نستنتج من ذلك أنها غير موجودة فى أحدهما لعدم ذكرها فيها .

ان كثرة عدد حمله الأختام انما يرجع الى أن الايرادات والضرائب كانت ترد فى مقادير صغيرة وكانت عينية . ولم تكن تدفع نقدا دفعة واحدة . ومن ثم كانت الصكوك المختومة تسلم الى أربابها طوال اليوم فى مقابل الغلات الواردة أو المنصرفة .

الحياة فى المدن

واذا انتقلنا لدراسة المناصب الادارية الأقل درجة (من درجة أمير مقاطعه) فانه يروى أنه كان فى كل مدينة من المدن (مفسر للقانون) . ولم يكن يشغل وظيفة القاضى بمعناها المعروف لنا الآن ولكنه كان حاكما ينظم أمور المدينة طبقا للقانون ويشرف على امداد المدينة بكل ما تحتاج اليه وكان موضع احترام القوم واجلالهم. وكان يرتدى الزى الرسمى القرمزى . ويليه فى الأهمية الكاتب أو « مسجل الوثائق الرسمية » ثم « قاضى القضاة » ثم « قائد عسس الليل » . وعلى الرغم من أن استرابون قد ذكر كل هذه الوظائف فانه يبدو أنها من بقايا نظم قديمة . وكان يحرم تحريما باتا على أهل

المدن من الصناع المهرة تغيير حرفتهم • فقد أخذ القوم بالنظرية القائلة : ان خير سبيل لبلوغ غاية الكفاية هو التفرغ لمهنة يرثها الانسان أبا عن جد ، بيد أن وراء الأخذ بتلك النظريه كان يكمن دافع آخر بأن هؤلاء الصناع ينبغى ألا يتدخلوا فى الشئون المدينة العامة • وهذه الحقيقة أيضا وان كانت قد عرفت أيام « استرابون » فمن الواضح أنها تمثل نظاما كان معمولا به فى العصور السابقة بغية ابقاء السلطة السياسية فى أيدى الموظفين دون سواهم • وان ذلك يوائم الفكرة القديمة ألا وهى احتقار أهل الريف الأمر الذى اتخذه الفنانون فى تلك العصور مادة للسخرية فى الرسوم الهزلية التى تتجلى على القبور • والى عهد قريب كانت طبقة الموظفين حتى أصغر كاتب ترى فى الفلاح لقمة سائغة سهلة الازدراد ، وأن لا جناح عليهم أن يوقعوا عليه كل حيف أو أذى « لأنه مجرد فلاح (١) » • ومع أنه كان هناك طائفة كبيرة العدد من المزارعين الأحرار ، الا أن الأعمال التى كانت تتطلب مهارة وحذقا كان قد تخصص فيها صناع مدربون فى دوائر النبلاء • ولم يكن فى البلاد طبقة متوسطة كبيرة العدد حتى ينشط الطلب والاقبال على السلع والحاجات • وكان النبيل وآل بيته يسدون حاجتهم ويحصلون على الأشغال الفنية من مقاطعته • أما الفلاح فلم يك يشترى كما هو الحال اليوم الا الضرورى من الحاجات ولم يكن فى البلاد طبقة من

(١) أصبح كل ذلك فى ذمة التاريخ بعد أن ردت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ للفلاح اعتباره وكرامته .

التجار الأثرياء لأن تجارة البلاد الداخلية كانت في تلك العصور ضئيلة ، أما التجارة الخارجية فمن المحتمل أنها كانت في أيد أجنبية ، ولذلك كانت فرص النجاح محدودة في وجه الصانع الماهر الذي يبغي الاشتغال بالأعمال الحرة . ولم تكن طبقة الموظفين كبيرة العدد في الأزمنة الأولى الى أن كان عصر الدولة الحديثة حين قامت حكومة مركزية قوية يسيرها عدد ضخم من الموظفين يكون طبقة متوسطة ذات قوة شرائية ذات بال . ونلمح هذا في حجم بيوت مدينة كاهون (١) في الأسرة الثانية عشرة فقد كان فيها ثلاثمائة وخمسين منزلا للعمال وصغار الموظفين يتراوح عدد غرف كل منزل منها ٤ و ٧ غرف وكانت تلك المنازل صغيرة المساحة في صفوف متراصة مزدحمة . والى جوارها نجد اثنى عشر دارا عظيمة يحتوى كل منها على حوالى ستين غرفة فوق ما بها من أبهاء فسيحة ذات عمد عالية . والحق أنك لاتجد في تلك المدينة شيئا وسطا بين ثراء عريض وفقر مدقع . ثم يمر الزمن واذا بنا في عهد الأسرة الثامنة عشرة حيث كان المسكن العادى في مدينة « العمارنة » يتألف من منزل مستقل مكون من اثنتي عشرة غرفة متوسطة الحجم ويحيط بها فناء فسيح . فالفرق بين مساكن المواطنين العاديين من أفراد الشعب ومساكن الأثرياء المترفين في عهد

(١) «كاهون» كلمة حرفها فلندرز بترى عن لفظه «اللاهون» وهى بقعة أثرية بالقرب من الفيوم أجرى بها بترى عدة حفائر هامة وقد أخذ المؤرخون الاجانب منه هذه الكلمة واستخدموها فى كتبهم .

كل من الأسرة الثانية عشرة والأسرة الثامنة عشرة يشبه الى حد كبير الفرق بين المنازل الفقيرة فى حى مصر القديمة بالقاهرة والفيلات الجميلة فى ضاحية المعادى • ومن هذا يتبين أن طبقه الصناع الفنيين قد أخذ يظهر لها كيـان مستقل • وان سار هـذا التغير سيرا بطيئاً وجاء فى وقت متأخر نوعا بالنسبة لتطور المجتمع المصرى • على أن هذه الطبقة رغم هذا لم يـكن لها نفوذ فى الحياة السياسية فى البلاد كمـا كان للموظفين والكتبة • وقد وجـد فى المجتمع المصرى منذ أقـدم العصـور طائفـة من التجار الأحرار ، غير أن عددهم كان قليلا وبلغوا من القلة حدا لم يستطيعوا معه أن ينعموا بنفوذ يذكر فى شئون الدولة •

والظاهر أن الطبقات الدنيا من العمال غير الفنيين كانوا يعملون جماعات • اذ أننـا نجد فى عدة حالات النظام الذى كان يقضى بأن كل عشرة لهم رئيس من أنفسهم • وكانت تلك النسبة معمولا بها بين عمال مناجم سينا •

وقد وجدنا بين تماثيل المجيبات (الأوشابتى (١)) أن كل

(١) كلمة مصرية قديمة معناها «المجيبات» أو التى «تجيب على النـداء» أطلقها المصريون القدماء على تماثيل صغيرة من الخشب أو القاشانى على هيئة المومياء كانت توضع فى قبر الميت • وقد كثرت هذه التماثيل بدرجة عظيمة فى الدولة الحديثة حتى بلغت الآلاف فى مقبرة واحدة • وهى تدل على مدى الترف والدعة التي سادت فى مصر أبان ذلك العصر ، ذلك أن المصرى كان يتصـور الجنة وان كل من يدخل الجنة مهما علت مرتبته فسـوف يعمل فى الحقول الأخروية • وليس من شك أن هذا التخيل يرجع الى العصـور المبكرة من التاريخ الفرعونى عندما كانت جمهرة الشعب من الفلاحين ، ولكن فى الدولة =

عشرة تماثيل عادية لها رئيس يلبس مئزرا أو عباءة . وكان رؤساء العمال يستطيعون جلب مئات منهم للعمل فى المشروعات الكبيرة .

الأشغال العامة

وكانت هذه الطريقة هى السائدة فى جمع عمال المعادن وعمال المقابر . وان تسخير العمال فى المشروعات العامة وهو ما يسمى « بالسخرة » كان دائما ظاهرة مألوفه لتنفيذ المشروعات . فقد كان الفيضان يغمر الأرض ويحيط بالقرى فلا يجد الفلاحون عملا يعملونه . وفى الوقت ذاته كان يهدد الجسور الرئيسية بالانهيار وهى الجسور التى كانت تتوقف على سلامتها حياة البلاد . وقد استوجب الصالح العام تسخير العمال للمحافظة على منشآت الرى والجسور وزد على ذلك فان هناك فترة فى أوائل الصيف بعد جنى المحاصيل من الأرض حوالى شهر ابريل . وهذه الفترة التى تصل الى ثلاثة أشهر (مايو ويونيه ويولية) قبل حلول الفيضان لا يجد العمال الزراعيون فى أثنائها أى عمل فى معظم الحقول الزراعية .

= الحديثة أصبحت الفكرة عن الجنة بهذه الصورة لا تلائم العصر . فالمصريون قد استنكفوا أن يؤدوا هذه الاعمال الشاقه فوضعوا فى مقابرهم تماثيل بفأس لتكون بديلا عنهم تقوم بالعمل الذى سيكلفون به . وزودوا كل تمثال بفأس وزنبيل . وكتبوا عليه العبارة الآتيه «أيها الأوشابتى» اذا نودى عليك فى الآخرة للقيام بعمل فى الحقول بدلا منى فلتقل عندئذ هاأنذا .

وخلال تلك الفترة تجف الترع والقنوات ولذلك يسخر العمال في هذه الفترة أيضا لتطهير الترع وتعميقها • واذا فقد كانت الأعمال الرئيسية الخاصة بشئون الرى فى البلاد تتطلب العمل فيها فى وقت لا يقوم خلاله الفلاح بأى عمل • وبذلك أصبح تشغيل الفلاحين فى الخدمة الاجبارية أمرا طبيعيا • والعمل فى الجسور والسدود يتطلب تنظيما دقيقا • فمثلا اذا تسرع المزارعون المشتركون فى أحد الأحواض الى فتح الجسور فى غير الأوقات المناسبة وغمر الحوض بالماء دون تنظيم دقيق فربما ترتب على ذلك اغراق بعض القرى المجاورة ، ولهذا فقد كان وضع نظام دقيق أمرا لابد منه فى كل الحالات • ثم ان المخازن التى تودع فيها المواد المستعملة فى تقوية الجسور واصلاحها تتطلب عناية خاصة • وقد شاهدت رجلا يجلد على قدميه لأنه سرق بعض الأخشاب والحبال • وبذلك عرض حياة البلاد للخطر فى حالة حدوث ثغرة فى أحد الجسور • هذا الى أن طوائف الفلاحين كانت تحتاج الى بعض الرعاية حتى لايساء استعمال نظام السخرة • فقد يجبر مئات العمال على عمل قد لايتطلب سوى عشرات قليلة منهم • فاذا انعدم الاشراف وساءت الادارة انحلت عزائم العمال ومالوا الى التسكع وربما لا يجدون ما يكفيهم من الغذاء • وكانت السخرة فى العصر الرومانى تقتصر على خمسة أيام فى السنة •

تسخير الرقيق

وكان استخدام الأرقاء ضيق النطاق فى العصـور الاولى من تاريخ مصر • وهؤلاء الأرقاء غير عبيد الأرض الذين كانوا مرتبطين بالمزارع التى يعملون فيها • ولهم هناك مساكنهم الخاصة ولايجوز التصرف فيهم بالبيع •

وفى عهد الأسرة الثانية عشرة كان من الممكن تأجير الرقيق وأسرته لأداء بعض الأعمال ، ولكن ليس هناك دليل واحد على التصرف فيهم بالبيع والشراء •

على أن الأمر كان يختلف فيما يتعلق بأسرى الحرب اذ كان نقل ملكيتهم من الأمـور المقررة سواء أكان ذلك بأمر الملك أم عن طريق البيع • بيد أننا لم نعثر اطلاقا على أى دليل على وجود أرقاء من الزنوج فى عهد الأسرة الثانية عشرة • أما فى عهـد تحتمس الثالث فلم يتعد مجموع عدد الأسرى الذين وقعوا فى قبضته خلال عشرين عاما من حروبه عشرة آلاف أسـير • وهو رقـم لا يسهم بمقدار يذكر فى تعداد سكان مصر • ومـع ذلك فقد كان هؤلاء الأسرى من الصناع المهرة والنساء الممتازات • ولذلك صار لهم فيما بعد نفوذ واسع على الطبقات الحاكمة فى البلاد • ولقد مرت الحقبة الباقية من عصر الأسرة الثامنة عشرة بعد تحتمس الثالث دون قيام حـروب كثيرة • ولهذا كان من المحتمل الا يزيد عـدد الأرقاء العاملين الا قليلا • مع العلم أنه من الجائز أن الأرقاء الذين جيء

بهم قبل ذلك الى البلاد من الخارج قد اندمجوا فى المصريين خلال بضعة أجيال . هذا ويبدو أن رمسيس الثانى خلال حروبه المتواصلة لم يجلب معه سوى عدد قليل من الأسرى . وقد استهلت الأسرة العشرون عهدها بالحصول على عدد كبير من الأرقاء اسرهم رمسيس الثالث . وهو الذى وهب لخدمة المعابد وحدها ١١٣٤٣٣ أسيرا فى الفترة التى قضاها فى حكم البلاد . ولاشك أن الجانب الأعظم من هؤلاء الأرقاء أسرهم هذا الفرعون عندما قضى على الهجمات المسلحة التى قامت بها الشعوب المهاجرة القادمة من الغرب ومن الشام . ويحتمل أن أعدادا أخرى من هؤلاء الأسرى استخدموا فى المشروعات الحكومية أو وزعوا على رجال الجيش والموظفين . ولذلك لا نكون مبالغين اذا افترضنا أن عدد الأسرى الذين دخلوا مصر فى عهد ذلك الملك قد بلغ ربع مليون أسير . وهو ما كان يعادل ١٠٪ من عدد السكان العاملين فى البلاد بيد أن الجانب الأكبر من هؤلاء الأسرى كانوا يؤدون أعمالا غير منتجة . ولذلك وقع عبء اطعامهم على كاهل بقية سكان البلاد .

ان كافة المواد الغذائية التى كانت تقدم قرابين للمعابد فى شتى أنحاء الدولة ما كانت لتفى بسد حاجات هؤلاء الأسرى لمدة تزيد على سدس المدة التى قضاها رمسيس الثالث فى حكم البلاد . وكان هناك نوع غريب من الاسترقاق فى عهد الأسرة السادسة والعشرين وهو نظام الاسترقاق بمقتضى عقود معترف بها . فقد كان الرجل

يوافق على أن يتعاقد مع آخر على أن يكون كرقيق له مدى الحياة لقاء دين عليه أو لقاء أجر لعلاج من مرض ألم به • وكان هـذا الرقيق يتنـازل عن كافة ممتلـكاته بل عن أطفـاله حينذاك ومن سيولد له فى المستقبل • واذا كان هذا النوع من العقود قد عمـل به فى عهـد ازدهار الحياة فى مصر فالراجح أنه كان شـائعا فى عصور الشدة والضيق • وقد حدث فى احدى غزوات الامبراطور أغسطس ضد أثيوبيا (١) أن وقع عدد كبير من الاثيوبيين فى الأسر فأحتفظ الامبراطور بألف أسير منهم ليكونوا ملكا ليمينه وبيع الباقى جهارا باعتبارهم من غنائم الحرب •

وخلاصة القول أن تجارة الرقيق فى مصر لم تبلغ قط ذلك المبلغ الخطير الشائن الذى بلغته فى كل من اليونان وايطاليا • وذلك لأن نظام العمال الأجراء الذى يبدو أنه كان متبعا فى كافة عصور التاريخ فى مصر قد جعل أصحاب الضياع الواسعة فى غير حاجة الى الأرقاء • ولقد كان نظام تسـخير العمال فى مصر قد سـار فى حدود الاعتدال ، وخـلا فى معظم الأحـوال من مظـاهر الايذاء والقسوة • ولذلك لم يقف حائلا فى سبيل ظهور الكفايات الممتازة بين العمال المسـخرين ، ذلك الى أنه جنب البـلاد الخراب الذى يجره الرق عادة •

(١) اثيوبيا هى الأسم الذى أطلقه المؤرخون القدماء وخاصة الاغريق على المنطقة الممتدة من وادى حلفا حتى الخرطوم ولاتشمل بلاد الحبشـة . وكان المصريون القدماء يطلقون على أثيوبيا هذه «بلاد كوش» (انظر سـليم حسن مصر القديمة جزء ٠ (أ ص ٧٧ ـ ٧٨) ٠

تنظيم العمل

اننا نجد أوفى بيان للعمل فى العصور الأولى فى تلك المعلومات والبيانات التى سجلها هيرودوت (١) عن بناء الهرم الأكبر • وعلى الرغم من أنه قد مضى آلاف السنين عليها قبل تدوين هيرودوت لها ، الا أنها تصور ظروف الحياة فى تلك العهود الغابرة تصويرا صادقا الى حد يجعلنا نثق فى صحة نقلها • انه يذكر أن مائة ألف من العمال كانوا يشتغلون فى نقل الأحجار مدة ثلاثة أشهر متتابعة• وهذا يتفق والوضع الطبيعى لامكان الاستفادة من عدد كبير من العمال زمن الفيضان وهو الوقت الذى يظل فيه هؤلاء العمال الزراعيون بلا عمل • هذا الى أن ارتفاع منسوب مياه النيل وقتئذ قد ساعد على نقل الأحجار عبر الوادى بأسره من سفح الهضبة الشرقية الى سطح الهضبة الغربية • ويستطرد هيرودوت فيقول ان هؤلاء العمال قد أمضوا عشر سنوات فى انشاء الطريق

---

(١) هيرودوت مؤرخ يونانى زار مصر حوالى عام ٤٥٠ ق•م وألف عنها كتابا ظل أهم مرجع فى تاريخها القديم حتى استطاع علماء الآثار حل رموز اللغة المصرية ومعرفة التاريخ المصرى من كتابات المصريين انفسهم • وقد وجد أن جزءا كبيرا مما كتبه هيرودوت على جانب من الصواب • ولو أنه نقل كثيرا من المعلومات المشوهة وبالغ فيها لاثارة اهتمام قرائه • وقد سمى هيرودوت أبا التاريخ لشهرته وذيوع صيته •

المؤدى الى الموقع الذى أختير لبناء الهرم (١) وفى تمهيد ذلك الموقع وفى حفر الممر السفلى والغرفة الملحقة به • ثم كان أن أستغرق بناء الهرم نفسه عشرين عاما • وهذا الزمن الطويل يفيد أن طائفة من ثمانية من العمال (وهو أكبر عدد يمكن استخدامه لنقل كتلة حجر واحدة) كان فى استطاعتها نقل عشر كتل من الأحجار الضخمة من المحجر فى الهضبة الشرقية عبر النيل (٢) ثم على الطرق المرتفعة الممتدة على منحدرات الصحراء الغربية ثم رفعها الى أماكنها فى مبنى الهرم وذلك فى غضون ثلاثة شهور وكان من الممكن أن يتم ذلك متى توفرت أسباب حسن الادارة والتنظيم • والى اليوم يمكن مشاهدة عدة طرق موازية لذلك الطريق الرئيسى الكبير ممتدة فوق الهضبة • ومن المؤكد أن تلك الطرق الفرعية كانت خلال فترة البناء غاصة بطوائف العمال وقد أخذوا يدفعون أمامهم آلاف الكتل من الصخر كل يوم خلال موسم العمل • ومما لاريب فيه أن طائفة من البنائين المهرة قد أستخدموا فى بناء الكسوة البديعة المحكمة البناء ، والممرات الداخلية فى ذلك الهرم • ويمكن

(١) هذا الطريق يعرف فى علم الآثار بالطريق الموصل بين المعبدين (Causeway) لأنه بعد اتمام بناء الهرم كان يستخدم للربط بين المعبد الجنائزى الملاصق للهرم وبين معبد الوادى القريبه من النيل . اذ كان لكل هرم معبدان وطريق . ويمكن مشاهدة بقايا هذا الطريق شرق الهرم الاكبر فى المسافة الممتدة الى قرية نزلة السمان .

(٢) كانت الحجارة تقطع من محاجر طره الواقعة شرق النيل وهذه الحجارة كانت تستخدم فى بناء كسوة الهرم وبعض ممراته الداخلية . اما كتلة الهرم نفسه فقد بنيت من الاحجار المقطوعة من صخر الهضبة القائم عليها الهرم .

مشاهدة التكنات التى خصصت لاقامة هؤلاء البنائين الى اليوم • وهى تتسع لسكنى أربعة آلاف رجل بصفة دائمة • فاذا كان نصف هذا العدد من البنائين قد تفرغ لانجاز عملية بناء الكسوة الخارجية كان على كل واحد منهم أن يعد قطعة واحدة من هذه الكسوة اعدادا دقيقا ويثبتها فى مكانها فى ثلاثة أسابيع أو أن يقوم بذلك العمل ثلاثة رجال فى مدة أسبوع • وهذا تقدير معقول • ومن الطبيعى أن تثبيت الكتل الحجرية الضخمة فى القاعدة قد أستغرق وقتا أطول من ذلك بكثير • كما أن تثبيت الحجر الواحد فى المداميك الصغيرة استغرق نصف تلك المدة • ان هذا العمل العظيم وما كان يتطلب انجازه من جماعات ضخمة من الرجال كان لابد له من مهارة فائقة فى التنظيم • ولولا هذا التنظيم المحكم لوجدنا هؤلاء الرجال قد تزاحموا فى فوضى واضطراب فى منطقة البناء الضيقة • وقد كتبت تفاهات كثيرة عن مدى الظلم الفادح الذى وقع على كاهل هؤلاء العمال وعما أذرفوا من دموع وأطلقوا من أنين • لقد كان الاشراف على هؤلاء القوم محكما بفضل ذلك التنظيم البديع الذى يدل عليه ذلك العمل العظيم • ولم تستعمل أية قسوة ولاشدة ولاعنف (١)

(١) هذا رأى أحد علماء الآثار الانجليز الذى تخلص الى حد كبير من استعماريته وشهد شهادة حق وانصاف بأن الاهرام لم تبن بآلام الشعب المصرى ودموعه . وكان يحلو للمؤرخين المغرضين ان يشوهوا تاريخ مصر ويسفهوا أحلام المصريين الاقدمين ويقللوا من قدر حضارتهم حتى يضعفوا فى المصريين الحاليين روح الاعتزاز بماضيهم ويصرفوهم عن التشبه بأجدادهم فيظلوا الى الابد خاضعين خانعين •

فى اتمام ذلك العمل فقد كان كل فرد فى البلاد مكلفا بالعمل بنظام السخرة مرتين فقط طول حياته • وكان يعيش فى دعة ويسر كما لو كان فى منزله ، اذ لم يكن فى استطاعته أن يعمل شيئا خلال فترة فيضان النيل (١) •

وغاية ماهو مطلوب من كل عامل أن يجلب معه مازنته قنطاران من المواد الغذائية اللازمة لاستهلاكه الشخصى • وهو ماكان يستهلكه حتما لو ظل قابعا فى عقر داره (٢) ولاشك أنه كسب عظيم لهؤلاء القوم أن يتعلموا نظام العمل الجماعى ويتلقوا دروساً عملية فى التدريب المهنى •

---

(١) كان هذا الاجراء يدل على مبلغ الوعى وبعد النظر الذى تميزت به حكومة البلاد عندئذ ، ففى موسم الفيضان كان الفلاحون يظلون بلا عمل . ولا شك أن هذه البطالة كان نتيجتها ازدياد نسبة الجرائم فى البلاد . فكان جمع الفلاحين وشغل فراغهم فى بناء الاهرام خير حل لتلك المشكلة . وبذلك لم يتسبب بناء الأهرام فى تعطيل مرافق البلاد والتأثير على اقتصادها ورفاهيتها كما يقول المغرضون .

(٢) يلاحظ أن رأى المؤلف فى هذا الصدد يخالف آراء كثير من علماء الآثار بأن الدولة هى التى كانت تنفق على هؤلاء العمال . فقد ذكر المؤرخون القدامى أمثال « هيرودوت » و « ديودور » أن الفراعنة كانوا يصرفون الطعام والملبس للعمال ، وأن ما صرف لعمال الهرم الأكبر من الفجل والبصل والثوم فقط بلغ ثمنه ١٦٠٠ تالنت من الفضة (التالنت تساوى ٢٤٠ جنيها تقريبا) • ورغم أن هذا لا يمكن الاعتماد عليه كثيرا نظرا لأن هؤلاء المؤرخين استمدوا هذا القول من التراجمة الذين يشك فى معلوماتهم ، فلا ريب أن الفراعنة من بناة الأهرام لم يعتمدوا فى تموين العمال على ما كان يجلبه هؤلاء العمال معهم فقط كما يقول المؤلف .

وهكذا توارثت الأجيال التالية المهارة التى تتطلبها الأعمال الجماعية • وقد تجلى ذلك فى قدرة المصريين فيما بعد على نقل الأثقال الهائلة كما بدا ذلك واضحا فى عهد البطالمة اذ تمكن أربعة آلاف مجدف من توقيت تحريك المجاديف بدقة تامة لتسيير السفن العظيمة التى وصفها الكاتب أثنايوس (١) فى بعض مؤلفاته •

أعمال المرأة

لقد كان عمل المرأة ولاشك عند السواد الأعظم من الشعب ينحصر فى العناية بشئون المنزل واعداد الطعام ، ولكن مما يدعو الى الدهشة أن تلك الواجبات كان ينهض بها خدم من الرجال فى القصور ، وفى الأوساط الراقية • فكان الرجال فى تلك البيوت الكبيرة ينهضون بأعمال الطهى والخدمة المنزلية وتحرير المكاتبات وعزف الموسيقى • وقل أن تصادف سيدات يقمن بهذه الأعمال • بيد أنهن كن يقمن بغسل الملابس • وكان للمرأة أعمال عديدة تؤديها فى الحقول ، فهى التى كانت تنقل محاصيل الحقل فتحملها على رأسها فى سلال صغيرة بينما تحمل الدواجن فى يدها • وكانت المرأة عدا ذلك تتوجه لشراء الحاجات من الأسواق • وكانت تقوم بتذرية الحبوب عقب الحصاد • وقد وجد فى حالة واحدة أن امرأة كانت تقوم بتسيير سفينة كبيرة للبضائع على أن كل ما تقدم ذكره

---

(١) عالم نحوى أغريقى عاش فى مدينة «نقراطيس» فى اواخر القرن الثانى وأوائل الثالث بعد الميلاد •

انما يشـــير الى عمل المرأة ابتداء من الأسرة ارلابعة الى الأسرة السادسة ، فان الرسوم المنقوشـة على الآثار والتى يرجع تاريخها الى عصر الأسرة الثانية عشر تبين أن النساء كن يقمن بالغزل والنسج والعزف على الآلات الموسـيقية • أما فى الأسرة الثامنـة عشرة فقد أنفرد الرجل بعملية النسج • فاذا ما كان عصر الاغريق نجد النساء طبقا لبعض الروايات يذهبن الى الأسواق ويتاجرن على حين كان يقبع الرجال فى المنازل ليقوموا بعمليات نسج الثياب (١) •

الأعمال فى الجبانات

وكانت فى مصر طائفة كبيرة العدد من الرجال لا يسهمون فى الانتاج القومى • وهم أولئك الذين يقومون بتلك الأعمال الواسعة النطاق الخاصة باعداد المقابر • وكان حفر المقابر فى الصخر يتطلب جهدا عظيما • وقد بلغ اتسـاع بعض حفر المقابر فى عهد الأسرة الرابعـة ثمانيـة أقدام مربعة وعمقها ثمانين قدما (٢) • وفى بعض

---

(١) هذه احدى روايات المؤرخ « هيرودوت » ويجب ان تؤخذ بحرص •

(٢) كانت اغلب المقابر فى عهد الدولة القديمة تتكون من غرفة فوق سطح الأرض داخل بناء يشبه المصطبة • وكانت هذه الغرفة بمثابة « مزار » يجتمع فيه أقارب المتوفى • وفى جانب من المزار بئر عمودى منحوت فى الصخر يؤدى الى حجرة الدفن •

المقابر الأخرى كانت تنحت في وجه حف الهضبة أبهاء عظيمه يتراوح اتساع أحدها بين ٣٠ و ٤٠ قدما (١) •

وتوجد في طيبه مئات من المقابر ترجع الى عهد الأسرة ١٨ قد نحتت في جوف الصخر ثم سويت جدرانها بتغطيتها بطبقة من الجص نقشت عليها كثير من الصور والنقوش (٢) •

وكان يعمل بجانب عمال نحت المقابر طائفة كبيرة العدد من الرسامين والفنانين • ولا يوجد عصر من العصور في أى جزء من العالم صورت الحياة فيه على جدران المقابر مثلما صور عصر الدولة القديمة على جدران مقابر سقارة (٣) • وان قبر نبيل من النبلاء يشتمل عادة على مايتراوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ قدم مربع من النقوش بها ما يتراوح بين مائة أو مائتين من رسوم الأشخاص ، وتتجلى فيها الحياة والحركة وقد تطلب ذلك استخدام عدد كبير من العمال

---

(١) هذا الطراز من المقابر ساد في عصر الدولة الوسطى وأحسن مثال له مقابر امراء بنى حسن وكانت المقبرة تتكون من بهو كبير منحوت فى الصخر به مدخل تتصدره أعمدة مضلعة تشبه في طرازها الطراز الدورى المعروف فى العمارة الاغريقية • ويؤدى المدخل الى بهو كبير على جدرانه رسوم ونقوش ملونة • وفى أحد جوانبه بئر يؤدى الى حجرة الدفن • ويشاهد الزائر هذه المقابر من بعيد وهى تطل على النيل •

(٢) توجد هذه المقابر فى «القرنة» بغرب الأقصر لأمراء وأشراف الأسرة الثامنة عشرة • وأهمها مقابر « نخت » و « منا » و « رخميرع » • وتتألف فى مجموعها من مزار صغير منحوت فى الصخر محلى بالصور والنقوش به البئر المؤدى الى حجرة الدفن •

(٣) أشهر هذه المقابر هى مقابر « تى » و « بتاح حتب » •

من مختلف الكفـايات مابين قاطع الأحجار والفنان البارع • ولكن بمرور الزمن لم يعد العمل الفنى ذا أهمية كبيرة اذ غلبت الروح التجارية على المقاولين وخاصـــة متعهدى الدفن فكانت عمليـات التحنيط تؤدى بلا عناية وأجســام الموتى تلف لفاً ينبىء عن عدم اكتراث • وكانت طـرق الغش عند المحنطين متعددة • كوضـع جمجمة رجل وعظمة من فخذه داخـل كفن طفل محنط (حتى يخدع مظهرها أهل الطفل) ولف التماسيح فى القش (بدلا من الكتـان) ووضع العظام مع القطط (١) وكان عمال حفـر المقابر يكونون مستعمرات فى الجبـانات وكانت لهم درجات بعضها فوق بعض فى المرتبة والنفوذ • وكانوا يخرجون متظاهرين اذا ما أهملت جراياتهم ويتعاركون للحصول عليها (٢) •

والى جانب هؤلاء القوم كانت توجد طوائف الكهنة الكبيرة

---

(١) لجأ المصريون التماسا للبركة الى تحنيط الحيوانات المقدسة ووضعها فى منازلهم ، فكان الشخص يسلم الى المحنط جثة قطة أو تمساح ويطلب منه تحنيطه لكى يحتفظ به فى منزله أو مقبرته . وكان يعطى المحنط أجرا على ذلك

(١) كان أقارب المتوفى — كما هو الحال اليوم — يذهبون الى المقابر فى المواسـم والأعـــاد (الطلعة عنـدنا) ومعهم القرابين لتقديمهـا (رحمة) على أرواح الموتى • ومن العجيب أن كلمة الطلعة هى ترجمة للكلمة المصرية « برت » التى تحمل نفس المعنى . كما أن كلمة رحمة هى الأخرى ترجمة للكلمة المصرية « حتب » . أما كلمة نور فتشير الى العقيدة المصرية القـديمة بتمنى خروج أرواح الموتى من القبر المظلم الى ضوء النهار . ولاستدعاء هذه الأرواح كانت تقدم اليهـا القرابين فتخرج من ظلام القبر الى نور الشـمس للتمتع بهـذه القرابين . وهكذا مازال الحاضر يقبع فى ثنايا الماضى .

الذين كانوا يقومون بأداء الطقوس الجنائزية • ولم يكن عملهم ينتهى عند دفن الميت بل كان يستمر لأعوام طوال بما يقدمونه من قرابين الى روح الميت وفقا لعقود مبرمة (١) •

كل هذا وذاك تطلب استخدام عدد كبير من السكان فى أعمال غير منتجة • وقد تسببت تلك الأعمال غير المنتجة جميعها فى زيادة أعباء الحياة على بقية أفراد المجتمع • اذ كان عليهم أن يطعموا بعرق جبينهم هذا العدد الكبير من الأفواه التى لانفع منها •

تعداد السكان

ان المصادر الخاصة بعدد السكان فى مصر فى مختلف العصور قليلة ، بل نادرة • ولما كان المصريون شعبا ولودا كثير النسل فقد تضاعف عدده فى مدى الأربعين سنة الأخيرة ، ولهذا كان من المحتمل أن البلاد كانت تزدحم بالسكان بسرعة كبيرة فى العصور التى كان يسود فيها الأمن والرخاء وحسن الادارة كعصر الدولة

---

(١) من أهم الأمثلة على هذه العقود هى العقود العشرة التى أبرمها الأمير « حاب ـ حفا » حاكم أسيوط فى عهد الأسرة الثانية عشرة مع كهنة أحد المعابد فى أسيوط لتقديم القرابين والبخور فى مقبرته بعد وفاته . وأوقف على هذا العمل ضيعة بمواشيها وحدائقها • وقد نقش « حاب ـ جفا » هذه العقود على جدران مقبرته المحفورة فى جبل أسيوط.ويعرفها العامة هناك بأسم اسطبل عنتر » •

القديمة ، حين وصل عدد السكان على مانعتقد الى أقصى مداه في تاريخ مصر القديم • وفي عصر الزعامة استطاعت المناطق المخصصة للجند وكانت مساحتها تبلغ ثلث أرض البلاد أن تمد الجيش المصري بستمائة وخمسين ألفا من الجنود الذين كانوا في السن الملائمة للتجنيد • وهذا يشير الى أن عدد السكان في البلاد قد تراوح بين ١٠ ، ١٢ مليونا من الأنفس • وفي أيام « ديودورس » بعد اضمحلال نفوذ البطالمة كان عدد السكان يتراوح بين ٧ و ١/٢ ٧ مليون من الأنفس طبقا لتقرير يوسف اليهودي (١) •

وفي القرن الثامن الميلادي بلغ عدد السكان حوالى عشرة ملايين وفقا لقوائم ضريبة الرءوس التي أدخلها العرب في مصر • وقد تضاءل عدد السكان أيام حكم الأتراك والمماليك تضاؤلا كبيرا • ثم أخذت البلاد عقب ذلك تنعم باستتباب الأمن وتنفيذ كثير من مشروعات الري والصرف واستغلال الموارد الطبيعية • فكان هذا من عوامل زيادة السكان زيادة سريعة مطردة حتى انه يقدر جملتهم عام (١٩٥٩) بحوالى ٢٥ مليونا (٢) أما جملتهم في عام

---

(١) سبق ذكر وصف يوسف اليهودي •

(٢) أضفنا هذا الرقم من عندنا الى نص الكتاب الأصلي (المترجمون) •

١٩٧٠ فتقدر بحوالى ٣٢ مليونا ونستطيع القول أن عدد السكان في مصر القديمة كان يتأرجح بسرعة بين ستة ملايين واثنى عشر مليونا وفقا لمدى كفاية السلطة المهيمنة على شئون البلاد • ولاشك أن الزيادة المطردة الحالية في عدد السكان سوف تظهر خطورتها فيما بعد اذا علمنا أن نسبة المواليد في البلاد ٦٠ في الألف ونسبة الوفيات ٤٠ في الألف • وهذا يعنى زيادة سنوية في عدد السكان تقدر بحوالى ٤٥٠٫٠٠٠ نسمة •

الفصل الثاني

إدارة البلاد

الملكية المقيدة

كانت مصر القديمة تخضع دائمـا لنظام الحكم الملكى وكانت سـلطة الملك تضمحل بين حين وآخـر فتسـتقل المقاطعات بادارة شئونها الداخلية ، ولكـن الحكم فى كل منهـا كان دائما فى يد رئيس واحـد . وان عدم قيـام النظام الجمهورى فى أى عصر من عصور التاريخ المصرى القديم رغم قيامه فى أقطار أخرى بحوض البحر المتوسـط مرده على ما يظهـر الى أن النظام الملكى فى مصر قد حدد القانون سلطته وحقوقه تحديدا دقيقا ولهذا فان الملك مهما ساءت أخلاقه الشخصية فانه لا يستطيع أن يأتى عملا يكسبه حقد رعيته عليه وكراهيتها له كمـا كان يفعل الظالمون الغاشـمون من حكام الاغريق وأباطـرة الرومان الذين لم يكونوا يشـعرون بمسئولية ولم يقيدهم شرع أو قانون .

لقد كان الملك فى مصر يعتبر جزءا لا يتجزأ من جهـــاز حكومى على درجة كبيرة من التنسيق والتنظيم يعرف كل فرد فيه عمل الآخرين كما يعرف أختصاصـــه الرسمى • وكانت أعمال الملك الرسمية تعد فى نظر القوم جزءا لا ينجزأ من ذلك الجهاز ، بل ان حيـاة الملك الخاصـة لم تكن ملكا له وحده اذ كان عليه أن يتصرف فى كل لحظة طبقا لنظام مرسوم دون أن يجد مجالا للتحلل والعبث كما كان يفعل أمثال « ديونيسوس » أو « كاليجولا » (١) اننا نقرأ عن محاكمات رســمية تجرى فى البلاط لمحاكمة بعض أفــراد الأسرة المالكة ، وذلك فى عهد كل من الأسرة السادســة والأسرة العشرين (٢) • وكانت تلك المحاكمات تســير بدقة طبقا للاجراءات القانونية بل وبدون حضور الملك ، فقد كان الفرعون فى مصر ذا ســلطة محدودة حتى فى شئونه الخاصة • ولم تبلغ سلطته على أفراد (آل) بيته ما بلغته سلطة كلوديوس أو هنرى الثامن •

---

(١) امبراطور رومانى حكم بين عامى ٣٧ ـ ٤١ م واشتهر بقسوته وظلمه •

(٢) محاكمات الأسرة السادسة والأسرة العشرين : فى عهد كل من هاتين الأسرتين دبر رجال الحاشية بزعامة زوجة الملك مؤامرات لقتل الفرعون الجالس على العرش • ففى عهد الأسرة السادسة دبرت زوجة الملك المدعوة « أمتس » مؤامرة لقتل زوجها « بيبى » الأول ، والظاهر أن المؤامرة فشلت لأن الملك أصدر أمره بتشكيل محكمة لمحـــاكمتها • ولا نعرف السبب فى اقدامهـــا على هـــذه الجريمة ، ولكن يبـــدو السبب غيرتهـــا من زواج الملك بأمـــيرتين غـــيرها • وفى عهد الأسرة العشرين دبرت احدى نساء الحريم المدعوة « تى » مؤامرة لقتل الملك رمـــيس الثالث والاستيلاء على السلطة لتمكين ابنها « بنتاؤرع » من اعتلاء العرش • وقد كشفت المؤامرة وأمر الملك بتشكيل محكمة لمحاكمة زوجته والمتآمرين معها •

القيود انحدرت الى الملك بالوراثة

وكان الوضع السياسى للملك يتمثل فى كونه خليفة حكام الدويلات العديدة التى أزدهرت فى عصر ما قبل الأسرات (١) وكان لكل منها نظمها الخاصة وحقوقها التى كانت شديدة التمسك بها . وبذلك فان حقوقه والتزاماته آلت اليه من مختلف النظم التى كانت سائدة فى تلك الدويلات . فقد كان الملك يعتبر الوارث لعرش مملكة « هيراكونبوليس » . وكان بهذه الصفة يتخذ « الصقر » رمزا له . فاذا مات الملك عبر المصريون عن ذلك بقولهم « لقد طار الصقر الى السماء » .

وكان الملك أيضا يعتبر وريثا لحكومات كل من الكاب «نخب» التى كانت تقع على الضفة اليمنى للنيل ازاء « نخن » (٢) « وبوتو » العاصمة الشمالية فى الدلتا . وهذه السيادة المزدوجه كان يرمز لها فى شعار الملك « بالصل » و « العقاب » كما ضم أقليم

(١) عن هذه الدويلات راجع ص ١٦ (حاشية) .

(٢) كانت « نخن » فى الأصل عاصمة المقاطعة الثالثة فى الوجه القبلى ثم تمكن أمراؤها من توحيد مقاطعات الوجه القبلى تحت حكمهم . وجعلوا « الصقر » رمز هذه المدينة والهها علما على الوجه القبلى كله . ولذلك سماها الاغريق « هيراكونيوليس » أى مدينة الصقر الجاثم . وتوجد أطلال هذه المدينة الآن فى قرية الكوم الأحمر غرب النيل فى مواجهة أدفو . وفى العصور التالية حلت مدينة « نخب » محل « نخن » كعاصمة للمقاطعة الثالثة . فورثت عن نخن أهميتها التاريخية كعاصمة للوجه القبلى قبل اتحاد القطرين . وكان رمزها والهها « انثى العقاب » . وتوجد أطلال « نخب » الآن فى قرية «الكاب» شرق النيل شمال ادفو بقليل .

« سايس » (١) تمثله « النحلة » • وقد قرن ذلك باقليم الجنوب وتمثله « البوصة » • وليس واضحا ما اذا كانت « البوصة » قد أتخذت في الأصل شعارا لعاصمة معينة • ومن المؤكد على أية حال أنها كانت ترمز دائما لاقليم الجنوب (٢) • ويبدو أن اخضاع قبيلة الاله « ست » التى كانت على جانب كبير من القوة والبأس فى عهد الأسرة الثانية (٣) قد تم نهائيا أيام الأسرة الرابعة بدليل تمثيل الملك بهيئة الصقر منتصرا على الاله « ست نبتى » (٤) • وكان يرمز لذلك الحادث برسم العلامة « نوب » (٥) وفوقها يجثم الصقر

(١) كانت « سايس احدى المقاطعات الهامة فى الدلتا وهى أقدم من « بوتو » وشعارها « النحلة » • ومكانها الآن « صالحجر » (بالقرب من كفر الزيات) • وقد اتخذ الفراعنة من النحلة (بيتى) رمزها شعارا آخر للوجه البحرى • كما اتخذوا البوصة « نسوت » شعارا للوجه القبلى • وضموا (البوصة والنحله) فى شعار واحد واحد وأصبح رمزا ولقبا للملك بعد التوحيد (ملك الوجهين القبلى والبحرى) •

(٢) هناك رأى ينادى به العالم الفرنسى (لوريه) بأن البوصة كانت فى الاصل الشارة التى تدل على اقليم مصر الوسطى من بداية بحر يوسف الى رأس الدلتا • وكانت عاصمة هذا الاقليم مدينة « هيراكليوبوليس » ومكانها الآن بلدة « أهناس » بالقرب من الفيوم •

(٣) ودليل ذلك ما ورد على آثار الملك (بر ـ ايب ـ سن Per ib-Sen أحد ملوك الأسرة الثانيه من أنه اسبدل صورة الاله (حور) بصورة الاله (ست) فى اسمه •

(٤) (ست نبتى) أى الاله ست الذى ينتمى الى بلدة (نبت) • ومكانها الآن قريتا (نقادة وكفر البلاص) الواقعتان على الضفة الغربية للنيل بالقرب من (قفط) • راجع ص ١٦ (حاشية) •

(٥) « نوب كلمة مصرية قديمة معناها الذهب ومنها اشتقت كلمة النوبة التى تطلق الآن على المنطقة الممتدة جنوب أسوان نظرا لكثرة مناجم الذهب

وآخر كسب للملك كان ما ورثه من حقوق فى الأسرة الخامسة من كهـان مملكة هليوبوليس العظـام ومن بعدها أصـبح الملك يلقب « حقا » أو حاكم « هليوبوليس القديمة » (١) • وبذلك أصـبح الملك يحمل أيضـا لقب حاكم (هليوبوليس) ويمثل فى الشـعار الملكى بصـــولجان كان يحفظ فى المعبد (٢) • وكان من الألقاب الدينية الرفيعة التى يحملها الفرعون لقب (الكاهن الأعظـم للاله

= التى كان المصريون القدماء يستغلونها فى هذه المنطقة ولكن كلمة «نوب» هنا لها معنى آخر فهى ترمز الى بلدة (نوبت) مقر عبادة الاله (ست) • فيكون معنى الرمز (حور المنتصر على ست فى بلدة نوبت) • ويقول بعض العلماء أن هذا التفسير يرجع لعصر البطالمة ، وان المعنى الحقيقى لهذا اللقب الذى يرجع لأقدم عصور التاريخ المصرى هو (حورس الذهبى) •

(١) سبق القول بأن هذه المملكة ظهرت فى عصر ما قبل الأسرات (راجع ص ١٦) حاشية•وكان ملوكها يسمون «شمسوحور» أى أتباع حور • وكانت مركزا لعبادة الشمس • وقد برع كهانها فى علوم الفلك والرصد ، فكانوا أول من اخترع التقويم الشمسى المعروف الآن بالسنة القبطية • وكان ذلك حوالى عام ٤٢٤١ ق•م• وفى العصر التاريخى وخصوصا فى أواخر الأسرة الرابعة زاد نفوذ كهنة الشمس بدرجة خطيرة حتى تمكنوا من اعتلاء عرش البلاد وتأسيس الأسرة الخامســة • وبنوا أهرامهم فى أبى‌صـير بالقرب من الجيزة • هـــذا وكلمة (هليوبوليس) يونانية معناها مدينة الشمس • وقد ترجمها العرب الى عين شمس •

(٢) فسر المؤلف فى هذه السطور الألقاب التى كان الملك يحملها على هيئة رموز فكل من « الصل والعقاب وكذا النحلة والبوصة ولقب حور نبتى وحاكم هليوبوليس » وان كانت فى ظاهرها تعتبر ألقابا للفرعون الا أنها فى حقيقتها ترمز الى الدويلات التى تكونت منها مصر قبل توحيد القطرين ، وتدل على وراثة الملك لهذه الدويلات بما فيها من نظم وما لها من التزامات •

حورس) (١) • ويشير اليه الحرطوش الذى يحوى الاسم الملكى ويظهر هذا فى شكل قلادة حول رقبة تمثال الكاهن الأكبر « رع سعنخ » (المحفوظ فى متحف اللوفر) •

الوظيفة الدينية للملك

ولم تكن الوظيفة الدينية للملك قاصرة على رئاسة كهنه الالهين « حورس ورع » فحسب بل كان عليه تقديم القرابين اليومية من أجل رعيته • وكما كان يهب النبلاء وغيرهم من كبار الحكام المنح المختلفة من الأراضى وهم على قيد الحياة فقد كان يمنحهم الهبات من الأرض بعد مماتهم لضمان استمرار تقديم القرابين لأرواحهم كما ورد فى مقبرة الأمير « متن » ولهذا فان كافة الهبات الجنائزية كانت تعد فى الواقع « قرابين ملكية » وتشير الى ذلك صيغ الدعاء التى كانت تدون على اللوحات الجنائزيه فى كافة عصور التاريخ الفرعونى ، فكان الفرعون بحكم مركزه الكهنوتى عائلا لرعيته فى الحياة ، كما كان سندا لهم فى الممات • وقد لا تكون الهبات الملكية دائما منحا من الأراضى بل ربما اشتملت على مواد غذائية تمثل قيمة ايجارات عينية لبعض مزارع الملك ،

---

(١) « حورس » هو أحد آلهة مصر الرئيسيين وكان يعبد فى جهات متعددة من القطر . وقد اعتبره كهنة هليوبوليس صورة أخرى لالهم « رع » اله الشمس وكانوا أحيانا يوحدون الالهين فى اله واحد أطلقوا عليه «رع حورس» .

أو قيمة ايجارات عينية للملك حق الحصـــول عليها • ومع ازدياد المعاملات وتعقدها تبعا لنمو سلطان المملكة صـار من المستحيل أن يتصرف الملك شخصيا فى كافة شئون الدولة • ولذلك نرى الملك « ســــنفرو » قبيل نهـــاية عصر الأسرة الثـالثة (١) يقلد نجله « نفر ماعت » منصبى « حامل الأختام الملكية » و « قاضى القضاة » • ويقلد نجله « رع حتب » منصب « الـكاهن الأكبر للاله رع فى هليوبوليس » • وقد فعل الملك « خوفو » ما يشـبه ذلك مع ابنـه « مرى ايب » •

وظائف الملك السياسية

واذا أنتقلنـا الى الوظائف السياســية للملك نجد أن أول واجب عليه بعد اعتلائه العرش منذ عهد الأسرة الأولى هو التفتيش على الحدود وتأمين سلطته ويطلق على هذه المهمة « الطواف حول الجدار » (٢) احياء لذكرى اتحاد الوجهين القبلى والبحرى • وكان

---

(١) السائد الآن بين علماء الآثار أن الملك « سنفرو » هو أول ملوك الأسرة الرابعة وأن « نفر ماعت » هو حفيد « سـنفرو » وليس ابنـه (راجع مصر القديمة جـ ٢ ص ١٤) •

(٢) « الطواف حول الجدار » احتفال كان يقوم به الفرعون يوم توليتـه العرش • يطوف أثناءه حول مدينة « منف » عاصمة المملكة • والقصد من ذلك احياء ذكرى توحيد الوجهين القبلى والبحرى على يد الملك « مينا » الذى أسس مدينة منف وبنى حولها سورا أو جدارا • وهذا هو أحدث تفسير لهذا الاحتفـــال كمـــا أثبتته الحفـــائر الحـــديثة التى أجريت فى منطقة سقارة =

الملك هو القائد الأعلى للجيش واليه شخصيا ينسب الفضل عى الانتصارات التى يحرزها جيشه • ولم يكن ذلك ادعاء بل كانت حقيقه لأن الملك كان يقود جيشه بنفسه ويشترك فى المعارك اشتراكا فعليا • ولدينا أمله على ذلك منها مساهمة الملك بشخصه فى الحرب ضد اثيوبيا (١) فى عهد الأسرة الثانيه عشرة وفى الصراع المميت الذى خاضه الملك « سكنرع » (٢) فى عهد الأسرة السابعة عشرة • ومن قيادة « تحمس » الثالث و « رمسيس » الثانى من ملوك الأسرتين الثامنه عشرة والتاسعة عشرة بشخصيهما للجيوش المصرية فى المعارك الحربيه الهامه وليس هناك أى دليل على أن ملوك مصر قد تخلوا عن بعض حقهم فى قيادة الجيش • وكان الملك يقوم برحلات كثيرة يتفقد خلالها الأشغال العامة

= وميت رهيبه • وهذا التفسير كما يلاحظ القارىء لا يتفق مع تفسير المؤلف الذى وضع كتابه عام ١٩٢٣ •

(١) المقصود « باثيوبيا » هنا ليست الحبشة وانما يقصد بها فى كتب علماء المصرولوجيا المنطقه الممتدة من الشلال الثانى الى الشلال السادس على وجه التقريب • وقد قام الملك « سنو سرت » الثالث أحد ملوك الأسره الثانية عشرة بحملات شديدة على هذه الجهات فكان يقود الجيش بنفسه حتى استطاع تأمين حدود مصر •

(٢) هو أحد ملوك مدينة طيبه الذين بدأ الصراع بينهم وبين ملوك الهكسوس • وقد حارب « سكنرع » واستمات فى القتال حتى قتل فى احدى المعارك • وتوجد جمجمة هذا الملك بالمتحف المصرى وبها آثار كسور دليلا على استشهاده فداء لحرية البلاد واستقلالها •

والمناجم للوقوف على مدى أمانة الموظفين وللقضاء على المساوىء والمظالم ٠

النظام اليومي للملك

وقد انفرد « ديودورس » بوصف نظام حياة الملك اليومى وربما يكون ما أورده مشابها لنظام الحياة اليومية لملوك البطالمة ، ولكن الأرجح أن يكون وصفه مطابقا لنظام حياة ملوك الأسرة السادسة والعشرين الذى بدوره قد يرجع فى أصله الى عهود أقدم ٠ لقد كانت كل ساعة من وقت الملك مخصصة لأداء واجبات شتى والقيام بأعمال مفروضة لا أن ينغمس فى المتع والملذات ٠ فاذا استيقظ فى الصباح بدأ عمله بقراءة الرسائل الواردة من مختلف الأقاليم وربما تطلب الأمر املاء الردود عليها ، ثم يعقب ذلك طقوس التطهير فيرتدى الزى الرسمى تزينه الأوسمه والشارات الملكية ، استعدادا لتقديم الضحية للالهة ٠ ولكن قبل بدء هذه الطقوس كان يقف الكاهن الأكبر ، والملك والناس حافين من حوله يبتهل للالهة كى تمنح الملك الصحة والسعادة ٠ وبعد أن يعدد فضائل الملك يستنزل اللعنات والسخط على جميع الخطايا والذنوب التى اقترفت عن جهل وارتكبت من غير قصد ، ملقيا اللوم على الوزراء ٠ وكان معنى ذلك توجيه نقد شديد لأعمال الحكومة لم يكن يجرؤ عليه الا رجال الدين ٠ وقد قيل ان ذلك كان لهدى الملك الى الطريق المستقيم وارشاده اذا ضل ، وكبحه

اذا سلك جنبات الصواب • ولم تدلنا النصوص عما اذا كان الملك يقدم التضحية للآلهة بنفسه أم كان يقوم بذلك الكاهن الأكبر • على أن الثابت أن هذه المهمة كانت تعد من مهام الملك • وكان الفرعون يختبر الأحشاء (١) مثلما كان ملوك آشور يفحصون الكبد• وقد أشار التوراة لذلك : « وللتنبوء •• كانوا يفحصون الكبد •• (سفر حزقيال اصحاح ٢١ آية ٢١) • واذا انتهى من تقديم القرابين من النبيذ والزيوت وغيرها من سوائل التطهير المقدسة ، قام الكهنة بتلاوة العظة (الخطبة) وقراءة بعض المراسيم والقوانين والنصوص التاريخية التى تناسب المقام • وكان طعام الملوك بسيطا محدود الأصناف • وهذا يشير الى أنه كان لهم نظام خاص فى الغذاء محافظة على صحتهم وضمانا لسلامتها التى تتوقف عليها رفاهية البلاد • وهذا الاعتقاد مازال سائدا فى بعض مناطق افريقية ولكن بصورة غاية في القسوة الوحشية فعندما تعتل صحة الملك وتضعف حيويته يقتل كى تتجنب البلاد انتقال ذلك الضعف والاضمحلال اليها • ولم تكن تلك العادة الوحشية بطبيعة الحال

---

(١) الأصل فى هذا التقليد هو أن الضحايا كانت تقدم للآلهة كل صباح . وغالبا ما كانت هذه الضحايا من الثيران المسمنة . وبعد ذبح الضحية كان يقطع خير أجزائها وهو الفخذ . وكان المفروض أن يقوم الملك بهذه العملية ليقدمه للآلهة . ولكن أصبح هذا العمل يقوم به الكاهن الأكبر أولا ثم بتطور الزمن ترك هذا العمل للكهنة المختصين الذين يقومون بذبح الضحية . وصار عمل الملك ينحصر فى فحص احشاء الضحية .

متبعة فى مصر القديمة اطلاقا ، لأن الملكية فى مصر قد نشأت فيما يظهر عن نظام كهنوتى يعتمد على الحكمة وليس عن طريق رياسة تستند الى قوة جثمانية قاهرة (١) . وقد ورد وصف وفاة الملك فى السجلات الخاصة بالأسرة الثانية عشرة (٢) . « لقد دخل الاله أفقه وصعد الملك الى السماء واقترن بقرص الشمس والتقى ظل الاله بخالقه . لقد ساد الصمت أرجاء القصر واكتنفه جو كئيب من الحزن والأسى ، وأغلقت أبوابه الكبرى وجثم رجال الحاشية على الأرض فى خشوع ، وكان الناس فى حزن صامت رهيب » ، وقد قيل بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة (٣) « ان المصريين عامة اذا مات أحد ملوكهم قاموا بنعيه فى حزن شامل ، يشقون الجيوب ويوصدون أبواب دور العبادة ويحرمون تقديم الضحايا للآلهة ، واقامة الولائم

---

(١) كان الفراعنة فى مصر فى بداية عهد الأسرات يحتفلون بعيد يسمونه « حب سد » أى عيد الذنب لأن الملك كان يلبس جلد حيوان له ذنب . والغرض من هذا العيد تجديد شباب الملك لأن الاحتفال به كان يتم كل ثلاثين عاما من عمر الملك . وبمرور الزمن أصبح الفراعنة لا يتقيدون بشرط مرور ثلاثين عاما ، بل كثيرا ما نجد فراعنة يحتفلون بهذا العيد مرات كثيرة فى حياتهم مثل رمسيس الثانى ورمسيس الثالث ولعل هذا العيد تطور انسانى متحضر لتلك العادة البدائية التى يشير اليها المؤلف .

(٢) ورد ذلك الوصف عن وفاة الملك « أمنمحات الأول » فى قصة سنوحى المشهورة .

(٣) هو وصف المؤرخ « ديودورس » الذى زار مصر سنة ٥٩ ق.م. أى فى أواخر عصر البطالمة . وهذا معناه انقضاء حوالى ألفى عام بينه وبين الوصف المذكور آنفا الذى يرجع الى عهد الأسرة الثانية عشرة وليس ثلاثة آلاف عام كما ذكر المؤرخ (انظر وهيب كامل : ديودور فى مصر ٧٢) .

والحفلات ويلتزمون الخشــوع اثنين وسبعون يوما (١) • ويخرج الرجال والنساء وقد حثوا التراب على رؤوسهم (٢) وأتزروا فيما يلى الصدر بلباس من التيل الرفيع فى جمـاعات مؤلفه من مائتين او ثلاثمائة ، ويطوفون بأنحاء المدينه مرتين فى اليوم ، متغنين بمدح الفقيد العظيم ومشيدين بذكره • وكانوا يمتنعون عن تناول اللحوم أو الأطعمة المطهوة على النار أو المسخنة عليها ، ويحرمون على أنفسهم تناول الأنبذة وكافة الأطعمة الفاخرة » • ويبدو أنه لم يكن هنـاك أى أثر للفوضى والتحلل والترخص العام عند وفاة الملك كما كان يحدث فى بعض الجهات الأخـرى وهذا يتمشى مع الحقيقة الثابتة وهى أن الملك خاضـع للقـانون وليس المصدر الأوحد للقـانون والنظام ، وكانت سلطات الملك مقيدة كل التقييد ومن ذلك يستطرد ديودور قائلا « انه لم يكن ليستطيع أن يقوم بأى عمل عام أو يدين شخصا أو يعاقب آخـر لمجرد نزعة شخصـيـة ، أو بقصد التشفى والانتقام ، أو لأى دافع آخر لا يتفق وروح العدالة ، ولكنه كان مقيد التصرف فى كل حالة وفق ما تنص عليه القوانين ؛ ومن أجل ذلك رأينا الملوك وقد راعوا المساواة والعدل فى المعاملة بين رعاياهم

---

(١) السبب فى تحديد مدة الحداد باثنين وسبعين يوما هو الفترة اللازمة لتحنيط الجثة .

(٢) مازالت هذه العادة باقية بمصر بين الطبقات الدنيا اذ يلطخ النســاء وجوههن بالنيلة عند حدوث وفاة فى أسرهن كما يخرجن نادبات نائحات ولــكن تلك العادات فى طريقها الى الزوال .

فاكتسبوا من محبتهم ما يزيد كثيرا عما يكنونه لأهلهم من حب ، وعلى الرغم من أن ما ذكر عن هؤلاء الملوك فى تلك المناسبة يرجع فى تاريخه الى عصر متأخر ، الا أنه يسرى على العصور السابقه أيضا كما يتبين من محاكمة احدى الملكات فى عهد الأسرة السادسة (١) • فقد تولى هذه المحاكمة أحد القضاة ثم اشترك معه قاض ثان فى تحرير التقرير وقد تم هذا كله دون ان يشترك الملك فى الأمر أو يتدخل فى سير القضية وقد يكون قد أصدر الحكم النهائى فى هذه القضية وفى غيرها من القضايا الخطيرة • ولكن محاكمات المجرمين وقرارات اتهامهم كانت دائما تسير وفقا للاجراءات القانونية •

واذن فقد كانت نظرية الحق الآلهى للملك مقيدة تقييدا كبيرا بالنسبة لملوك مصر • بيد أنه لما كان المصرى لا يعتقد أن آلهته يحيطون بكل شيء علما وأنهم ليسوا منزهين عن الزلل والخطايا فلم يكن هناك الا تناقض ضئيل بين هذه العقيدة وقبول فكرة ألوهية الملك • على أن الملك كان اذا أوتى شخصية قوية وروحا جريئه مبتكرة استطاع أن يجد لنشاطه وحيويته مجالا فسيحا • ذلك أن تنظيم أمور الدولة وانجاز المشروعات العامة والهيمنة على شئون العلاقات الخارجية كل ذلك كان يكفى ليفسح أمام الملك ميادين

---

(١) يشير المؤلف بذلك الى قصة الملكة « امتس » التى تآمرت على حياة زوجها « بيبى » الأول • وقد سبق الكلام عليها (راجع ص ٢٩) •

واسعة لعمل كبير • وممن أشيد بذكرهم فى هذا المقام « أحمس » الأول الذى أنشأ نصبا تذكاريا فخما لجدته الملكة « تيتى شيرى » (١) وحتشبســوت التى أقامت مسلاتهــا الرائعــة (٢) • وسيتى الأول الذى قام بزيارة المناجـــم وأمر بأقامة معبد وحفــر بئر فى وادى عباد (٣) بعد أن لمس مشقة العمل فى تلك المناطق •

وكان عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية حقا من حقوق الملك كذلك • بيد أن الصياغة القانونية الدقيقة لمعاهدة مصر مع الحيثيين(٤)

---

(١) يشير المؤلف بذلك الى حيوية الفرعون « أحمس » ونعدد ميــادين نشاطه . وفضلا عن أنه قام بأعظم عمل قومى فى تاريخ مصر وهو طرد الهكسوس، فان نشاطه امتد الى الأعمال السلمية .

(٢) توجد هذه المسلات فى معبد « آمون » الكبير بالكرنك وما زالت احداها قائمة ويبلغ ارتفاعها حوالى ٣٠ مترا ووزنها حوالى ٣٠٠ طن .

(٣) طريق صحراوى يبدأ من وادى النيل جنوبى ادفو بعدة أميال ويخترق الصحراء الشرقية الى جبل الزبارا على ساحل البحر الأحمر حيث مناجم الذهب .

(٤) هى أقدم معاهدة فى التاريخ أبرمها الملك رمسيس الثانى مع ملك الحيثيين حفظا للسلام بين الدولتين بعد ان دامت الحرب مدة طويلة . وأهم بنودها ما يلى:

(أ) عدم اعتــداء كل من الطرفين على أراضى الطرف الآخـــر وارجاع العلاقات الودية كما كانت .

(ب) مساعدة كل طرف للآخر فى حالة هجوم دولة أجنبية عليه .

(جـ) التعاون فى عقاب الخارجين على طاعة الطرفين .

(د) طرد الهاربين السياسيين والمهاجرين التابعين لكل من الطرفين الى بلاده .

وهذه المعاهدة مسجلة فى معابد رمسيس الثانى بطيبة . كما عثر عليها =

توحى بأن تلك الصياغه انما هى من عمل أحد رجال القانون • وكان تعيين كبار الموظفين من سلطة الملك • وهكذا نجد فى عهد الأسرة السادسة أن التماسا يقدم الى الملك كى يخلع على « زاو »(١) لقب أمير وقد تقبل الملك الالتماس وأصدر مرسوما ملكيا تحقيقا لذلك •

وكان من أعمال الملك الهامة منح الأراضى فكثيرا ما أعلن الملك منح ضياع للنبلاء وهبات للمعابد لصالح الكهنه ، ولقد كان فى الامكان فى العصور المبكرة أن تمنح تلك الهبات من الأراضى البور بعد اصلاحها بشق قنوات الرى والصرف فيها غير أن ذلك المورد كان مآله الى النفاد فمن أين كانت تمنح الهبات الملكية ؟ فاذا لم يكن للتاج قدر كبير من الأراضى الزراعية فى البلاد تعذر على الملك أن يواصل مثل تلك الهبات من أملاكه • وقد أتخذت الهبات التى كان يمنحها الملك لأفراد أسرة ما صورة من صورتين :

فهى اما تنازل عن ملكية تلك الأراضى للأفراد فى حياتهم بوثيقة ملكية •

= منقوشة بالخط المسمارى على قالب من الطوب اللبن فى « بوغازى كوى » عاصمة الحيثيين القديمة بآسيا الصغرى • وتوكيدا لهذه المعاهدة زار ملك الحيثيين مصر وزوج ابنته للملك رمسيس الثانى •

(١) كان « زاو » موظفا كبيرا فى عهد الأسرة السادسة وكان يحمل ألقابا كثيرة منها « الحاكم العام للعاصمة وكبير القضاة والوزير ورئيس الملابس الملكية وحامل أختام فرعون » • والسبب فى تمتعه بهذه المراكز أنه كان صهرا للملك « بيبى »الأول الذى تزوج من شقيقتى « زاو » •

أو تنازل عن الأرض كهبات جنائزية بعد مماتهم •

وكلاهما يشير الى منح الأراضى منحا نهائيا وامتلاكها مدى الحياة • وقد لانشير المنح الملكية الى التنازل عن ملكية الأرض نفسها وانما شير الى اعفائها من الضرائب المستحقة للتاج كما كان الحال بالنسبة للأراضى التابعة للمعابد • وذلك أن فرض الضرائب كان ناشئا من أن للملك حقوقا على ملكية تلك الأراضى باعتباره السيد المطلق على البلاد • واذن فاعفاء الأرض من الضرائب كان يعتبر عن الناحية العمليه أنه منحة ملكية دون أن يترتب على ذلك نقل ملكيتها من التاج •

وظيفة الوزير

كانت أعمال الوزير على أعظم جانب من الأهمية باعتباره الأداة المنفذة لكافة الشئون الادارية التى تدخل ضمن اختصاصات الملك باستثناء الناحية الدينية • ولدينا من حسن الحظ بيان شامل لمهام الوزير وواجباته يرجع الى عهد الأسرة الثانية عشرة دون على جدران مقبرة الوزير « رخميرع » (١) ورغم أن جانبا كبيرا

---

(١) « رخميرع » وزير مشهور عاصر الملك « تحتمس الثالث » « وأمنحتب الثانى » . وتولى بنفسه تتويج الملك الأخير . وقد ذاعت شهرته بسبب أهمية مقبرته الموجودة بالبر الغربى بالأقصر ، اذ أن نقوشها ونصوصها ألقت ضوءا على كثير من النظم السياسية والادارية والقضائية فى مصر القديمة وعلى مهام الوزير وأعماله . أنظر : Newberry, The Tomb of Rekhmare.

من هذه المهام يصعب تفسيرها الا أنها تعطينا فكرة عن تلك الواجبات التى يمكن اجمالها فيما يلى :

١ ـ الادارة العامه •

٢ ـ تعيين أربعه مقررين ومفتشين لموافاة الوزير ثلاث مرات فى السنة بأحوال المقاطعات الواقعة ضمن اختصاص كل منهم ، مع تقديم الوثائق والتفتيش على القائمين بمراجعه الحسابات وضبطها •

٣ ـ تسلم التقارير الواردة من مفتشى الأقاليم وكذلك قوائم الاحصاءات التى فى حوزتهم •

٤ ـ النظر فى الشئون الخاصه بحدود المقاطعات وتحديد الأراضى ، والفيضان والترع ، واصدار التعليمات الخاصة بالمحصول التالى ، وقطع الأشجار وتنظيم تحصيل المتأخرات من الضرائب ، والنظر فى مظالم الحكام المحليين وحوادث السطو والسرقه فى الأقاليم والمنازعات المختلفة •

والى جانب هذا كله كان على الوزير أن ينوب عن مليكه فى اذاعه الرسائل الملكيه الى شتى المقاطعات وارسال البلاغات والأوامر الملكية الى الجهات المختلفة • واصدار الأوامر لرسول الضياع الملكيه • وتعيين المشرف على الرسائل فى ساحة القصر الملكى ، والاشراف على رجال الحرس الملكى ، وعلى تنظيم البعثات الملكيه •

وفى القضاء كان من سلطات الوزير ترقية القضاة وتعيين حارس المحكمة . وفى المعابد كان ينظر فى أسباب نقص ايرادات الهيات . (فقد تكون بسبب الاختلاسات من جانب الكهنة) كما كان ينظر فى توزيع الجزيه السنويه (١) عليها وكان عليه أن يفتش وفى معيته حامل الأختام على هذه الجزية وعلى الأرصدة ، وكان من واجباته أيضا تنظيم الملاحة فى نهر النيل والاشراف على سير سفن البضائع ومراقبة أعمال مرشدى السفن وموجهيها . ثم يلى ذلك وظائف أخرى عديدة . غير أن بعضها قد ضاع وبعضها الآخر يتعذر فهمه ، من ذلك السجل المنوه عنه فيما سبق . على أن هذا كله يدل على مدى اتساع اختصاص الوزير فى النواحى الادارية . وعلى عظم اعتماد رخاء الدولة ورفاهيتها على حسن ادارته ونزاهته . لأن الوزير منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها كان هو الحاكم العام للعاصمة والقائد (« مرنوت » و « وثاتى ») وقد أصبح من الضرورى نتيجة لهذا العبء الثقيل من الأعمال على كاهل الوزير تعيين وزير ثان للجنوب ابتداء من مستهل عهد الأسرة الثامنة عشرة واتخذ مقره مدينة طيبه . على حين أختص وزير الشمال بشئون الدلتا ومصر الوسطى .. زد على ذلك أنه تقرر تعيين حاكم له

---

(١) كانت هذه الجزية تجبى من الأملاك المصرية فى آسيا . وكان يخص كل معبد من المعابد الكبيرة نصيب معلوم كل عام .

سلطات مماثله على أقليم النوبه وأثيوبيا (١) وكان يطلق عليه الابن الملكى فى كوش (٢) .

موظفو البلاط

ولابد أن رئيس البلاط الملكى كان يتمتع بسلطان عظيم وكان يطلق عليه « حامل المروحة على يمين الملك » وكان دائما كريم المحتد عريقا فى الحسب ويختار لمهابته وشدة بأسه وقوة مراسه وكفايته الممتازة فى التوجيه والقيادة لضمان استتباب الأمن والنظام . ونظرا لما كان يتمتع به هذا الموظف الخطير الشأن من حق الاطلاع على كافة الشئون الخاصة بشخص الملك واصغاء الملك الى مشوراته والسلطة الكبيرة المخولة له فى اقصاء من يشاء من المثول بين يدى الملك . كل هذا قد جعله المتحكم غير المنازع فى مصائر الأفراد بل فى مصائر الدولة بأسرها .

ومن موظفى الخاصة الملكية الذين كان لهم حق الاتصال

---

(١) راجع ما ذكر عن دلالة لفظ أثيوبيا ص ٣٢ حاشية .

(٢) كوش : Kush كلمة مصرية قديمة كانت تطلق على اقليم النوبة العليا الممتد بين وادى حلفا حتى قرب الشلال السادس . وكانت عاصمته هى بلدة « نباتا » الواقعة شمال شرق « كورتى » على النيل النوبى وكان يحكمه نائب من قبل الفرعون يحمل لقب « ابن الملك فى كوش » ولم يكن هذا اللقب يعنى بنوة ذلك الحاكم لملك مصر ولكن كان يدل على متانة الصلة والروابط التى تربط مصر بالسودان .

المباشر بالملك « عيون الملك وآذانه » وكانوا يختصون بالمخابرات السرية . ومنهم « المبعوث الخاص الذى يطوف بأرجاء البلاد ويوافي الملك بالأخبار التى تدخل على قلبه السرور والغبطة » ثم « المعلم الذى يصل بعلمه بالملك الى حد الكمال » ثم « الكاتب الخاص لحورس الثور القوى » (١) ثم « كبير أمناء القصر الملكى » ثم « الأمناء » ثم « رئيس الحرس الملكى » ثم « الأتباع » وهم الذين يرافقون الملك فى الصيد . ثم « الدليل الذى كان يرافق الملك فى كافة رحلاته » .

وكان ضمن رجال الحاشية من ذوى المكانة « رئيس حملة أختام الملك » و « الرسول الخاص » و « كاتب المائدة الملكية » و « رئيس رسل جلالته » وكان يقوم بتنظيم بروتوكول الأسبقية وترتيبات المقابلات ثم « رئيس المسجلين الملكيين » و « المشرف على شئون الديوان » . والديوان هو الأجنحة الخاصة والغرف الداخلية بالقصر . و « ملاحظ الحدائق » وهو لقب حتى سنموت كان

---

(١) كان لقب « الثور القوى » يطلق على الفرعون منذ بداية عهد الأسرات . وكان الفرعون فى عصر الأسرة الأولى يمثل نفسه بثور ينطح قلاع أعدائه ويحطمها . ومثال ذلك الرسم المثل على لوحة الملك مينا ـ نارمر ـ المشهورة والمحفوظة بالمتحف المصرى فى القاهرة . وقد حافظ عليه فراعنة مصر على مر العصور لانهم اعتبروه تراثا مقدسا ورثوه عن آبائهم الأولين .

يحمله • ثم رئيس المهندسين المعماريين « وهو الذى كان يوكل اليه عمل (١) تصميمات بناء الأهرام والمعابد والاشراف على تنفيذها والموظفون الذين يتصلون أتصالا شخصيا بالملك هم : السكرتير الأول : (الذى فوق الأسرار) وذلك فى الدوله القديمة فقط • ثم « مسجل الأختام وحارس الأختام وكاتب التقارير وكاتب الرسائل فى القصر » ثم المادحون والعازفون على الجنك (آلة موسيقية تشبه القيثارة) وهناك « حامل القوس ورئيس الأتباع والسائق الأول للعربة الملكية ورئيس المشرفين على العربات الحربية وربان يخت الملك وكاتب رسائل الملكة وأمين قصرها » •

أما هيئة موظفى القصر عدا هؤلاء فكانت تتألف من كتبة المائدة الملكية والمؤن والشون والحسابات « رئيس الحسابات الحاذق » أو رئيس الحسابات اليومية وكتاب القصر وبيت المال وكتبة حسابات الفضة والذهب وكتبة حسابات المفتشين الملكيين لبيت المال • وكذلك مسجلى المكاتبات المقدسة الخاصة بالملك • ثم المترجم الأول للملك والصائغ • وصانع التحف البديعة ، ورئيس الاسطبل والمتولى

(١) كان « سموت » وزيرا للملكة « حتشبسوت » وكبيرا لمهندسيها . وقد شيد لها ما تركته من روائع المعابد والمسلات فى الدير البحرى والكرنك وكان ذا حظوة ومنزلة عند الملكة . وقد اختفت أخباره بعد وفاتها . ويرجح بعض العلماء أنه ذهب ضحية انتقام الملك « تحتمس » الثالث الذى تولى الملك بعدها . وكان فى حياتها محجوبا بشخصية هذه الملكة الفذة ويشير المؤلف هنا الى أن سموت هذا رغم مركزه الرفيع كان يحمل هذا اللقب البسيط وهو « ملاحظ الحدائق » (راجع التعليق فى ص ١٧ بخصوص الالقاب) .

شئون الخيل والمشرف على اطعــام الكلاب ، وصانع النعال ، وطاهي قصر الملكة ، ثم رسل القصر الملكي .

وكان قاضي القضاة اهم رجــل في الدوله بعد الوزير عندما كانت تنفصل الوظيفتان . وكان يحمل لقب قاضي (ساب) محكمه العدل (زادو) . وليس واضحا ما اذا كان لفظ « ثاني » Thati يعني رئيسا على الاطلاق أم رئيســا في القضــاء فحسب . فقد مثل « رخميرع » يجلس في محكمة العدل مع هيئة الرؤساء لا لينظر في القضــايا فحسب بل ليتســلم الجزية أيضـــا . وورد في النص المجاور للرسم لقبين له هما « ســاب امرى نخن » و « ثاتي امرى نخن » فاذا لم يكن اللقب الأخير يحوى لقبين منفصلين فان « ثاتي » ترادف « ساب » .

القضاة

وكانت محكمــة الجنــوب تتألف من مجلس الــلاثين ويقوم أعضاؤه باختيار رئيس المحكمة من بينهم . وكانوا يلقبون بالقضاة العظام (أور) . أما في الشـــمال فكان مجلس القضاء يتألف من ست دوائر تعقد في « أثيت تاوى » (١) برياســة الوزير . وكانت

---

(١) مدينة أنشأها الملك « امنحات الأول » مؤسس الأسرة الثانية عشرة لكي تكون عاصمة للملكه ومعنى اسمها (القابضة على الوجهين) . وأطلالها الآن في قرية اللشت في الطريق الى الفيوم .

اجراءات المحاكمة تتضمن أن يتقدم المدعى بمذكرة مكتوبة الى المحكمة • ثم يتقدم المدعى عليه بتحرير رد على هذه المذكرة • وكان يصرح لكل من الطرفين بعد ذلك بتقديم رد آخر كتابة على مذكرة الخصم وفى ضوء تلك المذكرات يفصل فى القضية • وفى محاكم الجنوب كان يحفظ سجلات تحوى أسماء ملاك المنازل وأسماء أفراد أسرهم ومن يعولونهم • وكان يرأس المحكمة المحلية فى كل مدينة أحد القضاة • وذلك فى العهود الأخيرة على الأقل وربما كان فى العهود الأولى أيضا حيث يرد لقب قاضى (Sab) فى مناسبات عديدة بدون اضافة ألقاب أخرى اليه • وكان يوجد عدا ذلك « مفسر القوانين » و « أمين المراسيم الملكية » وغير ذلك من ألقاب وكلها ترجع الى عهد الدولة القديمة وتدل على مدى قدم الوظائف وثباتها خلال عصور التاريخ • ومن الوظائف الصغيرة الثانوية وظيفة « مسجل حسابات المحكمة ومسجل المراجعات الملكية » •

الادارة المحلية

وكان رؤساء الحكومات المحلية يطلق عليهم «حكام المقاطعات» كان اذا ضعف نفوذ الحكومة المركزية قويت شوكة هؤلاء الحكام وكونوا امارات المدن المستقلة • ونجدهم بعد ذلك يسجلون الأحداث الهامة مقرونة بأعوام حكمهم لا بسنى حكم الملك كما هو

العادة . ونظرا لعدم كفاية المعادن النفسية للتداول الواسع النطاق فقد ترك الجانب الأكبر من الأموال الحكومية المقررة فى يد السلطات المحلية . ونعنى بذلك الضرائب الخفيفة والعوائد الكبيرة . ولم تكن هناك فط مركزية قوية . ولهذا فقد كانت الادارات المحلية مستعدة دائما للقيام بشئون الادارة غير معتمدة على السلطة المركزية . واذا كان الملك قوى الشكيمة شديد المراس تمسك بحقه فى اختيار حكام المقاطعات . وحتى فى هذه الحالة كان من المحتمل أن ينحصر الاختيار فى نفس أسرة حاكم المقاطعة السابق ولقد حدث مرة أن أحد الحكام مالأ أعداء الملك فجرد من منصبه ، وحقت عليه لعنة السماء أبد الآبدين . ولكن يبدو وفقا لما ورد بمرسوم « قفط » أنه لم ينفذ فيه حكم الاعدام . وكان يقيم فى كل مقاطعة مندوب ملكى وعدد من المشرفين على أملاك التاج من ضياع وقطعان ماشية .. وكان نسب حكام الأقاليم والمقاطعات ينتمى الى الأم ، ولذلك كان من الممكن لابنة الحاكم أن تتولى شئون المقاطعة كوصية على ولدها القاصر كما كان الشأن فى مثل تلك الحال . وكثيرا ما نشاهد فى الرسوم المسجلة على الآثار ملكا قاصرا تصحبه والدته . وكان حاكم المقاطعة يجمع بين هذا المنصب ووظيفة الكاهن الأكبر للمقاطعة فى معظم الحالات كما كان الملك كاهن القرابين للبلاد .

وكان الحاكم يرسل مندوبين عنه فى كل قسم من أقسام المقاطعة يقومون بما يقوم به الآن مأمورو المراكز . على أن هؤلاء

المأمورين كانوا يقدمون تقاريرهم الى الوزير مباشرة • وفي ذلك بعض الحد من سلطات حاكم المقاطعة •

وكان لكل مدينه محافظ(Prefect) يرعى شئونها ويعمل لخيرها ورفاهيتها ويبلغ الأوامر والتعليمات لكل من يعنيهم الأمر • وكان لها أيضا كاتب سجلات يحتفظ بالسجلات الخاصة بالأراضى والمعاملات • ثم قاض أول ورئيس للشرطه (العسس) • ولاشك أن وجود تلك الوظائف يرجع الى عصور قديمة جدا وان كنا لانجدها مسجله بهذا الوصف الا فى عهود لاحقة •

الحكم الذاتى فى الريف

وكانت ادارة شئون الأقسام الريفية يعهد بها الى بعض أعيان تلك المناطق ويسمون « سارو » (Saru) أى « الرؤساء » أو السراة (١) وكانوا بهذه الصفة يشبهون أعضاء المجالس القرويه • ولم يكن هؤلاء موظفين حكوميين • وكانوا ينظرون فى دعاوى عقود الايجارات وتقسيم الملكيات والوصايا والمبيعات • وكانوا يصدرون بعض الأوامر والتعليمات بعد التصديق عليها من « مدير الجنوب » ويقوم بتنفيذها الموظفون الحكوميون • وكان هؤلاء الأعيان

---

(١) أطلق عليهم هذا اللفظ الدكتور سليم حسن لتشابه النطق المصرى القديم مع هذا اللفظ . (أنظر مصر القديمة جـ ٢ ص ٥٦) .

يقومون عدا ذلك بتنفيذ نظام السخرة وجمع الضرائب المحلية • التى يفرضـها عليهم الملك كمجموعات • ومن هذا نرى انه كانت فى الأقاليم سلطتان متداخلتان :

١ ـ سلطة محلية وهى سلطة أعيان الريف وهم رؤساء القرية أو أعضاء المجالس القروية فى الاصطلاح الحديث ومنهم حاكم المقاطعة •

٢ ـ وسلطة مركزية وهى سلطة الوزير ومفتشيه فى المراكز الذين يراقبون أحوال البلاد وينفذون القرارات المحلية •

أما فيما يتعلق بطبقه أولئك الذين كانوا ينهضون بتلك الواجبات فالمعتقد أن الحكومة كانت تستخدم لذلك موظفين من الطبقة المتوسطة الدنيا ازداد عددهم عاما بعد آخر حتى أصبحت وظائفهم وراثية فى عهد الدولة الوسطى • أما فى عصر الدوله الحديثة فقد كان صغار الموظفين من أسرات الموظفين القديمة الذين كان يتزايد عددهم يوما فيوما • أما كبار الموظفين فكانوا يؤخذون من النبلاء • وعلى ذلك نجد ان أفراد طبقة النبلاء من الاقطاعيين السابقين قد أخذوا يندمجون فى سلك الوظائف الحكومية • وبذلك أضمحلت سلطة الحكومة المحلية •

وقد شاهدت كافة عصور التاريخ البشرى ظهور عباقرة وعظماء من بين الطبقات الدنيا لم يحل دون ظهورهم عرف

أو قانون • وكثير من عظماء المصريين الذين كتبوا تاريخ حياتهم يذهبون الى أن الناس يعتقدون أنهم ينحدرون من أصل وضيع لا لشيء الا لأن أسماء آبائهم لم ترد في سجل من السجلات ومن هؤلاء سنموت المشهور ، ولعل ذلك كان السبب الأول في قوة بنيان المجتمع المصرى • ذلك أنه على الرغم من وجود فوارق كبيرة بين الطبقات فقد كان هناك تسلسل وتدرج يعملان دائما على امتزاج كافة الطبقات • وان مدى اتساع الأقسام الادارية في البلاد كان يختلف باختلاف كثافة السكان ، ففى أقدم عصور ما قبل التاريخ التى يمكننا تتبعها نجد أن عدد المدن التى كانت تصنع من سنابل القمح أشكالا على هيئه أوزير (١) هى أربع فى الوجه القبلى وتسع فى الدلتا • وفى عصر المملكة الأولى بلغ عدد المدن التى صارت مقدسة لوجود مخلفات من آثار الاله الشهيد أوزيريس (٢) بها ، سبعا فى الوجه القبلى وعشرا فى الوجه البحرى • وفى عصر الدولة القديمة كان عددها ثلاث عشرة بالوجه القبلى واثنتى عشرة فى الوجه البحرى • وفى عصر الدولة الوسطى بلغ عدد المقاطعات اثنتين وعشرين فى الوجه

---

(١) كانت هذه الطريقة يتبعها الزراع المصريون فى الاحتفال بالحصاد وكانوا ينصبون الشكال أوزيريس هذه (اله النيل والزراعة) فى وسط الحقول ويرقصون حولها ابتهاجا .

(٢) يشير المؤلف بذلك الى قصة «ايزيس واوزير» التى ورد فيها ان «ست» الشرير مزق جثة الاله «أوزير» اربا ووزعها على مختلف مقاطعات انقطر المصرى وكان المصريون القدماء يحتفظون بأعضاء «اوزيريس» المقدسة فى المعبد الرئيسى لكل مقاطعة .

القبلي وتسع عشرة في الوجـه البحري وفي عصر الدولة الحديثة قسمت الى اثنتين وأربعين بالوجه القبلي وخمس وعشرين بالوجه البحري • وفي العصر الروماني كان هناك اثنتان وعشرون مقاطعة بالوجه القبلي وخمس وثلاثون بالوجه البحري •

أما المديريات الحالية (المحافظات) فيبلغ عددها سبعا في الوجه البحري وسـبعا في الوجه القبلي وبهذا فقد أصبح حجم المديريات كبيرا كما كانت المقاطعات في عصر المملكة الأولى (١) •

---

(١) كان ذلك عام ١٩٢٣ وقت تأليف الكتاب أما الآن فأصبح عدد محافظات الوجه البحري تسعة (بما فيها مديرية التحرير) والوجه القبلي ثمانية ٠

التغييرات الادارية
فى العصر الاغريقى الرومانى

ولم يحدث البطالمة الا تغييرات قليلة جدا فى التقسيم الادارى للبلاد • واستمر العمل بنظام الوظائف القديمة فى عهدهم ولكنهم أطلقوا عليها أسماء اغريقية • وكان أبرز تغيير فى عهد الرومان اختفاء منصب الملك ، على حين أن الحكام المؤقتين لم يكن يعنيهم أمر البلاد أو يهمهم رفاهيتها ولم تتوفر فيهم الكفاية الشخصية التى تمكنهم من الاضطلاع بالمهام الكثيرة التى كان يضطلع بها ملوك مصر فى العهود السابقة • ولم تكن مصر فى نظر الرومان احدى ولايات الامبراطورية وانما كانت تعد ملكا خاصا للامبراطور • فكان يفرض عليها مايشاء من الضرائب ويعامل أهلها وفقا لنزواته الشخصية • وكان الحاكم الرومانى للبلاد يمثل الامبراطور شخصيا • وكان خاتمه الذهبى يحمل « الخرطوش » المزدوج الخاص

بالامبراطور (١) وعلى ذلك فقد كانت كل وثيقة تمهر بذلك الخاتم تأخذ صفة المرسوم الامبراطورى .. ولا يخفى علينا تلك المساوىء والشرور التى نزلت بسبب غيـاب الأباطرة عنها . ولم يزرها منهم الا الامبراطور « فسباسيان » والامبراطور « هادريان » . وقد مكث كل منهما فيها بضعة أشهر . أما الامبراطور « أغسطس » فقد حضر اليها فاتحا . وجاء كل من « ماركوس أوريليوس » و « وكراكالا » (السفاح) لاخماد الثورات وسفك الدماء .

وكان تدخل الأباطرة « أوريليان ويروبس ودفلد يانوس (٢) فى شئون مصر لمدة قصيرة . وقد انحصر تفكير امبراطور الرومان فى مدى ما يستطيع الحصول عليه من انتاجها من الغلات لملء بطون دهماء روما ومدى ما يمـكن ابتزازة من أموال المصريين لتحقيق أهوائه الشخصية .

النظم التى وضعها الرومان لحكم مصر

والظاهر أن الحاكم الرومانى كان يقوم بجولة تفتيشـيه فى البلاد مرة كل سنة . وكان فى أثنـاء تلك الزيارات يعمل كأحد

(١) سار أباطرة الرومان على نهج ملوك البطالمه فى تشـبههم بالفراعنـة القدماء . وبالنسـبة لاباطرة الرومان كانت هذه الأسماء بطبيعة الحال تطلق عليهم فى مصر فقط .

(٢) راجع قائمة التسلسل الزمنى التى الحقناها بهذا الكتاب .

قضاة الاستئناف • وعلى العموم فقد كان فى يده من السلطات ما كان للوزير فى العهود السابقة • ويمكن القول بأنه قد خلف الوزير فعلا فى منصبه • وكان يلى الحاكم فى المنصب ثلاثة موظفين من الرومان يطلق عليهم مديرو الأقاليم (Epistrategoi) (١) وكانت اختصاصاتهم تشبه اختصاصات المفتشين (٢) الأربعه (المقررين) الذين كانوا يتجولون فى البلاد لموافاة الوزير فى العصر الفرعونى بأحوال الأقاليم التى تقع فى اختصاص كل منهم • وكان هؤلاء الموظفون الثلاثة فى أثناء زياراتهم لأقاليمهم يعملون كقضاة ، ويقدمون للحكومة قوائم الضرائب وكشوف الاحصاء • وقد وكل اليهم اختيار صغار الموظفين من المصريين الذين يعملون تحت اشرافهم • وكان الحاكم المحلى لكل مقاطعة من الرومان أيضا ويشغل نفس وظيفة حاكم المقاطعة المصرى فى العصر الفرعونى، وكان يطلق عليه (Strategos) غير أن مدة حكمه كانت

---

(١) كانت مصر فى العصر الرومانى مقسمة الى ثلاثه اقاليم ادارية هى اقليم طيبة والهبتانوميا والدلتا أو بعبارة أخرى مصر العليا ومصر الوسطى ومصر السفلى • وكانت كل منهما تخضع لادارة «استراتيجوس» وهذه التسمية ترجع الى عصر البطالمة • ولكن فى ذلك العصر كان «الابستراتيجوس» قائدا حربيا أما فى العصر الرومانى فأصبحت الوظيفة مدنية • ويمكن أن تسمى مدير الاقليم ويبدو أن مديرى الأقاليم الثلاثة فى العصر الرومانى لم يكن لهم مقر دائم كل ى اقليمه بل كانوا يديرون أعمالهم من الاسكندرية ولكنهم كانوا يطوفون بأقاليمهم بانتظام •

انظر : Milne, Egypt under the Roman Rule, pp. 125-126.

(٢) راجع ص ٣٦ •

محدودة بثلاث سنوات كى لا يزداد نفوذه ويحاول الاستقلال بشئون المقاطعة وحتى يمكن لرجال الحكومة المركزية الاثراء عن طريق بيع مثل هذا المنصب الكبير للراغبين فيه • وكان الحكام المحليون للمقاطعات يجمعون بينات القضايا أثناء تجولهم فى المقاطعة ولكن لم يكن يسمح لهم أن يكونوا قضاة ، ولكن يحتمل أنهم كانوا يقومون بدور الحكم فى كثير من المسائل التى لم تصل بعد الى دور التقاضى رسميا • وكانوا مسئولين كحكام المقاطعات قديما ومديرى المديريات عن تقدير الضرائب وتحصيلها مقابل تقديم صكوك للممولين عن هذه الضرائب مهما قلت قيمتها ، كما يتبين من قطع « الأستراكا (١) » التى عثر عليها • وكانوا عدا ذلك يشرفون على نظم الرى • ولامراء فى انهم تولوا شئون السخرة ••

ان الخوف من أتساع سلطانهم وقوة نفوذهم قد حفز الحكومة المركزية الى القاء أعباء ثقيلة على كاهل هؤلاء الحكام خلال تلك السنوات الثلاث من ولايتهم والى التشديد عليهم بتقديم التقارير عن أعمالهم وفحصها بغاية الدقة • وكان يقيم الى جانب كل من هؤلاء الحكام من يتجسس على أعماله وتصرفاته فى شخص الكاتب

---

(١) «الاوستراكا» هى قطعة مصقولة السطح قد تكون من الحجر او الفخار أو العاج عليها نقوش وكتابات •

أو المســـجل الملكى (١) الدى يمثل الحكومة المركزية • واننا نجد منذ عهد الأسرة الثانية عشرة أن هذا المسجل الملكى الرسمى يلازم مسـجل المقاطعة ليطمئن على نصيب الملك من الضرائب ، وقد أمتد العمل بهذا النظام في العصور التالية • وكان الرومان يستخدمون أفـراد عائلات حكـام المقاطعات القدامى كموظفين لسعه خبرتهم بالشئون المحلية ، وكجباة يبتزون أمـوال الأهلين فى شكل رسوم وضرائب عقاريه وتجاريه وغيرها •

وقد أخذت حكومة الرومان بالنظام القديم لتسجيل المعاملات الخاصه وهو النظام الدى كان معمولا به على الأقل منذ عهد الأسرة الثانيه عشرة • وربما عمل به قبل ذلك بكثير • فلم يقتصر الأمر على ضرورة تسجيل كافة الوثائق الرسمية بل كان لابد من تسجيل جميع الاتفـــاقات التى تبرم بين الأشخاص حتى تصير لها الصفه القانونية وتصبح مستندا رسميا • وقد بلغت قيمه التسجيل حوالى أربع بنسات أى ثمن رطل من حديد •

وكان القائمون على شـــئون القرية أشـبه بأعضـاء المجالس القرويه ، ويتألفون من نخبة قليلة العدد من رجال القرية البارزين

---

(١) كانت وظيفة المسجل الملكى ولو أنها مستقلة عن وظيفه حاكم المقاطعه الا أنها أقل منها فى المرتبة وكان المسجل الملكى ينوب عن حاكم المقاطعة فى حاله غيابه ، ويختص بالنواحى المالية فقط ولضمان استقلاله عن حاكم المقاطعة وعدم خضوعه لسلطته فقد أوقفت بعض الضرائب عليه بالاضافة الى مرتبة • ويرجع هذه الوظيفة الى عهد البطالمة •

لرعايه شئون أهل القرية • وكانوا مسئولين عن حفظ الأمن والنظام والتأكد من جمع الضرائب • والظاهر أن مجلسهم الأكبر الذى كان يسمى فى العهود الماضية « سارو Saru قد أختفى تماما ومن المحتمل جدا أن تلك المجالس قد قضت عليها الأنظمة الصارمة الدقيقة التى أبتكرها محصلو الضرائب ايام البطالمة الذين كانوا لا يرغبون فى وجود مجالس بالقرى توازن بين حال قرية وآخرى وكان يختص بالأعمال الرسمية فى القريه كل من كاتب القرية الذى عليه اعداد كشوف الايرادات للحكومة ومسجل كان يقوم بقيد الناس وكان يزود الكاتب بما يلزمه من أحصاءات ومسجل العقود والمعاملات التجارية •

وكانت قوات الشرطة (البوليس) فى البلاد مستقله عن الهيئات المحلية كما هو الحال فى الوقت الحاضر • ففى عهد الأسرة الثانية عشرة كان يوجد مدير للشرطة « خوتو » يعاون حاكم المقاطعه وقد زاد العدد فى العصر الرومانى الى أثنين فى كل مقاطعه • ومن ذلك العصر كان رجال الشرطة المخصصون لكل قرية يتولون حفظ الأمن والنظام وتأديب الخارجين على القانون على حين اقتصر عمل الخفراء المحليين على أداء المسائل العادية كالقبض على المتهمين •

المدن الاغريقية التى تمتعت بالاستقلال الذاتى

وقد قام الى جانب هذا الجهاز الادارى العام نظام آخر يتضمن

وجود عدد غير قليل من المدن التي تتمتع بالاستقلال الذاتي وتسكنها جاليات كبيرة العدد من الأجانب ومن المحتمل أن « نقراطيس » (١) كانت أول مدن مصر التي تمتعت بهذا النوع من الاستقلال الداخلي . لقد كانت مدينة أغريقية خالصة ، ولذلك فقد استقلت باختيار حكامها . وكانت الاسكندرية أيضا مدينة مستقلة استقلالا ذاتيا بطبيعة الحال . فقد كان يستوطنها عدد كبير من اليهود والاغريق منذ نشأتها . وبعد أن قام ملوك البطالمة باسكان عدد كبير من جنود الاغريق في الفيوم أنشأ هؤلاء مدينة سميت «أرسنوى Arsinoe» (٢) وكان أغلب القائمين على شئونها من الاغريق . أما مدينة « بطوليمايس Ptolemaïs (٣) الواقعة في الصعيد فكان لها مجلس

---

(١) أسسها تجار الاغريق في منتصف القرن السابع قبل الميلاد في عهد الملك «ابسماتيك» الأول على فرع النيل الكانوبي ومكانها الحالي «كوم جعيف» بجوار بلدة «نقراش» التي استمدت اسمها منها . وقد بلغ من تمتع «نقراطيس» بالسلطة الذاتية أنها أصدرت عملة محلية خاصة بها في أوائل عصر البطالمة . وكانت نقراطيس الميناء الرئيسي الواقع على الطريق النهري بين الاسكندرية ومنف .

(٢) ذكرها المؤلف Ptolemais ولكن لما كانت هذه المدينة بعيدة عن الفيوم كما سيأتي ذكره . فمن الواضح أنه يقصد «ارسنوى» وهي المدينة التي انشئت في الفيوم .

(٣) بطوليميس » هي ثالث مدينة أغريقية أنشئت في مصر بعد نقراطيس والاسكندرية . وقد شيدت مكان مدينة مصرية قديمة وسميت كذلك تخليدا لذكرى منشئها بطليموس الاول ومكانها الآن قرية المنشية بمديرية جرجا .

محلى وادارة محفوظات • ثم هناك مدينة « أنتينوى Antinoe » (١) وكان لها دستور أغريقى بحت • وبحلول القرن الثالث الميلادى نجد مدنا أخرى عديدة ذات طابع أغريقى قد أتخذت لنفسها مجالس للأعيان تجعلها شبه مستقلة عن النظام الادارى العام فى البلاد مثل « اكسرينكوس Oxyrhynkhos (٢) و « هيراكليوبوليس Herakleopolis » (٣) •

على أن وظائف مجالس الأعيان لتلك المدن وغيرها يتبين فى جلاء عند دراسة الاختصاصات التى يتمتع بها مجلس هيراكليوبوليس• لقد كان ذلك المجلس يقوم بتعيين كافة الموظفين المحليين للمدينة والاشراف على اعداد الحفلات والبت فى جميع مطالب الحكومة المركزية واقرار كافة المسائل المتعلقة بالتجارة المحلية • وكان يمثل المدينة فى كافة العلاقات القائمة بينها وبين الحكومة المركزية • وأن الأثر العام الذى يتركه هذا الحكم الذاتى فى أذهاننا هو أن كل فرد

(١) مكانها الآن قرية الشيخ عباده بمديرية المنيا . انشأها الامبراطور الرومانى هادريان حوالى عام ١٣٢ بعد الميلاد عند زيارته لمصر . وذلك تخليدا لذكرى نديمه «انتينوس» الذى غرق فى النيل فى ذلك المكان . وكان كل سكانها من الاغريق ولذلك كان يغلب عليها الطابع الاغريقى . وقد صممت المدينة طبقا للطراز الاغريقى فى انشاء المدن . ونقل اليها مواطنون اغريق من مدينة بطوليميس وأعطاها الامبراطور جميع امتيازات المدن الاغريقية لتحقيق استقلالها الذاتى .

(٢) مكانها الآن بلدة «البهنسا» الحالية فى مديرية المنيا .

(٣) مكانها الآن بلدة «أهناسيا المدينة» فى مديرية بنى سويف .

من سكان تلك المدن كان يحاول التملص من الأعمال الشاقة التى تفرضها الحكومة عليهم من غير أن تدفع لهم أجورا عن أدائها . وكانت مناقشات هذه المجالس تطول فى غير جدوى وتتشعب دون حسم للمسائل المعروضة عليها . وقد تشتد وتحتدم فيلجأ الأعضاء الموقرون الى استعمال العنف تارة بالألفاظ وتارة بالأيدى .

نظام الضرائب فى العصور الأولى

ان الضرائب هى قوام الحكومات كلها • وقد تتخذ صورا شتى • فالضريبة على محصول الأرض هى الوسيلة البدائية الأولى التى كان يعتمد عليها كل زعيم • ثم تدرج الأمر الى تقدير الضرائب فى صور شتى • وكانت ضريبة العمل من الضرائب البدائية العادية فكان يقوم الشخص بالعمل عدة أيام للزعيم • ومازال هذا متبعا (فى انجلترا) بين الطبقات العليا اذ لايزال يكلف القضاة وغيرهم بأعمال مرهقة • وفى النظم الاغريقية والرومانية كان تكليف الأفراد بأعمال لمصلحة المجموع يعتبر من الضرائب الثقيلة • ومن أمثلة ذلك الخدمة فى المعابد الاغريقية وفى الاحتفالات العامة الرومانية • وان وجود مقادير كبيرة من العملة الذهبية أو الفضية فى قطر من الأقطار يؤدى حتما الى أن تكون الضريبة من هذا المعدن أو ذاك • وقد أخذت ضريبة الرأس تتلائم مع حالة الدافع حتى أصبحت معقدة وتحتاج الى طبقة من الموظفين المتخصصين • وكانت الضرائب البدائية

التى تؤدى فى صورة محاصيل عينية وخدمات هى السائدة الى عهد الأسرة الثامنة عشرة . ولم تختف تماما حتى فى أيام الرومان لأن منح حق استغلال الأرض للأهلين فى مجتمع زراعى كمصر انما كان يصدر عادة من الزعيم مقابل تقديم مواد غذائية له أو عوله لمدة أيام معلومة أو مقابل قدر معين من الحنطة أو عدد من الماشية . وكان ذلك النظام سائدا فى عصر الدولة القديمة . وكان على جميع عبيد الأرض (Serfs) الذين يعملون فى المزارع الملكية أن يؤدوا الضرائب المقررة ، بيد أنه اذا منحت بعض تلك الأراضى الملكية للمعابد أعفيت من الضرائب التى كان يتقاضاها الملك ، وآلت الرسوم الى الكهنة ، وأصبحت دخلا لهم ، ويمكن اعتبار تلك الرسوم ايجارا عاديا كائنا من كان الذى يتسلمها ليفلحها . وكانت الضرائب التى تجبى على المحاصيل الزراعية تسمى « ميزيدو Mezedu أى العصارة مشبها أياها بالخمر المعصور . وقد أتخذت صورة مواد غذائية كسلال الخضر والمأكولات والأطعمة والخبز وعلف الماشية . وأحيانا فى صورة مؤن ومواد مختلفة تقدم لمكتب تسجيل الضرائب ومقادير من كتان وغزل وحبال . وكانت الضرائب تكون أحيانا من المعادن النفيسه وغير النفيسه هى اثمان بيع محاصيل زراعية . وان هذه الضرائب لتدلنا على أننا لانكتب هنا عن مجرد عبيد للأرض ولكن عن مزارعين يملكون ما يزرعون . وقد استمر العمل بهذه الضرائب والايجارات الى عصور متأخرة . ولذلك يمكن القول

بأنه كان معمولا بها فى كافة العصور التاريخية وربما كان لها أصول فى عصر ما قبل التاريخ •

وان حق استخدام العمال استخداما مباشرا كان لزراعة الأرض الملكية وكذلك لحفر الترع واقامة الجسور (الترابية) • وكان من حقوق الملك أيضا أن يتمتع القائمون على خدمته وخدمة ممتلكاته بالاعفاء المطلق من رسوم المرور فى البحر والبر أى على ظهور الدواب أو السفن • وهو تقليد مألوف فى معظم دول العالم ذات النظام الملكى •

الضرائب فى عهد الأسرة الثامنة عشرة

ولم يترك لنا التاريخ أى أثر نستدل منه على قيمة ايرادات الدولة المصرية فى عهد الأسرة الثامنة عشرة • ولكننا نجد فى مقبرة الوزير « رخميرع » من عهد الأسرة الثامنة عشرة قائمة عن الضرائب التى جبيت من اثنتى عشرة مقاطعة من مقاطعات الوجه القبلى « تقدير حسابات ديوان الوزير » وبعض أجزاء هذه القائمة غير واضحة وقد أختفت معالم الأرقام فيها ، بيد أنه يمكن تقدير الأرقام المفقودة فى مثل هذه الحالات على أساس متوسط ماورد من أرقام فى الأجزاء الأخرى • وبما أن ما تبقى لنا من هذا السجل القيم قد اشتمل على جملة الأتاوات التى أدتها أثنتا عشرة مقاطعة (عدا القدر القليل المفقود) وبما أن عدد المقاطعات فى مصر فى ذلك العهد قد بلغ حوالى واحداً وأربعين فمن الممكن اذا ضربنا جملة الأتاوات المبينة فى

السجل فى أربعة كان الناتج هو جملة ايرادات الدوله وقتئذ ، وهو ما سنبينه فيما بعد • مع العلم بأن نسبة تلك الجملة الى غيرها من أنواع الضرائب الأخرى ليست من المسائل التى يمكن الجزم بمعرفتها •

لقد ورد الجانب الأكبر من الذهب من الجنوب فأسهم اقليم الحدود النوبية بستين « دبناً » (١) وأسهمت المقاطعات الأربع الواقعه جنوبى مدينة طيبة بأربعة وستين « دبناً » بالاضافة الى خمسة وعشرين « دبناً » أخرى « فى شكل خواتم وحبات من الذهب • على حين أسهمت المقاطعات السبع الواقعة شمال طيبة بثمانية وعشرين « دبناً » فقط عدا اثنين أو ثلاثة « دبنات » من حبات الذهب • وقد كان من الواضح أن القدر الكبير الذى ورد من الجنوب قد استخرج من مناجم الذهب هناك • فى حين لم يسهم الذهب المتداول فى المقاطعات الواقعة شمال طيبه بأكثر من أربع « دبنات » عن كل مقاطعة وهذا القدر هو متوسط ما يمكن أن تسهم به كل مقاطعة من الاثنتين والعشرين الموجودة بالدلتا مع اضافة بعض الزيادة تقديرا لثراء منف •

واذن فقد أسهمت كافة أجزاء البلاد فى الدفع الى خزانة الحكومة المركزية بما يقرب من ٣٠٠ « دبن » من الذهب (وتقدر

---

(١) الدبن يساوى ٩١ جراما .

قيمته الحالية بنحو ٤٠٠٠ جنيه) (١) • ويمكننا أن نوازن هذا القدر من الذهب وبقية الغنائم التى أستولى عليها المصريون من الدول المجاورة • لقد جلب تحتمس فى غزوته الأولى للشام ١٧٨٤ دبناً من الذهب ومن غزوة الحثيين ٣٢٠٠ دبن ومن « واوات » (٢) من الذهب ٩٠٠٠ دبن تقدر قيمتها بمبلغ ١٢٠٫٠٠٠ جنيه • وذلك فى مدى خمسين عاما •

واذن فالضرائب من المقاطعات البالغ قيمتها كما رأينا ٤٠٠٠ جنيه فى السنة الواحدة تفوق ما أستولت عليه البلاد عن طريق الغزوات الخارجية • ومن المحتمل أن الجانب الأكبر من الذهب الذى رصدته الحكومة للتداول كان من الذهب الوارد عن طريق الغزوات • ومهما يكن من أمر فان جملة هذا الايراد السنوى للدولة كان طفيفا بحيث لم يكن يفى الا بدفع مرتبات موظفى الحكومة المركزية • وعندما أتسع نطاق استعمال الذهب تضاعفت ايرادات الدولة أضعافا مضاعفة (٣) فى عهدى الاغريق والعرب • وقد قيل أن التقدير الذى ورد فى السجل السابق ذكره انما كان يجبيه الوزير فقط بيد أن ذلك ينطوى على مبالغة كبيرة فهو قدر لا يمكن أن يخصص

---

(١) لاحظ فى التقدير اختلاف سعر الذهب الآن عما كان عليه عام ١٩٢٣ وقت صدور هذا الكتاب اذ لا شك أن قيمة الذهب قد ازدادت الان أضعافا .

(٢) «واوات» كلمة مصرية قديمة كانت تطلق على النوبة السفلى اى المنطقة الممتدة من أسوان الى وادى حلفا .

(٣) ذكر المؤلف أنها تضاعفت آلاف المرات وهو قول غريب .

لشخص واحد فى الدولة ويحتمل أن هذا المبلغ كان يمثل الايراد المخصص للادارة فى الحكومة المركزية •

وكانت الفضة فى مصر أندر من الذهب وان كانت قيمتها لم تبلغ شاو قيمة الذهب • وكان مقدار الضرائب التى تجبى فضة ستين دبناً كما كان مقدار ما جبى منها من غزوات الشام ٣٠٠ دبن • واذن فقد كانت الفضة قليلة الأثر فى الايرادات العامة وفى التداول •

أما فيما يتعلق بالماشية طبقا لما ورد فى السجل السابق ذكره فاننا نجد ٢٠٠ ثورا و ٢٤٠ عجلا صغيرا و ١٢ بقرة فقط • وهذا يدل على أن ذلك العدد من الماشية لم يكن المقصود به أن يضاف الى القطعان الملكية وانما لغرض الذبح • ويرجع السبب فى قلة عدد الأبقار الاناث فى القائمة الى تحريم ذبحها • وبما أن هذا العدد المحدد من الماشية الوارد فى البيان آنف الذكر لم يكن ليسمح بذبح أكثر من ثور واحد أو عجلين صغيرين فى اليوم الواحد خلال العام فقد دل ذلك على أن هذا العدد من الماشية كان معدا للاستهلاك المنزلى ولم يكن القصد منه المشاركة فى الايراد العام للدولة • وقد ذكر فى السجل أيضا ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ حمامة أى بمعدل ٦ أو ٨ حمامات فى اليوم الواحد وهو زيادة ضئيلة فى المؤونة • ولم يرد فى السجل أى ذكر لأوز من أى نوع • ولعل ذلك راجع الى أن هذا الطير لم يكن ينقل من مكان الى آخر وانما كان يربى محليا •

وكانت الأثاوات من الغلال قليلة وقد بلغت ١٤٠٠ رطل من الحنطة و ١٦٠٠ رطل من الشعير لعمل الجعة و ٣٠٠٠ رطل من الذرة (١) وهى جملة قدرها ٦٠٠٠ رطل • وهذا يدل على متوسط يومى قدره ١٦ رطلا • ويحتمل أن تلك المقادير القليلة لم تكن الا لبعض الموظفين المحليين الذين كانوا يعطون الأهالى الموردين ايصالات بها وتحتسب مما عليهم من ضرائب • وقد ورد ذكر مقادير طفيفة من الخبز المصنوع من لب ثمر الدوم • ومن الغريب أنه لم يرد ذكر للبلح ضمن محتويات القائمة المذكورة • غير أننا نلاحظ من الصور أن اقليم الحدود ومنطقة دندره قد أسهما بعدد من (الغرائر) شدت بحبال من الليف على طريقة تعبئة البلح فى الوقت الحاضر ويغلب على الظن أن محتويات تلك الغرائر كانت من البلح • وكانت مقادير البلح على أية حال طفيفة جدا • ولعل انتاج البلح من بساتين النخيل بالمزارع الملكية كان كافيا لسد حاجات البلاد الى حد كبير والظاهر أنه كان هناك عدا ذلك حوالى ٦٠ جرة من عسل النحل • ولما كان العسل المادة السكرية الوحيدة وقتئذ لصناعة الحلوى وتحلية النبيذ فان هذا العدد من جرار العسل لم يكن كافيا لمنشأة واحدة •

هذا هو كل ماذكر عن المواد الغذائية والمعادن النفسه • ومنه

---

(١) المقصود بهذا الذرة الرفيعة (العويجة) وكانت معروفة فى مصر والعالم القديم أما الذرة الشائعة الآن فى العالم فهى الذرة الشامية • وهذه لم تعرف الا بعد كشف أمريكا •

يتضح أنه لم يكن هنـاك زيادة عما كانت تتطلبه حاجات الموظفين الاداريين بالحكومة المركزية • بل أن انتاج المزارع الملكية قد أسهم فى سد بعض تلك الحاجات • وليس لدينـا دليل على تقديم أتاوات كالمدونة بالقائمة للملك خاصـــة فيما عدا ما كان يحصـل عليه من ضرائب عينية معتادة من الماشـية والمحاصـيل • ولقد كانت أسلاب الغزوات الخارجيـــة هى المورد الذى أمـد الدولة بمقادير الذهب والفضة التى استعملت فى صنع الزخارف وأدوات الزينة والأوانى التى ازدانت بها القصــور الملكية والمعـابد • ولم يحدث قط أن اعتمدت الحكومة المركزية فى نفقاتها كلهـا على رصـيد مركزى • وكان ما يفرض من ضرائب ورســوم يقصد به دفع رواتب موظفى الحكومة المركزية ولا يحمل معنى ما نسـميه الآن بالايرادات العامة للدولة • وكانت أهم مصروفات الدولة وهى نفقـات الجيش تدفع محليا • وكان هذا الجيش يتألف من أربع فرق وهى : فرقة «آمون» من مجندى الوجه القبلى • وفرقة « بتاح » من منف وفرقة « رع » من جنوبى الدلتا وفرقة « سوتخ » من شـمالى الدلتـا • ولاشك أن عبء تجنيد هذه الفرق وتزويدها بكافة العتاد اللازم كان يقع على كاهل السلطات المحلية •

تقدير الضرائب

ولقد عنيت الحكومة فى عصر الدولة الحديثة بتحسين مركز البلاد وزيادة ثروتها ويدلنا التوسع فى تقسيم المقاطعات أقســاما

صغيرة فى ذلك العهد على الاتجاه لبذل عناية أكبر للنهوض بالشئون الادارية في الدولة • لقد كانت الحكومة تقوم بتقدير قيمة كافة الأراضى سنويا مع استثناء الأراضى الموقوفة على المعابد • وذلك لتقدير الضرائب المناسبة عليها وهى ضرائب كانت تتفاوت تبعا لارتفاع فيضان النيل ومقدار المحصول الذى تنتجه الأرض ويرجع هذا النظام فى تقدير رسوم الضرائب على الأرض وفقا لحالة فيضان النيل الى عهد الأسرة الأولى ، وان لم يكن قبل ذلك • لأن ارتفاع ماء الفيضان كان يقاس بدقة عظيمة تصل الى ؟ من البوصة • وكان ذلك الارتفاع يسجل فى الحوليات (١) الوطنية سنويا • ومن المؤكد أن هذا التسجيل الدقيق لحالة الفيضان لم يكن ليتم الا لغرض هام وخطير (٢) • ولم تقتصر الحكومات المتعاقبة على تسجيل الأراضى

---

(١) كان المصريون يسجلون الحوادث طبقا لسنى حكم ملوكهم فيكتبون الأحداث التى وقعت فى حكم ملك سنة بعد أخرى • وكانت هذه الحوليات نوعين :

(أ) حوليات الملوك وهى التى يسجل فيها الفراعنة حوادث حروبهم واحتفالاتهم • ومن أمثلتها حوليات الملك تحتمس الثالث المسجلة على جدران معبد الكرنك •

(ب) والحوليات الوطنية وهى التى كان يسجل فيها أسماء الملوك الذين تتابعوا على حكم البلاد والحوادث التى وقعت فى زمن كل منهم • ومن أمثاله هذه الأخيرة حجر «بلرمو» المشهور الذى سجل عليه أسماء الفراعنة منذ عصر ما قبل الأسرات حتى منتصف الأسرة الخامسة مع بيان الحروب والأعياد الملكية والدينية والاحتفالات وتأسيس المعابد والمدن والمبانى التى أقامها الملوك • وتسجيل ارتفاع فيضان النيل فى كل سنة •

(٢) الغرض من ذلك بطبيعة الحال هو الاستعداد للفيضان من ناحية وتقدير الضرائب من ناحية أخرى •

عامة بل كانت تسـجل كذلك مختلف الضياع وعدد الأفراد الذين يقيمون فى كل منها • وكانت الضرائب بطبيعة الحال عينية • وكانت تبلغ ⅕ المحصـول • وكانت تلك الضرائب كما رأينا لا يبعث بها الى الحكومه المركزيه وانمـا كانت تصرف فى سـد نفقات الادارة المحلية والجيش • على أنه كان هنـاك لون من ضرائب الدخل المهنية يتقاضـاها الوزير من الموظفين كـل بحسب منصـبه • وقد رفع « حور محب » (١) تلك الضريبـة وكان يهدف من وراء ذلك الى معاضـدة الموظفين المدنيين له واضعاف نفوذ الوزير الذى كان يرى فيه رجلا خطرا على مركزه بعد أن أضمحل نفوذ أتباع « آتون »(٢) وسادت صفوفهم الفوضى والارتباك • وقد قدر حور محب أن منـل هذه الضريبه لن يزيد مع مرور الزمن من قوة هؤلاء الموظفين اذ من الممكن خصم قيمتها من رواتبهم • والظاهر أن ما لجأ اليه هذا الملك

(١) ملك مشهور فى التاريخ بأصلاحاته . حكم مصر بعد اخناتون وخلفائه الضعاف وكانت البلاد قد عانت من الفوضى الداخلية والفساد والرشوه • فقام حور محب بحملة تطهير واسعة فى الأداة الحكومية واصدر قانونا يتضمن أنظمة تشريعية واجراءات ادارية منها فرض عقوبات صارمة على الموظفين ورجال الشرطة الذين يضطهدون الفقراء أو يثبت عليهم الرشوة ، وتشجيع الموظفين ذوى السيرة الحميدة ، والاغداق على الموظفين المسئولين ، بالرواتب والعطايا حتى لاتمتد أيديهم للرشوة . ويعتبر حورمحب صاحب الثورة الاصلاحية الأولى فى التاريخ القديم •

(٢) هم الذين اتبعوا الملك «اخناتون» فى عبادة الهة «آتون» (ومعناه القوة الممثلة فى قرص الشمس) وبعد وفاة هذا الملك اضطهدوا وتشـتتوا وقضى عليهم •

كان وسـيلة ماهـرة لنقل هذا الكسب بطريقة بارعة من يد الوزير الى يده .

وكان تقدير الضرائب من اختصاص المفتشين الملكيين الملحقين بالقصر الملكى ، اذ كانوا يقومون بتثمين الأراضى وغيرها من العقارات ويقررون الضرائب المناسبة عليها . وكان النظام المتبع لضبط عملية تحصـيل الضرائب يتضمن اعداد تقارير شـهرية يبعث بها جميع الموظفين المحليين المختصين الى الوزير متضمنة كافة صكوك التوريد والنفقات ومصحوبة ببيانات عن حالة مياه النيل ، اذ تقرر على ضوئها الضرائب فى السـنوات التالية . هذا وقد اتخذت كافة الوسـائل والسـبل الممكنة لمراعاة الموازنة بين الايرادات والمنصرف وكان من الممكن تدبير النفقات المطلوبة من أقرب مراكز التموين الحكوميـة . وقد كان جميع الغزاة الأجانب ينقلون مقـر حكمهم الى مصر وهذا كان شـأن برابرة الأسرتين السـابعة عشرة والثامنـه عشرة (١)

---

(١) يقصد المؤلف بالبرابرة من غير شك الهكسوس الذين غزو البلاد فى فترة الانحلال الذى اعقبت سقوط الدولة الوسطى . اذ كان المصريون يطلقون على الهكسوس أسماء كريهة كالبرابرة والطاعون والوباء ولكن هناك ناحية غامضة فى عبارة المؤلف وهى انه يقرن حكم البرابرة أو الهكسوس بالاسرتين السـابعة عشرة والثامنة عشرة . لان المعروف فى التاريخ أن حكام هاتين الاسرتين همالملوك الوطنيون الذين طردوا الهكسوس من مصر وأسسوا الدولة الحديثة . ولاشك ان المؤلف يقصد الاسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة وهما فقط الاسرتان اللتان تكونتا من ملوكالهكسوس كما ذكر المؤرخ المصرى مانيتون .

والبوبسطيين (١) الذين أسسوا الأسرة الثانيــة والعشرين والنوبيين الذين وان كان ملوكهم قد بقوا فى « نباتا » (٢) ، الا أنهم أسسوا فى مصر الأسرة الخامسة والعشرين التى كان يتولى الحكم فى مصر فى أثنائها ولى العهد • ولــكن الامبراطورية الفارسية كانت الدولة الأولى التى تغــزو مصر وتفرض عليها جزية ترســـل ســنويا الى فارس (٣) • وقد بلغت تلك الجزية الســنوية ٧٠٠ وزنة (٤) من الفضة أى ما قيمته ١٦٠٫٠٠٠ جنيه • على أن هذا المبلغ كان طفيفا

---

(١) البوبسطيون هم سلالة الليبيين الذين اســتوطنوا اقليم الفيوم ثم اغتصبوا ملك مصر وأسسـوا الاسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ ــ ٧٤٥ ق٠م٠) وكان ذلك على يد أحد أفراد سلالتهم وهو الملك «ششنق» الأول • وقد أطلق عليهم «البوبسطيين» بسبب اتخاذ عاصمة ملكهم «بوبسطه» أو تل بسطه بالقرب من الزقازيق الحالية •

(٢) كان أجداد هؤلاء الملوك فى الأصل مصريين من سلالة كهنة آمون الذين فروا من مصر نحو الجنوب هربا من اضطهاد ملوك الليبيين واستقروا حول نباتا حيث تمكن احفادهم من تأسيس مملكة بلغ من قوتها أن أحد ملوكها وهو الملك «بعنخي» تمـكن من غزو مصر والقضــاء على الملوك الأجانب الذين كانوا يتنازعون على عرشها ، ولكنه لم يستقر فيها على عادة الغزاة الآخرين بل عاد الى نباتا بعد أن عين أخته «آمنرديس» أميرة دينية على طيبة • وظل ملوك النوبة يحكمون من نباتا ويجيئون بين الحين والحين لاستعادة نفوذهم حتى نقل «تانوت آمون» العاصمة من نباتا الى منف •

(٣) يجدر هنا التنويه بأن الآشوريين سبقوا الفرس فى هذه الناحية اذ تعرضت البلاد لغزوات الأشوريين قبــل مجيء الفرس بحــوالى ١٥٠ عاما • وخضعت مصر لسلطان « آشور بانيبال » ملك آشور ودفعت له الجزية • ولكن فترة سيطرة الآشوريين كانت قصيرة جدا •

(٤) الوزنة أو «الطالنط» اليونانية تساوى حوالى ٢٤٠ جنيها •

بالنسبة لموارد البلاد المصرية • الا أنه مع ذلك كان يزيد عما أعتاد الوزير المصرى أن يجمعه في العهود السابقة • هذا بالاضافة الى أنه كان يصرف خارج مصر • ولذلك لم تنتفع منه مصر • على أن قيمة هذه الجزية وهى كما رأينا قيمة معتدلة فيها الدليل على أن الضرائب التى فرضها الفراعنة على البلاد فى العصور السابقة لم تكن باهظة والا لأتخذت حصيلة تلك الضرائب مقياسا لتقدير الجزية التى فرضها الفرس على البلاد •

ثقل الضرائب فى عصر البطالمة

على أن عبء الضرائب كان أثقل كثيرا فى العهد البطلمى والسجل الوحيد الشامل الذى لدينا عن تلك الضرائب يرجع الى أواخر ذلك العصر الذى لم تكن حالة البلاد فيه مزدهرة • فقد بلغت جملة ايرادات الدولة أيام « أوليتس » (١) ١٢٫٥٠٠ وزنه من الذهب أى ما يقرب من ثلاثة ملايين من الجنيهات (٢) وكانت مصر أيام حكم الرومان طبقا لتقدير « استرابون » أكثر غنى وايراداتها العامة أعظم قدرا • وكان الحصول على الايرادات فى عهد البطالمة يتحقق بطريقة تتطلب المبالغة التامة فى التحرى والاستقصاء

---

(١) «أوليتس» معناها الزمار وهو اسم التهكم الذى أطلقه أهالى الاسكندرية على الملك بطليموس الحادى عشر (٨٠ – ٥٢ ق٠م) والد الملكة كليوباترة بسبب هوايته النفخ فى المزمار •

(٢) طبقا لسعر الذهب عام ١٩٢٣ •

والتفتيش مما أستدعى وجود جيش عرمرم من الموظفين الدين لانفع فيهم للبلاد للقيام بتلك المهمة ، ونجد في الوثائق البردية من عصر « فيلادلفوس » (١) عن الايرادات المتصلة بضريبة الزيت فقط كيف كان يتحتم على الأهلين الالمام بطائفة عديدة من التعليمات والتوجيهات لأداء الرسوم المقررة على حاجاتهم المنزلية من الزيت • فكان المفتشون يدخلون المنازل ويقومون بجرد محتويات المطابخ للتأكد مثلا من أن الزيت الذى يستعمله أهل البيت ليس من الزيت الحر التداول وانما ينبغى أن يكون من الزيت الخاضع للضريبة • واذا عرفنا أن كل هذا التدقيق تطلبه الفحص عن رسوم سلعة واحدة أصبح من السهل أن نتصور ذلك الجهد الكبير الذى كان ينفق فى التحرى عن كل نوع من أنواع الرسوم والضرائب •

راتب الأراضى

وكانت الضرائب المقررة على الأراضى الزراعية تختلف بطبيعة الحال تبعا لحالة ملكيتها فقد أعفيت أراضى الكهنة من الضرائب بينما بلغت الضريبة على الأراضى التى يملكها المزارعون من المواطنين الأحرار ⅕ جملة المحصول • وكان مستأجرو الأراضى والضياع الخاصة بالملك يؤدون ايجارا كبيرا • وكان على عبيد الأرض أن

(١) هو بطليموس الثانى وحكم من ٢٨٥ الى ٢٤٧ ق٠م ٠

يقدموا الجانب الأكبر من المحاصيل التى يقومون بانتاجها الى ملاك الأرض سواء أكانوا من المزارعين الأحرار أم الكهنة أم الملك •

ضرائب الماشية

وكانت الضرائب تفرض على رءوس الماشية منذ العصور الأولى• • ففى عهد الأسرة الثانية اتبع نظام احصاء الماشية مرة كل سنتين • ومن الواضح أن الغرض من هذا الاجراء هو الحصول على نصيب الحكومة كاملا • وفى عهد الأسرة الثانية عشرة كان احصاء الماشية يتم مرة كل سنة وكان « أمير بنى حسن » يحصل على ٣٠٠٠ رأس من الماشية سنويا من مقاطعته كضريبة مستحقة للحكومة • وكانت الضرائب تقرر أيضا على مصائد الأسماك فى البلاد • غير أنه لا يوجد لدينا سجلات فى هذا الصدد الا من عصر الحكم الفارسى • فقد كان ايراد الرسوم على مصائد الأسماك فى بحر يوسف عند مدخله بالفيوم يصل الى « وزنة » من الفضة فى اليوم الواحد • وذلك لمدة ستة أشهر من كل سنة و $\frac{١}{٣}$ ذلك الايراد بقية أيام السنة • وهو ايراد يبلغ فى جملته ٢٤٠ وزنة من الفضة سنويا • وهذا القدر من الايراد يبدو مبالغا فيه ويصعب تصديقه ولا يمكن تحقيقه الا اذا كان الصيد قد منع منعا باتا على طول مجرى بحر يوسف حتى يمكن تركيز جمع الرسوم كلها فى مكان واحد •

الضرائب فى عصر الرومان

وكانت الغاية الأولى من جمع الضرائب أيام الرومان الحصول على أكبر قدر منها لصالح الامبراطور الرومانى الذى كان يقيم بعيدا عن مصر • وقد أدت تلك الوسيلة البشعة فى مدى قرنين من الزمان الى افقار البلاد وقيام ثورات منها ثورة بوكوليا (١) Bucolic War وقد استمر هذا الضعف على موارد مصر حتى لنجد أن أحط أنواع العملة المتداولة قد أختفت من الأسواق ورجعت البلاد القهقرى الى طريقة المقايضة البدائية • فلا عجب اذن وقد انحدرت حاله البلاد الى هذا الحضيض أن يرحب المصريون بقدوم الفاتحين العرب بغيه التحرر من قسوة محصلى الضرائب من البيزنطيين • وكان الامبراطور الرومانى الغريب عن البلاد هو الذى يقرر عاما بعد آخر جملة ما ينبغى تحصيله من أهل مصر من الضرائب • وكانت أوامر الامبراطور تبلغ الى حاكم مصر فيبلغها فورا الى حكام الأقاليم الثلاثة وهؤلاء يبلغونها بدورهم الى حكام المقاطعات الذين يجبون الضرائب المطلوبة من القرى •

وكانت أهم أنواع الضرائب ضريبة الحنطه التى لابد من ارسالها الى روما • وكان على أهل كل قرية أن يقوموا متضامنين

(١) قام بها الفلاحون ورعاة البقر الذين كانوا يستوطنون المستنقعات الواقعه شرق الاسكندرية المعروفة بمنطقة بوكوليا • وذلك عام ١٧٢ م فى عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس •

بنقلهـا من القرية الى مركز التسليم بالاسكندرية • وكانت الأراضى التى لاتزرع حبوبا تؤدى ضريبـة نقدية عن انتاجهـا من الكروم والتين والبلح والزيتون وغير ذلك مما قد تنتجه الأراضى • وكانت السلطات المحلية نفسها تتولى عدا ذلك تحصيل العوائد على المنـازل وغيرها من المنشآت • وقد تعرضت مصر عدا ذلك لمزيد من الضغط والعنف من جانب روما ، فقد كان هنـاك موظف كبير من قبـل الامبراطور يسـمى « نائب الامبراطـورIdiologas همه الأكبر أن يرعى مصـالح الامبراطور وأن يطمئن على أن الجهاز الادارى يسير فى البلاد دون أن يعتريه ضعف أو خلل • فقد يكون لدى الحاكم العام من كثرة الأعمال وتنوعها وما قد يتراءى له من مقتضيات الأمن والنظام أو حالة البـلاد العامة ما يحمله على التسـاهل فى تحصيل الضرائب المفروضة • فاذا حدث شىء من هذا من جانبه فهناك نائب الامبراطور الذى كان لتعيينه من قبـل الامبراطور مباشرة صـفة الاسـتقلال عن الادارة فى مصر • وقد كان النـائب يكرس وقتـه وجهده فى أمر واحد هو الحصول على المال ولاشىء غير المال ، ودن مراعاة لأية اعتبارات أخرى • وأخيرا نجد أنه عملا بقانون الاصلاح الذى أصدره (دقلديانوس) قد تقرر سحب مهمة تحصيل الضرائب من يد الحاكم العـام وعهد بهـا الى نائب الامبراطور الذى أصـبح مستقلا تمام الاستقلال عن الادارة المدنية فى البـلاد • وكان نائب الامبراطور هو الذى يشرف على ادارة الأراضى المملوكة للحكومة

أو لشخص الامبراطور أو المرهونة لقاء ديون مستحقة للدولة • وكذلك على الأراضى التى ليس لها ملاك معروفون • وكان يساعده فى عمله موظف آخر يسمى « الديوكيتس » (٢) (Dioketes) ويعمل تحت امرته نفر من الموظفين يحمل كل منهم لقب وكيل • (Epipelropes) وكان من الممكن التصرف فى الأراضى التى ليس ملاك بالبيع فى أى وقت من الأوقات كما بيعت أراضى الدائرة السنية أيام أسرة محمد على •

وكانت المحاجر والمناجم فى البلاد تعتبر من أملاك الامبراطور الخاصة • وتتولى الحكومة ادارتها وتسخر فى العمل بها المساجين تحت حراسة مشددة كما يحدث الآن فى محاجر « البازلت » فى أبى زعبل شمال القاهرة • وقد أدخل تعديل خاص على اعفاء ممتلكات المعابد من الضرائب • ويحتمل أن تكون الحكومة قد كشفت عن تهرب بعض ملاك الأراضى من الضرائب بالتواطوء مع الكهنة • ولذلك قامت الادارة بفرض الضرائب على أراضى المعابد أسوة بغيرها من الممتلكات على أن تقدم الحكومة فى مقابل ذلك بعض المنح للصرف منها على شئون المعابد • وكان من أثر هذا

---

(٢) كان الديوكيتس فى عصر البطالمة هو وزير المالية . وكان يتمتع بسلطات واسعة لأنه كان المشرف الأول بالنيابة عن الملك على الشئون المالية فى الدولة. ولكن هذا اللقب تطور فى العصر الرومانى فأصبحت وظيفة الديوكيتس أقل فى المرتبة من وظيفة الحاكم الرومانى لمصر ومعادلة لوظيفة نائب الامبراطور . وصار من مهامه الاشراف على الاشغال العامة .

الاجراء اخضـاع الكهنه لنفوذ الحكومه التي هي مصدر ما يتمتعون به من منح والتي كان يعنيها الابقـاء عليهم واكتســـاب وفائهـم وتعضيدهم لها •

وقد فرضت ضرائب على حركة المرور في النيل تؤديها السفن المتجهة نحو الجنوب عند ثغر « شـيديا » (١) (Schedia) والآتية من الجنوب عند « هرموبولس » (٢) (Hermopolis) وكانت تلك الضرائب شبيهة بالرسوم النهرية التي كان خديوى مصر يفرضها عند مرور السفن بكبارى السكك الحديدية وكان الغرض منها تحويل حركة التجارة الى السكك الحديدية •

وكانت المكوس تفرض على السـلع الواردة عن طريق البحر الأحمر ويتم تحصيلهـا في مدينـة قفط بطريق الالتزام • وكانت

---

(١) شيديا أو سخديا : ثغر نهرى قديم مكانه الآن قرية النشو البحرى الواقعة شمال كفر الدوار . وكانت تقع عند ملتقى ترعة شيديا القديمة التى حفرها البطالمة لامداد مدينة الاسكندرية بالماء العذب بفرع النيل الكانوبى الذى جف الآن . هذا ويكـاد يتفق مجرى هذه الترعة مع مجرى ترعة المحمودية الحالية فى جزئها الغربى . كما كانت ترعة شيديا تصب فى الميناء الغربيه مكان مصب المحمودية الحالى .

(٢) هرموبوليس : الاسم الاغريقى لقرية الاشـــمونين الحالية الواقعـــة شمال غرب ملوى . وكانت فى العصر الاغريقى مدينة زاهرة تمتد حدودها حول مساحة كبيرة من الأرض تصل الى النيل . أما اليوم فهى قرية صغيرة تبعد عن النيل • ومعنى اسمها مدينة هرمز وهو اله العلم عند الاغريق الذى يعادل الاله تحوت المصرى معبود هذه المدينة • هذا وكلمة الأشمونين أصلها من الكلمة القبطية «شمون» ومعناها (ثمانية) لأن الاله تحوت كان يعبد مع ثمانية آلهـــة فى هذه المدينة .

فئاتهـا تعلن للجمهور منعا من ابتزاز أمـوال الناس • وفى البحر الأحمر كانت ضرائب الرءوس تجبى على البحارة وعلى النساء أيضاً ويبلغ قيمتها عدة شلنات • أما ضرائب النقل فكانت بسيطة • وكانت ضريبـــة الرءوس تفرض على المصريين بين سن الرابعـة عشرة والستين • ويستثنى منها بعض الطبقات التى تتمتع بأمتيازات خاصه كالرومان والاسكندريون وسلالة الضباط الاغريق ممن أستوطنوا مصر وبعض كهنـة المعـابد • ومن حين لآخر كان هناك الى جانب ضريبـة الرءوس نوع آخـر من الضرائب سمى « تبرعات خيرية » أو « ضريبة التاج » وكانت فى الأصل مساهمه مالية من جانب سكان البـلاد لشراء اكليل من الذهب يقدم للحاكم الرومانى عند ما ينقلد منصـبه الجديد فى مصر • ولـكن هذا النوع من التبرع الاختيارى اتخذ بمرور الزمن شـكل ضريبة تشبه ضريبة « بشـائر الفاكهة » النى كانت تفرض على زوار الكنـــائس • وكانت الحـرف المختلفه تخضع لضريبـة الدخل وتقدر على أساس المتحصلات الشهرية • واذن فقد كانت فى الواقع ضريبـة مهنية بصرف النظر عن الأرباح الناتجـة ولعـل هذا الاجراء الشـاذ قد شجع القوم على أتباع نظام المقايضة فى معاملاتهم اذ لم تكن تلك الطريقة فى المبادلات خاضعة لأية ضريبـة بل انهـا فى الواقع حلت محل العملة التى تدهورت قيمتها وقتئذ •

وكانت هنـــاك ضرائب على بيع الأمـلاك بنسبة ١/١٠ من قيمة

العقار • وعلى التركات بنسبة ١/٢٠ من قيمة التركة • ومثلها عند عتق الأرقاء • ورسم طفيف قدره ١/٦٠٠٠ على تسـجيل الوثائق الرسـمية وكانت الغرامات التى توقع فى حالة الاخلال بالعقود المبرمة لاتدفع الى الجانب الذى وقع عليه الضرر وانمـا تورد الى خزينة الدولة • ولاشك أن هذا الاجراء كثيرا ما شـجع طرفى النزاع على حسـم الخلافات والوصول الى اتفاق قبل الالتجاء الى المحاكم •

ولقد أدت صـعوبة تحصيل تلك الضرائب المتنوعة الى أتباع نظـام الالتزام بما فيه من مسـاوىء ومنهـا اسـتغلال الأهالى فى الارشاد عن المتهربين من دفع الضرائب • وكان الالتزام معمولا به فى عصر البطالمة • ورغم أن هذا النظام كان فى صـالح الحكومة الا أنه ادى الى ارتكاب مساوىء مروعة فقد كانت الأطماع والمصالح الشخصية للملتزم الذى كان يستند الى مساعدة السلطات الرسميه تدفعه الى استعمال منتهى الضغط والعنف مع الأهلين لجمع الضرائب•

الفصل الثالث

الحسنات والسيئات

الحسنات والسيئات

ان النصوص التى كان حقا على موتى المصريين القدماء تلاوتها يوم الحساب ، منكرين فيها ارتكابهم لبعض الخطيئات ، ومتبرئين من اقترافهم لبعض السيئات ، لخير بيان عن اعتقادهم فيما كان ينبغى أن يكون سلوك الناس وأخلاقهم • وقد تضمنها الفصل الخامس والعشرون بعد المائه من الكتاب المسمى كتاب الموتى (١) • وقد سميت خطأ الاعتراف الانكارى •

(١) كتاب الموتى هو مجموعة لفائف من أوراق البردى تحوى نصوصا وتعاويذ وأدعية وصلوات ، كان الغرض منها طرد الأرواح الشريرة من مقبرة المتوفى ، وتسهيل الطريق له الى العالم الآخر . وقد سمى كذلك للعثور على نصوصه فى مقابر الموتى منذ عهد الدولة الحديثة . والفصل الخامس والعشرون بعد المائة من هذا الكتاب يوضح طريقة محاكمة المتوفى على ما قدمت يداه فى الحياة الدنيا من خير أو شر ، أمام محكمة العدل الالهية ، التى يرأسها الاله أوزيرس أمام الموتى ، وتتكون هذه المحكمة من ٤٢ قاضيا ، وللمتوفى ان ينكر اقترافه أية خطيئة أمامها ، فتكلف أحد أعضائها أن يزن قلبه =

ولقد تعرض فصل « انكار الخطايا » أو اعلان البراءه لكثير من التغيير والتبديل على يد الناشرين والمؤلفين ، فكاتب يعيد ترتيب فصوله ، طبقا لآرائه الخاصة ، ويحذف ما يستعصى عليه فهمه فيها ، وآخر يلتزم ترتيبها الأصلى ، ولكنه يحذف مالا يحلو له .

واليك النص كاملا من غير حذف أو تغير .

وهى مقسمة مجموعات ، عدد فقرات كل مجموعة منها خمس . وقد يكون علة هذا التنظيم تيسير حفظها بالاستعانة بالعد على أصابع اليد الخمسة (١) .

السلوك العام

١ ـ لم الحق ضررا ما بأى انسان .

٢ ـ ولم أعمل على اشقاء حيوان .

٣ ـ ولم استبدل السيئة بالحسنة .

٤ ـ ولم أعرف الشر ، ولم أعمله .

٥ ـ ولم أقدم مصلحتى الخاصة على واجبى .

= بميزان (١) للتأكد من صدقه ، فاذا كان صادقا دخل جنة أوزيرس يستمتع بما فيها مما تشتهيه النفس الى الأبد ، أما اذا ثبت كذبه ، فأنه يلقى به الى حيوان مفترس ، يؤتى به لهذا الغرض ، فيلتهمه ، أو يلقى به فى النار .

(١) كان يوزن قلب المتوفى بوضعه فى كفة الميزان ، ويوضع فى الكفة الأخرى ريشة ، فاذا خفت كفة قلبه كان صادقا ، أما اذا ثقلت فيكون من الكاذبين .

العمل الصالح

٦ ـ لم يشكنى أحد لرب الأسرة •
٧ ـ لم ألعن الآلهة •
٨ ـ لم أسع الى اشقاء انسان ، أو أتسبب فى فقر أحد •
٩ ـ لم ارتكب ما يغضب الاله •
١٠ ـ لم أحرض خادماً على عصيان سيده •

انكار اقتراف السيئة وارتكاب الظلم

١١ ـ لم أتسبب فى مرض أحد •
١٢ ـ ولم أتسبب فى بكاء أحد •
١٣ ـ ولم أقتل •
١٤ ـ ولم أحرض على قتل أحد •
١٥ ـ ولم أتسبب فى حرمان انسان من حق له •

الواجبات الدينية

١٦ ـ لم انقص من قرابين المعابد •
١٧ ـ ولم أسرق الفطائر المقدسة التى تقدم للآلهة •
١٨ ـ ولم أسلب خبز الموتى الأمجاد •
١٩ ـ ولم ارتكب الفاحشة فى حرم الآلهة •
٢٠ ـ ولم أدنس نفسى فى حرم الاله •

٢١ ـ لم انقص كيل الحنطة •

٢٢ ـ ولم انقص المقياس (راحة اليد) (١) •

٢٣ ـ ولم ارتكب الغش فى الحقول •

٢٤ ـ ولم أطفف فى الميزان •

٢٥ ـ ولم أتسبب فى فقر أحد بالتلاعب فى الميزان •

احترام حقوق الآخرين

٢٦ ـ لم اختطف اللبن من فم الرضيع •

٢٧ ـ ولم أطرد الماشية من مراعيها •

٢٨ ـ ولم أقتنص الطيور من رحاب الآلهة •

٢٩ ـ ولم أصد السمك من بحيراتهم •

انكار أعمال التخريب

٣٠ ـ لم أصد الماء فى موسم جريانه ، ولم أقم سدا فى مجراه •

٣١ ـ ولم أطفى شعلة فى وقت الحاجة اليها •

٣٢ ـ ولم أخالف الحدود بتناول اللحوم فى غير الأيام المخصصة لتناولها •

---

(١) راحة اليد : مقياس كان مستعملا فى مصر القديمة ، يبلغ سبع ذراع أى حوالى سبعة ونصف سم •

٣٣ – ولم أطارد الماشية وغيرها من الحيوانات المقدسه •

٣٤ – ولم اعترض على ارادة الله •

وان من يفحص عن هده الوحدات أو الفقرات يتضح له أن بعض المعانى قد تكررت أكثر من مرة ، وان نظام الخماسيات محافظ عليه عدا الفقرة الخامسة فى احترام حقوق الآخرين التى أغفلها المترجمون لعدم فهمهم اياها ، وأن الفقرتين رقم ١٩ ورقم ٢٠ تشير الى عادات لم تكن متبعة فى مصر القديمة ، ولكنها كانت متبعة فى معابد بلاد الشام (١) والتى ظلت متبعة حتى وقت قريب فى بيت المقدس •

---

(١) كانت بعض المعابد فى الشام ، وفى بلاد ما بين النهرين تذخر بأعداد كبيرة من النساء يطلق عليهن «عاهرات المعابد» ، وكن يعتبرن سرارى للآلهة أو لكهنتهم ، ولم تكن الفتيات أو أهلهن يجدن فى ذلك العمل الشائن عارا ، بل كن وكانوا يعدونه نوعا من الواجبات المقدسة ، وكان الأهل لذلك يحتفلون بالحاق بناتهم فى المعابد المقدسه ، ليقمن بذلك الواجب المقدس .. وكانت عاهرات المعابد كثيرات فى غربى آسيا ، فكن موجودات فى فريجيا وفينيقية وسوريا ، كما كن موجودات عند بنى اسرائيل . وقد جاء فى سفر عاموس من التوراة : أصحاح (٢) آيات ٦ و ٧ مايلى : هكذا قال الرب من أجل ذنوب اسرائيل الثالثة والرابعة لا أرجع عنهم لأنهم باعوا البار بالفضة ، والبائس لأجل نعلين ، الذين يشترون تراب الأرض على رءوس المساكين ، ويصدون سبيل البائسين . ويذهب رجل وأبوه الى صبية واحدة حتى يدنسوا اسم قدسى .

... وظلت الدعارة المقدسة متبعة فى بابل حتى ألغاها الامبراطور قسطنطين سنة ٣٢٥ ميلادية .

هذا ولم يعرف هذاالنظام فى مصر ، لأنه كان يعتبر رجسا (١) فى نظر المصريين القدماء .

ولقد كان القانون المصرى يعد انقاص كيل الحنطه ، كما فى الفقرة ٢١ أو مقياس الأقمشة كما فى الفقرة ٢٢ ، أو عدم الدقة فى تحديد الأراضى ، أو تقدير الضرائب ، كما فى الفقرة ٢٣ ، أو اخسار الميزان كما فى الفقرتين ٢٤ ، ٢٥ ، كان يعد كل أولئك غشا وتزويرا ؛ كما أن معنى الفقرة رقم ٢٨ غامض ، ولعل ورودها فى خماسية احترام الحقوق تشير الى أنها تعنى صيد الطير فى الأراضى المملوكة للآلهة ، التى كان الملوك يهبونها لمعابدهم .. أما الفقرة رقم ٣٠ ففيها تكرار لمعنى واحد ، لأن صد مياه النهر اعاقة له عن الجريان ، لايختلف معناه عن معنى اقامة سد فى مجراه لحجز المياه أمامه .

وان هذه الخماسيات السبع كانت بمثابة محظورات ـ بحكم الدين والقانون ـ يتجنبها المتقون الذين كانوا يحرصون على أن يلقوا أوزيريس رب يوم الحساب وصحيفتهم بيضاء من غير سوء !

ولقد كان لحكمائهم حكم ونصائح وأمثال ، لا تتصل بالحقوق المفروض مراعاتها ، كما هو الحال فى الخماسيات ، قدر اتصالها بآداب السلوك وسياسة الناس ، واماتة الضغينة والحقد فى قلوبهم ، وتوجيههم الى الطريقة المثلى لمعاملة بعضهم بعضا ، ولاترقى الى أن

---

(١) يقول هيرودوت : لقد كان المصريون أول من فرضوا على الرجال أن يغتسلوا بعد قربهم للنساء . وكان جميع الشعوب عدا المصريين واليونانيين يأتون الفاحشة ، ويدخلون المعابد دون أن يغتسلوا .

تكون أوامر ونواهى يلتزمها الناس كالخماسيات ، ولـكنها مبادىء سامية ، اذا احتذاها الناس رفرفت عليهم السعادة والهناء وخلو البال ومن أشهر حكمائهم ـ أن لم يكن أشهرهم جميعا ـ بتاح حتب(١)، الذى عاش فى عهد الأسرة الخامسة ، وان حكمه ونصائحه لتبين عن السلوك السوى من وجهة نظر المصريين فى زمانه واليك بعض نصائح بتاح حتب :

١ ـ لا تنغمس فى مظاهر الثراء الذى أنعم الله به عليك ..

٢ ـ اذا أردت أن تكون أعمالك محمودة فتجنب الشرور ، واحذر نزعات الجشع والطمع .

٣ ـ لا يغرك بغزارة علمك الغـرور ، وتحدث مع الجاهل والعالم على السواء ، فان العلم بحر لا ساحل له ، ولا يستطيع لذلك أحد أن يبلغ مداه ، وليس هناك أحد يحيط بكل شىء علما ، فيعرف كل ما ينفعه وما يضره .

---

(١) ان حكم بتاح حتب ونصائحه مكتوبة على ١٨ صفحة من ورق البردى، وتعرف باسم بردية برسى نسبة الى الاثرى Prisse الذى أذاعها سـنة ١٨٤٧ م . وقد كتب بتاح حتب هذه الحكم والنصائح وهو وزير الملك أسيسى أحد ملوك الاسرة الخامسة ، ولقد كتبها وله من العمر ١١٠ سنة لتكون هاديا ومرشدا لابنه الذى كان يعده لان يتولى وظيفته بعد وفاته ... ولقد كانت هذه الحكم والنصائح تدرس فى ذلك العهد وبعده فى المـدارس .. وكان التلاميـذ يكتبونها على قطع من الخزف أو على ألواح ملساء من الحجر ، وذلك لغـلاء الورق البردى آنذاك ..

وكان للصدق مكانة عظيمة عند قدماء المصريين ، ويتبين ذلك من كثرة عدد كهنة الالهة « معات » الهه الصدق (١) ، اذ كانوا أكثر عددا من كهنة الاله بتاح أقدم آلهة المصريين القدماء وأعظمهم (٢) وان هذا التمجيد لالهة الصدق .. لدل على مدى ما للصدق من أثر عميق فى نفوسهم .

ولقد كان المصريون القدماء يحرصون على نيل رضى الآلهة ، وادخال السرور عليهم باتباع السلوك القويم ، وتمسكهم بالأخلاق

(١) كانت معات الهه الصدق والعدل تمثل على هيئة امرأة على رأسها ريشه . وعند وزن قلب المتوفى أمام محكمة أوزيريس كانت هذه الريشة توضع فى احدى كفتى الميزان كمعيار للصدق ويوضع القلب فى الكفه الاخرى . فاذا تبين أن القلب أثقل من الريشه دل ذلك على صدق المتوفى ، فتبرئه المحكمة من الخطايا ، واذا حدث العكس كان ذلك دليلا على كذبه واقترافه للخطايا التى انكرها ، فتحكم بأنه مذنب وأمرت بذهابه الى النار .

(٢) بتاح من أعظم آلهه المصريين ، ومن أعلاهم مقاما ، ان لم يكن أعظمهم جميعا ، لانه أقدمهم ، فكان المصريون يلقبونه لذلك بالبادىء الذى انبعثت منه جرائيم الاشياء ، والذى قدر أرزاق الاحياء ، والخالق الذى خلق الانسان من طين .. وانه ناشر الأموات يوم القيامة ، ليحيوا الحياة الأخرى الأبدية .

... ويرى الأستاذ المؤرخ الكبير آرثر مى أن المصريين أول من اهتدوا الى اله ، وأول من اشترعوا شريعة تعرفهم اليه ، وأن معتقداتهم الدينية كانت الطلقة الاولى فى اتجاه العقيدة الصحيحة التى تأثر بها من جاءوا بعدهم من عظماء البشرية ، ولقد استطاع عقل أولئك المصريين أن يلهمهم بأن لهم حياة اخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، وأنهم محاسبون حسابا دقيقا ... عن أفعالهم فى حياتهم الأولى ، حينما تتجرد أرواحهم من هياكلها المادية لتخلد هناك فى برازخ الأبدية ، حيث تجزى أرواحهم بالخير خيرا ، وبالشر شرا . ترجمة حامد القصبى .

القويمة ، لأنهم كانوا يعتقدون بأن التمتع بالسعادة والهناءة بعد الموت يتوقف على أعمالهم فى الحياة الدنيا . ولقد أدت تلك العقيدة بدورها الى الاعتقاد بأنه لابد من تقدير أعمال الانسان قبل أن يتقرر استحقاقه لصحبة الآلهة ! ومن هنا نبتت فكرة محاسبة المرء على أعماله فى الحياة الدنيا أمام الاله أوزيريس ، فاذا ما مثل الميت أمامه ، خاطبه ومن يحفون حوله من آلهة صغار بقوله :

سلام عليكم يا أرباب العدل الجالسين حول أوزيريس ، والقادرين على غفران الخطايا والذنوب . أعيرونى آذانا صاغيه : لقد سعيت اليكم فامحوا جميع خطاياى (كتاب الموتى ١٧ ، ٨٤) .

ولم يكن دعاؤه هذا للتدليل على حسن سلوكه وعدم ارتكابه للمعاصى فحسب ، ولكنه كان فوق ذلك رجاء لتطهيره وتبرئته ... وهو اعتراف بأن المرء لاينبغى له أن يعتمد على أعماله الطيبة فقط ، بل هو فى حاجة الى عون الآلهة وغفرانهم .... ولقد كان المصرى يشعر شعورا قويا بقيمة متانة الخلق وضبط النفس فى معاملاته للناس ! وكان من تعاليم الآباء للأبناء ، والمعلمين للتلاميذ ، والحكماء لعامة الناس : أن ليس هناك مجال للانحراف أو التردد اذا ما حزم المرء أمره على انتهاج خطة معينة . وكان يرون أن العقل الثابت الرصين غير المتردد منحة سماوية وكان مما يفخرون به قولهم :

« لم أستسلم الى الهم والضنى والقلق الشديد ، ولست من ذوى الحدة أو التردد .

وكانت الحكمة والاتزان والهدوء من السجايا التى كانوا يرون أنه من الواجب أن يتصف بها الناس جميعا . ومن أقوالهم : اذا كان خصمك أحمق أخرق كثير الصخب ، فخير ما تفعله أن تلتزم الهدوء ، وتتغاضى عن سخافاته وتفاهاته ! واذا عاملت أكفاء وأندادا ، فتجنب الغش والخداع ، وتغاضى عن هفواتهم وذلات ألسنتهم (١) ، واحرص على صداقتهم والتودد اليهم ، وبش فى وجوههم حين تلقاهم (٢) ، واطرح البخل والتقتير ظهريا .

أما لمن هم أعلى مقاما فكانوا ينصحون بالاذعان لهم وطاعتهم ، وبألا ينسوا الزلفى لهم والتقرب اليهم بشتى الطرق ، والتوسل اليهم بأتباعهم .

أما من هم أقل منزلة ، فكان يرى معاملتهم بالعدل والاحسان، من غير مس يقتل الحسنات ، أو تذكير بما قدم لهم من عوارف أو نعم . وكان التكبر عليهم ونهب أموالهم ، ونهرهم أو استعمال العنف معهم من الأمور المذمومة .

ومن نصائحهم :

لا تكن ثرثارا ، فان الناس يصمون آذانهم عن الاصغاء لكثير

---

(١) فى الأصل نهى عن ظلمهم ، وعن عدم السماح بتعذيب أحد .. وهما أمران لا يستقيم معناهما فى معاملة الاكفاء .

(٢) فى الأصل يزعم المؤلف ان المصريين كانوا يرون ان الصداقة فيها منافع جمه ولذلك كانوا يحرصون عليها لمنفعتها لهم ، لا لأنها فضيلة . ولأجل هذا كان ينقصها الاخلاص .

الكلام •••• والتزم الصمت يرض عنك الناس ، ويحمدوك !
واذا ما تكلمت فتخير ألفاظك ، لأن هلاك المرء قد يكون فى عثرة
من لسانه •

وعلى الرغم من أن المصريين القدماء كانوا يحضون على
المثابرة على العمل والجد فيه ، فان مطالب الحياة ورغبات النفس لم
تكن عندهم موضع كبت وحرمان • ومن أقوالهم المأثورة فى
ذلك :

ان من يعمل النهار كله ، لا ينعم بلحظة ممتعة واحدة ،
كذلك الذى يقضى يومه كله فى اللهو واللعب ، فانه لا يجد قوت
يومه ! وان الرامى الماهر لا يصيب هدفه الا بشده القوس واطلاقه ،
كما يفعل ربان السفينة بالسكان ليصل الى المكان الذى يريده •
وان من يطيع قلبه يعلو ويسود ، فاستمع الى نداء قلبك ، ولا تعصى
له أمرا ، فان من الموبقات عند النفس « الكا » أن يغفل ما تومى
به ! ولا ينبغى أن تسترسل فى العمل بعد حصولك على ما هو
ضرورى لسد حاجات بيتك • وعندما تحصل على ذلك فاتبع نداء
القلب ، لأنك اذا كنت متعبا منهوك القوى ، عز عليك أن تستمتع
بما حصلت عليه الاستمتاع كله ، لأن الثروة التى يجمعها الانسان
بجده واجتهاده ، ليست الا وسيلة لاسعاد النفس وهنائها ، وليس

على المرء بعد ذلك الا اكرام الناس ، وحسن ضيافة الطارق الغريب، والمحروم منهم بخاصة .

ومما يسترعى النظر أنه لم يرد فى النصوص الانكارية حقوق أفراد الأسرة وواجب المنكر نحوهم ؛ وان الاشارة الوحيدة فيها عن الزواج هى أنه لا ينبغى أن يخالف فيه أوامر الدين ونواهيه ! أما فى العصور الأخيرة فقد كانت الجرائم الجنسية مستنكرة فى قائمة الخطايا . ويبدو أنه لم يكن لأفراد الأسرة الواحدة من الحقوق والواجبات قبل بعضهم بعضا غير ما كان لهم منها نحو أفراد الأسر الأخرى . وليست هناك أية اشارة فى أى عصر من العصور الى الفروض الواجبة نحو الاخوة والأخوات وأبناء الأعمام والأخوال وبناتهم ، وأن وشائج القربى والروابط العائلية لم تكن أبدا فيما يبدو قوية كما كانت فى الأقطار الشمالية (١) . ومع ذلك فقد كانت العلاقة بين الآباء والأبناء قوية جدا والحقوق والواجبات بينهم مراعاة ...

ويبدو أن النصوص الانكارية أقدم عهدا من دستور الزواج، اذ ليس فيها الا اشارة واحدة الى الرباط الزوجى الدائم الذى ساد المجتمع المصرى فيما بعد ألا وهو عدم اشتراط الحصول على تصريح دينى لاتمامه ، ذلك التقليد الذى كان متبعا فى معظم الأقطار

---

(١) يقصد بالاقطار الشمالية الأقطار الأوربية .

الاسيوية • أما فى مصر منذ العصور الأولى حتى عهد الأسرة التاسعة عشرة ، فقد كان الزوج ينظر اليه كأنه نزيل مقيم فى منزل سيدة (١) •

ولا أدل على ذلك من أقوالهم المأثورة التى نحتزى منها ما يأتى :

لا تكن فظا غليظ القلب لسيدة فى منزلها ، ولا تشر الى شىء ثم تقول لها : ما هذا ؟ ائتنى به ، عندما تكون قد وضعته فى مكانه ، وأنت تراه بعينى رأسك فيه ••• انك عندما تلتزم الصمت تكشف عن سجاياها ، وان من تمام سعادتك أن تعاون يداك يديها •

وتتمثل قوة الرابطة الزوجية فى تلك القصة القديمه للتمساح السحرى (٢) ، فقد حكم على الزوجة الخائنة التى أهدرت

---

(١) قد يبدو هذا غريبا لنا ولكنه يعتبر شيئا منطقيا فى مجتمع قائم على نظام الأمومة ، فقد كان المصريون القدماء ينتسبون الى أمهاتهم ، وكانت البنت الوارثة المفضلة لأملاك والديها ، فكانت ترث المنزل والأثاث والأراضى الزراعية وما عليها ، ولهذا السبب كان الاخوة يتزوجون بأخواتهم حتى يحصروا الميراث فى الأسرة ، ولهذا السبب كان الزوج يعتبر ضيفا دائما فى منزول الزوجة •

(٢) مجمل القصة أن زوجة لأحد رؤساء المرتلين لأحد فراعنة الدولة القديمة أحبت أحد الفتيان فأرسلت اليه خادمتها بهدية فاخرة وتدعوه ليقابلها فى حديقة بيتها ، فلبى دعوتها ، وكان يوافيها فى الحديقة ، ويظلان يمرحان حتى المغيب ، وكان الفتى يسبح فى البحيرة التى فى الحديقة ، فرآه حارسها فأخبر سيده بما يجرى ، ولما علم الزوج بذلك ، وكان ساحرا ماهرا ، صنع من الشمع ما على هيئة تمساح ، وأعطاه للحارس الامين ، وقال له : خذ هذا معك الى الحديقة وحين ترى الفتى يسبح فى البحيرة ، ألق التمساح

كرامتها مع أجنبى فى الحديقة بالموت حرقا من غير أن يكون فى ذلك العهد الوالغ فى القدم نص على ذلك العقاب فى قانون منبع آنذاك ، على الرغم من أن الموت حرقا كان عقابا للخيانة الزوجية فيما تلاه من عهود •

ويستخلص من الأقوال المأثورة فى عهد الأسرة الخامسة أن العرف كان يجيز أن يتصل رب الأسرة اتصالا غير شرعى بأيه امرأة من نساء الأسرة ، من غير أن يسىء ذلك الى سمعتها ، ولا يحط من قدرها بين الناس •

على الرغم من أن النص الكهنوتى لقائمة التبرء من الخطايا

ى الماء ومره بأن يعبض عليه ويمكت به فى قاع البحيرة . وفعل الحارس ما أمر به . وانقلب التمساح الصغير من الشمع تمساحا ضخما قويا عض على فخذ الفتى بنواجذه وجره الى قاع البحيرة .

ودهب الزوج الى فرعون وقال له : هل أدلك على عجيبه من أعاجيب أيامك السعيدة !

قال الملك : نعم

فسار الزوج يتبعه الملك فى ركب حافل بأتباعه حتى وصلوا الى البحيرة، ونادى الزوج على التمساح فخرج وبين فكيه الفتى فأمره أن يتركه ، فما كاد يتركه حتى حال التمساح الهائل لعبة صغيرة على هيئة تمساح من الشمع ووقف الفتى كاسف البال مطرقا من الخجل .

وسأل الملك الزوج عن خطب الفتى ، فقص عليه قصته مع زوجته !

فقضى الملك على الفتى بأن يلتقمه التمساح ، فألقى فى الماء والقى وراءه التمساح ، وكان ذلك آخر عهده بالدنيا ، وقضى على الزوجة الخائنة بأن تحرق حية ، فحرقت جزاء وفاقا لخيانتها زوجها .

الذى يرجع تدوينه الى العصور الأخيرة فيه ذكر لقانون الزواج ، وتأكيد لحقوق الزوج على زوجتـه ؛ على الرغم من ذلك فقد كانت الذرية تنسب الى الأم ، كما سـبق أن ذكرنا ، وكان للخـال منزلة هامـة فى الأسرة تفوق منزلة العم • كمـا كانت جميع العقارات الثابتة ملكا للزوجة ! وكان الزوج اذا ورث منزلاً مثلا من أخ له أو اشتراه من ماله الخاص ، يسجله فور ايلولته اليه باسم زوجته ، على أن يؤول الى أولادها فى الوقت الذى تراه •

على أن النظام الأبوى أى النظام الذى يكون بمقتضـاه الأب رب البيت ، والمهيمن على شـئونه والمالك للثروة ، واليه ترجع أموره ، واليه ينسب البنين والبنـات ! ان ذلك النظام أخذ يظهـر وينتشر ويخضع له الناس ويتبعونه فى عهد الدولة الحديثة ، وفى عهد الأسرة التاسعة بخاصة ، نتيجة للتأثيرات السامية ! ولكن تملك المرأة لمعظم ثروة الأسرة استمر متبعاً الى ما بعد ذلك العصر بزمن طويل ، ولايزال باقيا فى بعض جهات مصر حتى وقتنا هذا ! ففى صحراء سينا لاتزال المرأة هنـاك تملك الخيمة (١) وقطعان الغنم ، وتعلق ثروة الأسرة النقدية فى برقعها !

ولقد كانت الهيئة الحاكمة فى مصر القديمة تشعر شعورا قويا بضرورة حماية المحكومين ورعايتهم والسهر على مصالحهم ومعاملتهم

---

(١) يذكر المؤلف أن الرجال من بدو سيناء ينامون تحت ظلال الصخور ، ولا ينامون فى الخيام أبدا .

بالعدل والاحسان • وكان الوازع لهم فى ذلك متانة أخلاقهم •

وكثيرا ماكان الحكام يدونون فى مقابرهم ما كانوا يقومون به من أعمال البر والاحسان الى رعاياهم ، راجين من الآلهة تقديرها ، ومثوبتهم عليها •

ومن أمثال ذلك قول أحدهم •

لقد أعطيت الخبز للجائع ، والكساء للعارى ، وأفسحت مكانا فى زورقى لأولئك الذين لا يستطيعون العبور لأمر من الأمور • ولقد كنت أبا لكل يتيم ، وزوجاً لكل أرملة ، وحمى من الريح الصرصر للمقرورين ، وجار اللاجئين ، وأماناً للخائفين •• وكنت أتكلم بالخير ، •• ولقد جمعت مالى بالطرق المشروعة العادلة •

ومن أقوال آخر :

عندما ظل النيل منخفضاً خمسة وعشرين عاماً ، ولم تكن مياهه تفى برى أراضى الأقليم الذى كنت أحكمه ، استوردت لأهله الحنطة من الجنوب فى أثناء تلك السنين العجاف ، فلم يحل لذلك بربوعه جوع ولا بؤس ولا شقاء حتى جاءت السنون الخضر فى اثر فيضانات النيل الغامرة •• ولقد كنت أطعم الأطفال بيدى ، وأواسى الأرامل ، ولم أترك فى عهدى فقيرا بائساً محروماً • ولقد

عملت جاهدا على كسب محبة الناس بالحق ، ليعلو بينهم ذكرى ، وينوهون بشأنى ، وأجازى على أعمالى الخيرة فى الآخرة ..

وهذا يدل على أن الوازع الدينى لارضاء الآلهة كان السبب المعترف به .. للقيام بعمل الخير .

ولقد كان الشعور بالعدالة بين الناس قويا عند المصريين القدماء ، وان كلمة « معات » (١) لم يكن معناها العدالة المعنوية فحسب ، ولكن كانت تدل على العدالة العملية . ولم يكن يكتفى .. بمعرفة الحق واتباعه ، ولكن كان ينتظر ممن يعنيهم الأمر اظهار المودة والعطف على من يستحقونهما .

ومن أقوالهم فى ذلك :

اذا كنت قاضيا فرحب بالاستماع الى من يتقدم اليك بظلامة ، وشجعه على أن يفضى اليك بما عنده ، ودعه يفصح لك عما فى قلبه ، وان بشك فى وجهه واظهار العطف عليه يحملانه على قول الصدق والاعتراف بالحق ولو كان فى غير مصلحته ! .. وان من سمو الأخلاق وحسن التربية الأصغاء له فى حلم وسماحة وعطف .

---

(١) كانت العلامة الدالة على هذه الكلمة «معات» معناها الصدق ، كما سبق أن ذكرنا ، وكانت توضع فى مكان بارز فى دور القضاء ، ودور الحكم ، وفى المنازل وفى المقابر ! وهذا دليل قاطع على تمسك المصريين القدماء بالصدق والعدل .

ولم يكن ثمة أدعى لحسن نية المصريين القدماء فى كل العصور ، وطاعتهم لأولى الأمر منهم ، والعمل بنصائح حكمائهم من الحكم بينهم بالعدل والقسطاس ، واعطاء كل ذى حق حقه .

ولقد كان من نصائح ملوك الأسرة الثامنة عشره لوزرائهم حين ما كانوا يتولون مهام مناصبهم التزام العدل المطلق بين الناس جميعاً ! لا فرق بين غنى وفقير ومالك ومملوك ! وألا يمالئوا الأغنياء ، لأن الناس اذا ما اختصموا سواسة وان الميل الى أحد المتخاصمين رجس عند الآلهة .

ولقد كان التفانى فى التمسك بالصدق شعار اخناتون العاهل المثالى (١) ، الذى أضاف الى القابه ، الجملة الآتية « الذى يحيا فى الصدق وللصدق » .

---

(١) اخناتون هو أحد ملوك الأسرة الثامنة عشره ، حكم مصر وهى فى قمه عزها وأوج مجدها وقد ورث ملكا عريضا مؤثلا ، ولكنه انصرف عنه الى التفكير فى الكون وموجده ، فاهتدى الى أن هناك الها واحدا يسيطر على هذا الكون ، وأنه خالق كل شىء ! وتتمثل قوته أكثر ما تتمثل فى الشمس أقوى الكائنات فى اعتقاده ، لذلك اتخذ قرصها رمزا لالهه الواحد القهار وسماه «آتون» . وألغى عبادة جميع الارباب والآلهة التى كان يعبدها المصريون القدماء وغيرهم من الأمم الأخرى ، وعلى رأسهم الاله آمون رع أقوى تلك المعبودات ، وبذلك أثار سخط أقوى طوائف الشعب المصرى ، الا وهى طائفة الكهنة ، وأخذوا يكيدون له ، فلما ضاق بهم ذرعا شيد عاصمة جديدة له فى مكان قرية تل العمارنة الحالية ، وانتقل اليها هو ووزراؤه ومحبوه والمتحمسون لدينه الجديد ، تاركا طيبة عاصمة الامبراطورية ومقر عبادة آمون رع ! وسما عاصمته الحديدة أخيت آتون أى أفق آتون . وكان دين اخناتون يتمثل فى حقيقتين .

ولقد ظل شعار المحاكم المصرية التمسك بالعدل المطلق بين الناس حتى آخر عصر البطالمة • وفى ذلك يقول المؤرخ المعروف ديودورس الصقلى :

لقد كان البطالمة يولون المحاكم اهتماماً خاصا ، ويعنون بها عناية فائقة لاعتقادهم أن اللوائح والأحكام التى تصدرها ذات أثر فعال فى أخلاق الأفراد وسلوك الجماعات ، وذات أهمية بالغة للصالح العام •

ولقد كانوا يعتقدون أن خير وسيلة لتقويم الناس توقيع العقاب فى الوقت المناسب على المسيئين والمذنبين ، ورفع الحيف والظلم عمن وقع عليهم أحدهما أو كلاهما •• الى أن يقول :

---

(١) الوحدانية

(٢) الحقيقة

ولقد بلغ من تمسكه بدينه الجديد وايمانه به ، والتعصب له أنه محا اسماء آلهة المصريين جميعهم وآمون بخاصة ، والمنقوشة على آثار الملوك الذين جاءوا قبله ، من معابد وقصور ! وكان يمحو كلمة آلهة من النصوص لأنه — فى اعتقاده وملته — لا يوجد الا اله واحد •

وبعد وفاة أخناتون عاد خليفته وزوج ابنته توت عنخ آتون الى طيبة تحت ضغط كهنة آمون ، وألغى عبادة آتون ، واستبدل اسم توت عنخ آمون باسم توت عنخ آتون •

وقد تعقب كهنة آمون اتباع دين اخناتون ، وقضوا عليهم ، فهجرت تل العمارنة أو أخيت آتون ، وعفا عليها الزمن •

وهكذا انتهت تلك الفترة القصيرة اللامعة فى تاريخ مصر ، وضاعت فى غمار التعصب والرجعية أرقى مرحلة فى التفكير الدينى وأسماها الا وهى الوحدانية

ان البطالمة كانوا يرون بنافذ بصيرتهم أنه اذا قدر للأحكام التي يصدرها القضاة على المخالفين للقانون أن ترفع بالرشوة ، أو بالحظوة أو المودة فلن يكون هناك سوى الفوضى والاضطراب في المعاملات وفي النظم البشرية كافة .

ولا يوجد بين أيدينا لسوء الحظ الا نصوص قوانين كانت مطبقة في مصر القديمة في عهود تاريخها الطويل المتأخرة .

ويشير كلمنت (١) الى ثمانية كتب للقانون لم يعد لها وجود الآن .

ويتبين من منظر لاحدى محاكم العدل في الأسرة الثامنة عشرة وجود أربع اخونه وضع على كل منها عشرة ملفات (٢) . ويبدو من ذلك أن القانون كان قد نسق ورتب أحسن ترتيب من قبل .

وتنسب القوانين الخاصة بالملكية الى الفرعون يوكوريس (٣).

---

(١) كلمنت مؤرخ اسكندري عاش في اواخر القرن الثاني الميلادي

(٢) قراطيس من البردي .

(٣) يوكوريس هو الاسم اليوناني للفرعون «باك – ان – رن – اف» الذي حكم حوالي سنة ٧٢٠ ق . م . وهو أحد ملوك الأسرة الرابعة والعشرين . وقد ذاعت شهرته بسبب القوانين التي سنها ، وفي أثناء حكمه غزا الاثيوبيون مصر واستولوا على الوجه القبلي ، وقد تصدى لهم يوكوريس ولكنهم هزموه ، وقبضوا عليه وحكموا عليه بالموت حرقا ، وبوفاته سقطت مصر كلها في أيدي الاثيوبيين .

ومما جاء فيهما أن الدائن الذى لا يستطيع أن يبرز سنداً مكتوباً تسقط كافة حقوقه فى المطالبة بدينه ، وأن التسلف بفائدة بعقد مبرم بين الدائن والمدين لاينبغى أن تربو فيه الفائدة على جملة المبلغ المقترض ، مهما طالت مدته .

وأنه يجوز للدائن أن يستصدر حكماً بالحجز على المدين وفاء لدينه ، ولكن لايجوز بحال حبس المدين لعدم سداد ما عليه من دين . ولكن كانت عقوبة التأخير فى سداد الدين فى موعده شديدة ، فقد كان منزل المدين يرهن ضماناً لقرض قدره ست أوقات من الفضة فاذا لم يرد القرض كاملاً بعد حلول الموعد المحدد بشهر على الأكثر كانت تفرض على المدين غرامة تساوى المبلغ كله أو المتبقى منه بعد سداد بعضه مرة ونصف المرة .

وفى عهد أخناتون كان يوجد قانون دولى للملكية ! وآية ذلك أن ملك ألاشيا (١) طالب مصر بأموال وممتلكات أحد رعاياه الذى جاء مصر ومات فيها ، لأسرته فى ألاشيا . وقد اصدر الملك أمازيس (٢) قانوناً يحتم على كل شخص أن يقدم اقراراً فى كل سنة مبيناً كسب عمله ووسائله . واذا لم يقم باعداد هذا الاقرار

(١) الاشيا هى جزيرة قبرص . وهى تسمية اشورية لها .

(٢) امازيس : الاسم اليونانى للفرعون احمس الثانى احد ملوك الاسرة السادسة والعشرين .

بأمانة عرض نفسه للحكم عليه بالاعدام • وكان ذلك القانون ينص على كافة التزامات الشخص ، ويفصلها بدقة •

وفى عهد الأسرة السادسة والعشرين وهى الأسرة التى ينتمى اليها الملك أمازيس كان الشخص اذا اثقلته الديون نتيجة لما انفقه فى أثناء مرضه أو فى غير ذلك من الأزمات التى يتعرض لها ، ـ كان عليه أن يبرم عقدا مع الدائن يصبح بمقتضاه هو وأولاده الموجودون آنذاك ، والذين سوف يولدون بعد ذلك ارقاء له يعملون تحت امرته حتى يوفون دينه ، على أنه لم يأت ذكر لزوجته •

وترجع أقدم وصية عرفت فى تاريخ مصر القديمه الى عهد الأسرة الثانية عشرة (١) • ومن الواضح أنها كانت موضوعة تبعاً لنظام مستقر موطد ، يفرض تسجيل كل وصية تسجيلا رسميا •

وسوف نبحث موضوع الوصايا بالتفصيل فى الفصل الخاص

---

(١) لم تعد وصية الاسرة الثانية عشرة هى أقدم وصية ، فقد عثر فى الحفائر الحديثة على عدة وصايا ترجع لعصور أقدم نبينها فيما يلى :

(أ) وصيتان ترجعان الى عهد الأسرة الرابعة : ففى الوصية الأولى يوصى الوزير نيكاورع بأملاكه الى افراد اسرته . وفى الثانية يوصى تنتى بمال قد آل اليه عن والدته الى زوجته واخيه .

(ب) وصيتان ترجعان الى عهد الأسرة الخامسة احداهما صادرة من نكمنخ وفيها يوصى بضيعاته الى زوجته واولاده . والثانية صادرة من «وب ـ ام ـ نفرت» الى ابنه «ايبى» وهذه الأخيرة ذات اهمية بالغة لدقة تسجيلها ووضوحها ، وقد كشفها العلامة الاستاذ سليم حسن فى الجيزة ونشرها فى كتابه :
Excavations of Giza, Vol. II, p. 190.

« بالحياة العائلية » ويلى ذلك فترة طويلة لم نعثر فيها على أية وصية حتى العصر الاغريقى ، وفيه نجد وصايا تركها بعض كبار المحاربين الاغريق فى عهد بطليموس الثالث : وكانت العادة المتبعه عند تحرير تلك الوصايا أن يعين الملك منفذا لها أو بمعنى آخر محكمة القضاء الملكية .. وكانت أوصاف الموصى تذكر بالتفصيل ؟ ففى احداها دون ما يأتى :

انه (أى الموصى) يتمتع بعقل سليم وفهم جيد ، وأنه يبلغ حوالى الثمانين من عمره ، وأنه قصير القامة ، له أنف أقنى وعينان براقتان ، وأنه أصلع الرأس ، وذو أذنين طويلتين ، كما كانت تذكر أوصاف أربعة ممن شهدوا تحرير الوصية واليك نص احدى الوصايا :

لقد أوصى (١) (فلان) بكل ما ملكت يداه الى « اكسيوزيا » ابنة « ديزولوس » وهى سيدة من اقليم تراقيا باليونان . وختم وصيته بقوله :

ولا أترك شيئاً لمخلوق آخر . ولم يذكر فى الوصيه عما اذا كانت زوجته أو قريبة له .

---

(١) توجد وصية أخرى من عهد الأسرة الثانية والعشرين . وفيها يوصى الكاهن الأكبر «يوريث» لابنه «خا ـ ان ـ وابت» . ولابن ابنه من بعده بخمسمائة وستة وخمسين أرورادا من الأراضى الزراعية وماعليها من ابقار وأنعام أخرى وآبار وأشجار .

وقد وصفت القوانين الخاصـــة بالأراضى الزراعية فى عصر مبكر • وقد دعا الى ذلك تلك التقـاليد التى كان يتمسـك بهـا المزارعون البدائيون لضرورتهـا لهم • فكان رئيس القبيلة (ولعله يقصـد شـيخ القريه) هو مالك الأرض • وكان عليه أن يمنح الأرض لمن يعمل فيهـا ، على أن تعـود الى حوزته فى حالة وفاة الشخص بدون ورثة ، ولا يوجد مايشـير الى اسـترجاع الأرض بطريق القهر أو الاجبار •

ويذكر متن (Meten) وكان موظفاً عظيم الشأن فى الأسرة الثالثة ـ ثمانية أنواع لملكية الأرض الزراعية ، حصل عليها بوسائل مختلفة نذكرها فيما يلى :

١ ـ هبة ملكية ـ وكان للملك الحق فى استردادها !

٢ ـ منحة من الأب الى ابنه •

٣ ـ التملك بمقتضى وثيقة رسمية ، ويبدو أن التملك فى هذه الحالة كان وراثيـــا وكانت الأرض قابلة للانتقـال من يد الى أخرى •

٤ ـ عطاء ملكى ، شأنها شأن رقم ١ •

٥ ـ تملك حق استغلال الأرض بشروط ملزمة •

٦ ـ منحة من الأم •

٧ ـ حجة وقف من الأم للأبناء •

٨ ـ منحة من الأب الى أبنائه •

وهذه كلها يمكن ارجاعها الى أربعه أنواع من التملك •

وكان من الضرورى كى يمتلك شخص أرضا بطريق الهبة أو الوراثة أو الشراء أن يتقدم لاثبات شخصيته فى مكتب تسجيل الأراضى ، ثم يدفع رسوم نقل الملكية اليه ، وهذا الأجراء هو الدليل القانونى للتملك ، وبغيره لاتثبت ملكيته للأرض • على أن هبة ابريز (١) الى بتاح (٢) جميع الأراضى الساحلية المطلة على النيل عند منف تثير التساؤل ، الذى كثيرا ما ردده الناس فى الأزمان الخالية عن المعنى المقصود من تلك الهبة ! اذ لا يعقل ، كما هو المعروف ، أن كل شخص كان يعيش على تلك الرقعة الواسعة من الأرض الممنوحة لبتاح قد أصبح رقيقاً تابعاً للأرض تنتقل ملكيته بانتقالها من مالك الى مالك آخر ! الأمر الذى يحملنا على الظن أن تلك الهبة لم تكن الا تنازلا من الملك عن ايجار تلك الرقعة ، أو الضريبة عليها لسدنة الاله بتاح ! وكانت كلتاهما من حق الملك !

---

(١) ابريز هو الاسم اليونانى للفرعون «حع ـ ايب ـ رع» (٥٨٨ ق٠م ـ ٥٦٩ ق٠م وهو أحد فراعنة الاسرة السادسة والعشرين •

(٢) بتاح اله منف ، وقد سبق الكلام عنه فى الفصل الاول •

وقد ذكر بما لا يدع مجالا للشك فى نصوص الهبات أن السكان لن يبعدوا عن الأرض الموهوبة .. وعلى ذلك فان المستأجرين لها والمقيمين عليها لن يضاروا .

وتوجد عقود للايجار مدونة على ورق البردى يرجع تاريخها الى العهد الرومانى ، ومنها يتبين أن هناك نوعين من الايجار :

الأول مقابل قيمة محددة .

الثانى بطريقة المشاركة فى غلة الأرض .

ولقد كانت قيمة الايجار المحددة تتراوح بين بوشل (١) واحد وسبعة بشلات ونصف البوشل للفدان ، وتبلغ فى المتوسط ٣ر٨ بوشل .

أما الايجار بطريق المشاركة فكان يتراوح بين نصف المحصول وأربعة أخماسه ، ويبلغ فى المتوسط ثلثى المحصول .

وبما أن الفدان فى انجلترا يغل فى المتوسط ٣٠ بوشلا فلا يجوز أن نفرض أن الفدان فى مصر مع جودة أرضها يقل عن هذا المقدار ، لذلك يكون متوسط الايجار المحدد لم يبلغ سوى ثمن ما يحصل عليه مالك الأرض بطريقة الايجار بالمشاركة .

---

(١) البوشل مكيال انجليزى يقدر بنحو ٣٥ر٣٦ من اللتر ، والأردب يساوى حوالى ٥ بوشل .

وفى بعض الجهات كان يوجد نظام المزارع الجماعية بين أهل القرية الواحدة ، وكان الايجار الذى كانوا يؤدونه بالمشاركة عن الأرض التى يستغلونها يكفى لتسديد كافة الضرائب والالتزامات الأخرى المربوطة عليها ، سواء أكانت ضرائب عامة أميرية أم التزامات خاصة بمالك الأرض .

وكانت نظم الجهاز الرسمى للبلاد تلتزم أصولاً معلومة مرعية من الرسميات ومن أمثلة ذلك ما ورد فى قصة سنوحى (١) من أن جوقة من الأميرات قامت بانشاد قصيدة فى مدح الملك سنوسرت الأول ، وتمجيد شعوره الطيب لعفوه عن سنوحى الهارب .

ولقد كانت للقصر تقاليد تراعى بدقة عندما يسمح لرجال الحاشية بدخول القصر للمثول بين يدى الملك ! .. وكان الحرص على التزام هذه التقاليد يزداد كثيرا عندما كان يؤذن لعامة الشعب

---

(١) سنوجى ، وصحتها سنوهى ، كان أميرا من أمراء الاسرة المالكة فى عهد الملك أمنمحات الاول (حوالى ٢٠٠٠ ق.م) أول ملوك الاسرة الثانية عشرة . وعندما توفى هذا الملك كان سنوحى يقود حملة ضد الليبيين ، فلما بلغه خبر وفاة الملك توقع الشر من الملك الجديد سنوسرت الاول ، لخلاف كان قد شجر بينهما فى أثناء ولاية الملك الراحل ، ففر الى الشام حيث تزوج ابنة أحد رؤساء القبائل هناك ، وعاش فى تلك البلاد ، ثم عاوده الحنين الى وطنه العزيز مصر ، فأرسل يستعطف الملك سنوسرت الأول فرد عليه يستدعيه الى مصر ، فحضر سنوحى ومثل بين يدية فعفا عنه ، وضرب صفحا عما بدر منه فى حقه ، وأمضى سنوحى بقية عمره فى مصر .

والأجانب بالدخول للمثول بين يديه .. وكان مما يفخر به كبير أمناء القصر الفرعونى قدرته الفائقه على ترتيب الأمـراء كل وفق منزلته . على أن أخنـاتون العظيم ، وكان كما نعلـم يحمـل لقب « الذى يحيى فى الصدق » قضى على كثير من تلك الرسـميات ، فلم يكن على الناس ، على اختلاف طبقاتهم ، حرج عنده أن يسعوا اليه ، ويجتمعوا فى ساحة قصره فيهللون ويرقصون ، فيطل عليهم ـ هو وزوجه وبناته ـ من شرفة القصر ، وينثر عليهم الزهور تحية لهم .

وظلت التقاليد مرعية حتى جاء الرومان !

وفى عهدهم أخذ الموظفون الرومانيون سلطات لم تكن لأمثالهم من قبل ، وابتدعوا لأنفسهم اختصاصات جديدة . ففى عام ٤٧ م أذاع حاكم مصر العام (كابيتو) قرارا شديد اللهجة يندد بذلك ! فقد بلغه أن الموظفين الرومان فى ليبيا قد اغتصبوا أملاك الناس تحت ستار الضرورة الضاغطة والمنفعة العامة ، ولم يكن مثل هذا الاجراء مصرحاً به مهما كانت الظروف الداعية له ، ولذلك فقد أصدر أمره لجميع الموظفين على اختلاف درجاتهم بالامتناع عن أخذ شىء من الأهالى الا بتصريح خاص منه ، وأن ليس لهم الا حق المبيت فى دورهم عندما يزورون قراهم لأعمال رسمية ! وأن الموظف الذى يفرض أى مبلغ من المال على أحد الأهالى مقابل خدمة عامة يؤديها له ، فانه (أى الحاكم العام) سيوقع عليه غرامة قدرها عشرة أمثال

ذلك المبلغ ، ويمنح المجنى عليه الذى يتقدم الينـا بالبلاغ عن هذا الأمر الفاضح مكافأة تعادل أربعة أمثال المبلغ المذكور •

وكان المسجلون الملكيون يقومون بتسـجيل كافة مصروفات المقاطعة وايراداتها ، وكل عجـز فيهما يعاقب الموظف المتسبب فيه بأن يدفع ما يساويه ستين ضعفاً •

أما العقوبات الأخرى التى كانت توقع فى مصر القديمه على الأهلين لذنوب جنـوها أو مخالفـات ارتكبوها فقد كانت تتسـم بالاعتدال ، اذا ما قرنت بالعقوبات التى كانت توقع على سكان الأقطار الأخـرى • على أن عقوبة بعض الذنوب فى بعض العصور كانت نهاية فى الشدة والقسـوة ، فقد حكم على زانيـة فى عهد الأسرة الخامسه بالحرق أمام بعض النسـوة ، والقـاء الرماد المتخلف من حرقها فى النيل ! غير أننا لم نعثر فى العصور التالية على مثال واحد من هذا النوع الصـارم من العقاب حتى العصر الرومانى ، عندما كثرت عقوبة الحرق بسبب الاختلاف فى المذاهب المسيحية • وقد حفظت لنا من حسن الحظ قصة عزل أحد حكام المقاطعات فى عهد الدولة الوسطى : وكانت جريمته أنه تستر على بعض أعداء الملك باخفائهم فى المعبد • ويبدو أنهم كانوا عملاء أسرة منافسة للأسرة الحاكمة • وكانت العقوبة التى وقعت عليه حرمانه من الهبات الملكية التى وهبت له ، وحـرق جميع الوثائق والمسـتندات الخاصـة

بأملاكه .. وعزله من منصبه من غير أن يوقع عليه عقوبات بدنية .

وفى الأسرة الثامنة عشرة نرى امنمحتب بن حابى (١) يعلن أولئك الذين ينتهكون حرمة القانون ، وينزل بهم عقابا صارماً جزاء وفاقاً ، على أنه يبدو من قوله أنها عقوبات أدبية وليست بدنية .

وفى عهد الأسرة العشرين دبرت احدى زوجات (٢) أحد فراعنتها مؤامرة لاغتياله ولما كشفت قدم المشتركون فيها للمحاكمة ، وكان الحكم ارغامهم على الانتحار ، أما الذين ثبت

---

(١) حابى أحد الحكماء المفكرين ، عاش فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة .

(٢) لقد قامت بتدبير هذه المؤامرة . تى زوجه الفرعون العظيم رمسيس الثالث لاغتياله ليخلو مكانه فيتولاه ابن لها منه بدلا من ابن ضرتها ولى العهد وصاحب الحق الشرعى فى تولية العرش بعد موت أبيه . وقد أشركت معها فى هذه المؤامرة بعض كبار رجال البلاط الملكى وبعض ضباط الحرس وزوجاتهم ، ولما استعد المتآمرون لتنفيذ جريمتهم كشف أمرهم ، وقبض عليهم ، وعلى الرغم من أن المؤامرة موجهة لشخص الملك ، ولقتله ، فقد شاءت عدالته أن يترك الأمر للقضاء فأمر بتشكيل محكمة خاصة لمحاكمة المتهمين بما فيهم زوجته ، وشدد على المحققين والقضاة ـ أن يتبعوا العدل ، فلا يدينون شخصا بريئا ، ويبرئون شخصا مذنبا ، ويعد هذا مثالا رائعا لعدالة ذلك الفرعون العظيم ، على الرغم من انه ـ كما ألمحنا ـ كان الهدف المنشود من هذه المؤامرة الغادرة .

عليهم أنهم كانوا يعلمون بهـا ولم يبلغوا عنها فقد حـكم عليهـم بجدع أنوفهم وقطع آذانهم (١) •

وقد امتـاز حـكم الاثيوبيين (٢) بروح الاعتدال ، فلقد قامت ثورة ضد بعنخى ، فلما أخمدها وسلم اليه المؤتمرون لم يحكم على أحدهم بالقتل (٣) •

ويروى هيرودوت أن شباكا لم (٤) يأمر بقتل أحد من المصريين لأية جريمـة ارتكبهـا كائنة ما كانت ، وانما كان القضاة فى أيامه

---

(١) يروى أنه فى أثناء التحقيق فى هذه المؤامرة تمكنت بعض النسوة المتهمات من اغراء بعض رجال الشرطة المكلفين بحراستهن بالتوجه فى صحبتهن الى منازل بعض القضاة المنوط بهم التحقيق حيث أغررهن ببعض المغريات لكى يحكموا لصالح المتهمين ، ولكن انكشف أمرهن وقبض عليهن وعلى القضاة والحراس وحكم عليهم جميعا بجدع أنوفهم وقطع آذانهم جزاء وفاقا على ما ارتكبوه•

(٢) المقصود بالأثيوبيين هنا النوبيون، وقد سبق شرح ذلك فى مناسبة سابقة•

(٣) لم تكن هذه ثورة بمعناها المعروف ،لأن بعنخى كان فاتحا لما يتم له فتح مصر كلها ، وكانت مصر آنذاك أقساما ، وكان كل قسم منها يحكمه ملك صغير أو أمير ، وكان معظم أولئك الملوك أو الأمراء ليبيين أو سوريين ، وكان الصراع بينهم على أشده ، ولذلك سهل على بعنخى فتح مصر . وكان أشد أولئك الملوك الصغار بأسا الأمير تفنخت ، أمير صالحجر الذى ضم أقسام مصر السفلى تحت لوائه ، ثم تزعم حركة المقاومة ضد بعنخى ، ولكنه هزم بعد نضال باسل ، فلم يسلم وآوى الى المستنقعات الشمالية ورفع راية العصـيان غير أن انصراف أعوانه عنه وتخاذلهم اضطره آخر الأمر الى الخضوع لبعنخى ! •

(٤) شباكا هو خليفة بعنخى •

يحكمون على مرتكب جريمة القتل بالاشغال الشاقة عاملا فى السدود •

ويقول ديودورس أن الفرعون بوكوريس استبدل بعقوبة الاعدام الأشغال الشاقة فى حفر الترع مع وضع القيود الحديدية فى أرجل المحكوم عليهم بذلك •

أما فى أيام الرومان فقد كانت أقصى عقوبة أن يساق المجرمون زمراً للعمل فى مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية ، اذ كان من المستحيل عليهم الهرب لندرة الماء فيها ! ومع ذلك فقد كان المحكوم عليهم توضع فى أرجلهم الأغلال ، ويساقون سوق الأغنام بالضرب بالعصى والسياط ليعملوا فى المناجم ليلاً ونهارا ، ولا يريحونهم حتى يخلصهم الموت من ذلك العذاب الأليم •

أما العقوبات التى كانت توقع على مخالفى دين الدولة أو مذهبها ، فقد كانت من جنس العقوبات التى كانت توقع على أمثالهم فى أنحاء الامبراطورية الرومانية الأخرى !

ويبدو أن اجراءات المحاكمة فى مختلف عصور التاريخ المصرى لم تختلف كثيرا فى عصر عنها فى عصر آخر ! اذ ليس

لدينا معلومات دقيقة كافيــة تمكننــا من الموازية بينها فى العصــــور المختلفة !

ولعل خير ما نفعله هو أن نستعرض فى ايجاز ما نعرفه عنها فى كل عصر •

١ — ففى الدولة القديمة كان هناك محكمتان : محكمة الشمال ذات الدوائر الست • ومحكمة الجنوب ذات الثلاثين عضوا (١) •

ولم يحدث الا فى حالة واحــدة ، وجـد فيها قاض يعمل فى المحكمتين معاً •

ومما يدل على أن هاتين المحكمتين كانتــــا منفصــلتين ، تلك الألقاب التى كان يحملهــا موظفــو كل منهما • وقد عرفت ألقــاب تسعة رؤساء لمحاكم الشمال الست الفرعية ، وألقاب خمسة وعشرين من القضــاة العظام فى محكمــة الجنــوب وذلك بالاضافة الى بعض ألقاب الشرف •

---

(١) يقول ديودورس ان هذه المحكمة كانت تتكون من ثلاثين عضوا يختارون من قضاة هليوبوليس ومنف وطيبة بمعدل عشرة قضاه من كل مدينة ، ويجتمع هؤلاء وينتخبون من بينهم رئيسا لهم ، وترسل المدينة التى ينتخب عضو من اعضائها رئيس للمحكمة عضوا آخر ليحل محله .

اللقب	محكمه الشمال	محكمة الجنوب
وزير وقاضى قضاه	٨	٥
الأول بعد الملك (١)	٣	١٣
كاتم أسرار الملك	١	٨
قاضى « عزمر » (٢)	١	١٣
آن موتيك	١	١٠

وكان الوزير يرأس محكمة الدوائر الست بصفة تكاد تكون دائمة ، على حين كان نائب الملك رئيسا لمحكمة الجنوب !

وفى عهد الأسرة الثالثة وفى العهـود التالية كان الوزير (٣) يجمع بين وظيفته كوزير ووظيفة قاضى القضاء « سبجتى » . وكان

(١) كان هذا اللقب يطلق على حاكم المقاطعة منذ عهد الملك سنفرو ، الأمر الذى يدل على أنه كان تحت نفوذ الملك المباشر .

(٢) «عزمر» معناها المشرف على حفر الترع ، وكانت تطلق فى الأصـل على حاكم المقاطعة دلالة على ان أهم عمل له هو الاشراف على الرى والصرف فى مقاطعته ، وفى عهد الأسرة الرابعة أضفى عليه لقب قاضى ، وأصبحت له سلطة قضائية على السكان الذين يحكمهم .

(٣) يلاحظ أن وظيفة الوزير بمعناها المعروف لم تعرف الا فى عهد الاسرة الرابعة كما سبق أن أشرنا ، اذ كان كل ملك قبل الاسرة الرابعة يختار أحد العظماء المقربين له كمستشار له ، يقوم بما كان تقوم بهالوزير بعد ذلك . مثال ذلك الحكيم والمهندس العظيم امحتب فى عهد الملك زوسر أحـد ملوك الأسرة الثالثة .

ينتمي دائما الى احدى الأسر الغنية ذات الجاه والنفوذ ، ان لم يكن من الأسرة المالكة نفسـها ، على أن يكون قد سبق له أن شغل أحد المناصب الهامة ، ومنصب رئيس الكهنة بخاصة • كان مقر عمله بهو « خا » العظيم ، وهو بهو ذ واجهة مكشوفة ، وعلى جانبيه صفان من الأعمدة • وكان يسـمى « البهو الظليـل » • وقد عثرنا فى قبـر « ر خمارع » (الأسرة الثامنـة عشرة) على ما يزيدنا علماً ومعرفة من هذه الناحيـة ، فقد كان بهو « الخا » هو المكان الذى تحفظ فيه السجلات الخاصة بملكية الأراضى الزراعية والعقارات ، لكى يرجع اليها عندما تتطلب احدى القضـايا ذلك • وكانت جميع الوصايا تعد لها ملفات مرتبة هناك • وكذلك الشأن فيما يختص بسجلات الحدود وتقديرات الضرائب ، وكافة أنواع المستندات الرسمية الأخرى •

وكانت العادة أن تقدم المظالم والملتمسـات التى تتطلب حكما ضائيا الى محكمة الوزير ومن ثم تحال الى القاضى المختص • ومن الطبيعى أن هذا القدر الكبير من الأوراق والمستندات لابد أن تتكاثر

---

(١) «خاء» كلمة هيروغليفية معناها بهو •

(٢) «رخماوع» وزير مشهور فى عهد الاسرة الثامنة عشرة ، عاصر الملك العظيم تحتمس الثالث وقد كشفت مقبرته ضمن مقـابر الاشراف فى القرنة بالاقصر •

ولهذه المقبرة أهمية قصوى تفوق غيرها من مقابر الاشراف الآخرين لما احتوت عليه من النقوش والكتابات والرسوم التى تشرح بالتفصيل مهـام الوزير فى مصرالفرعونية •

وتراكم سريعاً • ومن أجـــل ذلك فصلت مســتندات الجنوب من مستندات الشمال •

ويبدو أن قضايا الأقاليم كانت تحال الى محاكمها الخاصة بها ، ماعدا القضايا الهامة فقد كانت محكمة خا مختصة بالحكم فيها •

وفى الدولة الحديثة كانت القضايا المحلية يعهد بها الى محكمة تتألف من هيئة من الموظفين المحليين ، وهم « رجال المدينه العظام » الذين كانوا يمثلون المحكمة العليــا ، وعند نظر القضــايا المتعلقة بملكية الأراضى الزراعية ، كان يرسل مندوب يمثل المحكمة العليا ليشترك مع هيئة المحكمة المحلية فى الفصل فيها • أما المحكمه العليا ، أو كما كانت تســمى « البيت الكبير فقد كانت هيئة دائمة تتألف من كبار الموظفين ، وهى تشبه مجلس الوزراء فى الوقت الحاضر • ولقد كان تأليف الهيئة القضــائية فى محكمة « تاو » يختلف تبعــاً لنوع القضية ، كما تختلف هيئة المحلفين فى بريطانيا فى الوقت الحاضر تبعا لذلك • وكان كاتب المحكمة المحلية يشغل وظيفة ثابتة ، وكان عمله الاشراف على تنظيــم الاجراءات التى تتبع فى عرض القضــايا ونظرها والحكم فيها !

ويبدو أن الدعاوى التى كانت ترفع الى تلك المحكمة لم تكن تقدم مكتوبة ، كما هو الحال الآن ، وانما كان القضــاه يستمعون الى دعوى المدعى ، ورد المدعى عليه ! وعند اصدار الحكم فى صالح أحد المتخاصــمين ، كان الطرف المحكوم له يطالب خصــمه بقيمة أتعاب

المحكمه (١) . وكان المتقاضــون ، كما أشرنا ، يتولون الدفاع عن وجهه نظرهم ، ونقض التهم الموجهه اليهم أمام المحكمه . ولم نعثر في أيه قضية على وجود وكلاء أو محامين عن المدعين والمدعى عليهم قبل العهد الروماني والذين كان يطلق عليهم في ذلك العهد « الظهير أو النصير » .

ولقد كان لأعضاء هيئة المحكمة وظائف أخرى ، ولم يكونوا من رجـال القـانون المحترفين مهنـة القضـاء ، ذلك لأن المصريين المثقفين كانت لهم درايه كافيه بالقانون تمكنهم من تطبيقه ! وقد كان كاتب المحكمة يقوم بمهمة التوجيــه فيما يتعلق ببنود القانون التي تنطبق على القضــايا المختلفة التي تعرض عليهـم ، وكان لمركزه من الأهمية ما لمركز سكرتير المحكمه في الوقت الحاضر .

وفي عهـد الأسرة العشرين لم يـكن آنذاك غضاضـــه عند المصريين في أن يتقلد الأجانب مناصب القضــاء . ولقد كان في المحكمه التي نظرت احدى القضايا في ذلك العهد أربعة من القضـاة الأجانب ضمن هيئتها التي كانت تتكون من أربعة عشر قاضـيا . ويرجع ذلك الى كثرة الارقاء الاجانب في ذلك العهـد ، والذين تحرر كثير منهم وقفز بعضـهم الى مناصب ذات سلطان ، كما فعل المماليك بعد ذلك !

---

(١) يقصد رسوم القضيه

وأوفى قضية وصلت الينا هى محاكمة لصوص المقابر (١) فى عهد الأسرة العشرين ، ويغلب على الظن أنها كانت تهمة لفقها حاكم بر طيبة الشرقى لحاكم برها الغربى للكيد له لما كان بينهما من عداوة ، ولقد سارع الى تحقيقها الوزير ومعه الكاتب الملكى ، فبين لهما أن ما جاء بالبلاغ مبالغ فيه ، اذ وضح بعد فحص المقابر أنها كلها سليمة لم تمسسها يد عدا واحدة فقط (٢) !

---

(١) ترجع هذه المحاكمة الى عصر الفرعون رمسيس التاسع (حوالى ١١٠٠ ق.م) وهى تلقى ضوءا ساطعا على حالة الدولة المصرية فى ذلك العهد وما بلغته من ضعف وانحلال أدبا الى تراخى قبضتها على شئون الأمن والنظام، والى اهمال حراس المقابر فى البر الغربى بطيبة مما اغرى اللصوص بسرقتها، وقد تم القبض على بعضهم ، وحوكموا وحكم عليهم بالاعدام .

(٢) كانت طيبة يحكمها آنذاك أميران تحت سلطة الوزير ، وكان أحدهما يحمل لقب أمير المدينة وكان يختص بالجزء الشرقى أى مدينة الأحياء ، ويحمل الآخر لقب أمير الغرب ، ورئيس شرطة مدينة الاموات ، وكان يختص بالجزء الغربى من المدينة .

وكان أمير المدينة يدعى «باسر» ، وأمير الغرب يدعى «بويرو» وكان بين الاميرين عداوة دفينة بسبب منافسة أحدهما للآخر ، وكان كل منهما يشجع مرءوسى خصمه على نقل أخبار الفوضى والاضطراب فى ادارة رئيسهم ، وقد انتهز باسر فرصة سرقة احدى مقابر البر الغربى فسارع الى تقديم بلاغ عنها للمحكمة العليا ، وكانت — كما أشرنا — تتكون من الوزير وموظفين كبيرين ، فأرسلت المحكمة لجنة تحقيق الى «الجبانة» للبحث والتحرى ، فقامت هذه اللجنة بمهمتها خير قيام ، وفحصت محتويات عشر مقابر حامت الشبهات حول سرقتها ، فثبت لها أن مقبرة واحدة هى التى امتدت اليها أيدى اللصوص ...

ويبدو ان نتيجة الفحص لم تعجب باسر ، الذى اصر على أن بلاغه صحيح وأن عدد المقابر التى امتدت اليها يد اللصوص عشرة لا واحدة ، وهدد=

ولقد أدي غلبة النفوذ الديني على النفوذ السياسي، الذي تميزت به الأسرة الحادية والعشرين الى طريقة الاستخاورة أي الاستشارة الالهية ، فكان كبير الكهنة يأتي بلوحتين ويكتب عليهما حكمين متضادين ، ويضعهما أمام تمثال الاله آمون ، ثم يدعوه أن يختار احدى اللوحتين ، فيشير الاله الى الحكم المختار ، وكان دلك الاجراء يكرر مرتين • ولا نعرف على وجه اليقين عن كيفية هذه الاشارة •• ولقد ذهب ماسبيرو الى أن تمثال الاله آمون كانت له ذراعان قابلتان للحركة يقوم الكهنة بتحريك احداهما خفية تبعا لأهوائهم • وكانت هناك وسيلة أخرى لاستشارة الآلهة عند حدوث نزاع على ملكية مساحة من الأرض ، فقد كان الكهنة يحملون قارب الاله على اكتافهم ، وعندما يشعرون بثقل وزن القارب ، يكون ذلك اشارة من الاله الى اصدار حكمه ، وكان ذلك يحدث وفقا لأهواء الكهنة • وكانت تلك العقيدة سائدة في اسبرطة •

بابلاغ الا... للملك راسا على حين تقدم بويرو ان يلتمس من الوزير النظر في عقاب ياسر على بلاغه الكاذب ، فعقد الوزير جلسة حضرها أعضاء المحكمة العليا وفحصت تقرير اللجنة ، فأصدر حكمها بعدم صحة الاتهامات التي تقدم بها ياسر ، كما حكمت بادانته .

وللأسف الشديد لم تثبت البرديه التى سجلت عليها هذه القصيه الطريفة وهى بردية «أبوت المشهورة» تطور هذا النزاع بين الأميرين ونهايته.. ولكن يبدوأن المحكمة العليا لم تثبت عدم صحة اتهامات ياسر كلها ، لأنه وان كانت قد ثبت أن مقبرة ملكية واحدة فقط قد سرقت ، غير أنه قد ثبت لها فعلا أن عددا من مقابر الامراء والمقابر الأخرى قد سرقت فعلا مما يدل على أن بلاغ ياسر كان قاصرا على سرقة عشر مقابر ملكية ! •

ولقد لجأ الكهنة الى طريقة الوحى أى استشارة الآلهة لتوطيد مركزهم ، حتى أن الوصايا ونقل الملكية كانت تصدر بناء عن وحى الهى ، وتعد أحكاما سماوية لاتقبل النقص أو الابرام •

ولم يكن الحاكم العام لمصر فى العصر الرومانى يتمتع بسلطات الوزير القضائية ، لأن تلك السلطات كانت تمنح الى الوكيل القضائى (١) (Dikaidates) ، الذى كان يصحب الحاكم العام فى تنقلاته التفتيشية على المحاكم ، ويقوم بعمل القاضى فى القضايا الكبرى ، التى كان القضاة المحليون يقومون باعدادها له • وكان يصدر مرسوم امبرطورية بتعينه ، ويتم اختياره عادة من بين الفرسان الرومانيين • وبهذه الوسيلة توزعت سلطة الوزير القديمة •

وكان فى الاسكندرية فى العصر الاغريقى مندوب قضائى للحاكم العام (Archidikastes) وكانت سلطته تمتد الى جهات أخرى غير الاسكندرية ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالقضايا التى تحفظ سجلاتها فى الادارة العامة للسجلات التى كان مركزها بالاسكندرية (٢) •

---

(١) كان الديكاديتس هو الوكيل المباشر للحاكم العام ، فيما يختص بالمسائل القضائية وكانت السلطة القضائية العليا فى مصر من اختصاصه ! ولما كان لايشترط فى الحاكم العام أن يكون ملما بالقانون ، كان لزاما عليه أن يستعين بالديكايديتس فى المسائل القضائية •

(٢) فى تلك الادارة كانت تحفظ الوثائق القانونية لكافة المقاطعات •

وقد نشأت هذه الوظيفة فى عهد البطالمة ... ويبدو أن اختيار المتقاضين تحويل قضاياهم اليه من جهات أخرى بالبلاد انما يرجع الى أنه كان المختص بالنظر فى قضايا الاغريق أينما وجدوا ، كما كان الشأن فى المحاكم القنصلية التى كانت تنظر فى قضايا الأجانب فى مصر قبل الغاء الامتيازات الأجنبية .

أما فى الأقليم فقد كان حكام المقاطعات مختصين بالنظر فى القضايا البسيطة واصدار الحكم فيها . وكان لرؤساء البوليس الحربى (Centurion) سلطات مماثله ، فوق ما كان لهم من اصدار الأمر بالسجن المؤقت على الخارجين على القانون .

وكانت اذا وقعت حالات سطو واغتصاب للمال أو اساءة استعمال الموظفين للسلطة ، تقدم لممثل القيصر للنظر فيها ، فاذا ثبتت صحتها بعد فحصها ، اتخذ الاجراءات الرادعة لاعادة الأمور الى نصابها .

ويعد المؤرخ ديودورس خير من كتب عن القانون الجنائى المصرى ، وسجل نصوصه . ومن هذه النصوص الحكم بالاعدام على شاهد الزور ، ومنها الحكم بالجلد بالسياط والحرمان من الطعام ثلاثة أيام سويا على من يهمل فى مديد المساعدة لانسان تعرضت حياته لخطر الموت ، وعلى من أهمل فى الارشاد عن لصوص رآهم يسرقون ؛ ومنها أن من اتهم شخصا زورا ، وقعت عليه العقوبة التى يحكم بها عادة على ذلك المتهم البرىء لجريمة لم يرتكبها ، ومنها

الحكم بالاعدام على من قتل نفساً ، سواء أكانت نفس حر أو عبد . ومنها أن الآباء والأمهات الذين يقتلون أبناءهم أو بناتهم يحكم عليهم بأن يعرضون أمام ملأ من الناس وقد علقت برقابهم جثث أبنائهم أو بناتهم ، ثلاث مرات (١) . أما قتل الوالدين أحدهما أو كليهما فكان عقابه التمثيل بجسم الابن القاتل (٢) ثم حرقه حياً بعد وضعه على الأشواك . وكانت النساء الحوامل يؤجل تنفيذ الحكم فيهن الى ما بعد الوضع (٣) . ومنها أن من ينقل أخبارا الى الأعداء يستفيدون منها يقطع لسانه . ومنها أن من يطفف الميزان أو الكيل ، أو يزيف الأختام أو النقود ، أو يغش الذين يعاملهم ، أو يغير في

---

(١) يفسر ديودورس حكمة المصريين فى تلك العقوبة بقوله : « لم ير المصريون» أنه من العدل أن يقتلوا الذين منوا بالحياة على أولادهم ، بل كانوا يرون أن العدل أن يصرفوهم عن مثل هذه الجرائم بتوقيع عقوبة تعصر قلوبهم عصرا ، وتبعث فى نفوسهم الالم والعذاب الذين لايفارقانهما الا اذا يلقوا ربهم ، ويحملانهم على التوبة والندم على ما اقترفت أيديهم . أنظر وهيب كامل ديودورس الصقلى فى مصر ص ٧ .

(٢) ومن أمثلة التمثيل أنه كانت تقطع من أجسامهم قطع صغيرة لاتعدو حجم الأصبع .

(٣) يعلق ديودورس على هذه العقوبة بقوله «لقد رأى المصريون أنه من الظلم أن يشارك الجنين البرىء أمه المذنبة فى جريرتها ، وأن يقتص من اثنين لوزر لم يرتكبه الا واحد منهما . وأهم الاعتبارات كلها أنه من غير المعقول أن يقضى بالموت على الجنين وهو لاينتمى الى الأم وحدها ، وانما يشاركها فيه الأب الذى لم يرتكب جرما .

وقد نقل الاغريق هذا القانون : وهيب كامل ديودورس الصقلى فى مصر ص . «٧٥» .

نصوص السجلات العامة بمحو أو زيادة ، كان عقابه قطع كلتا يديه (١) •

ومن تلك النصوص أن الاغتصاب عقوبته قطع عضو التناسل ؛ أما عقوبة الزنا من غير اكراه الزانيـة فكانت ألف جلدة للزانى ، وجدع أنف الزانية •

ولقد أدى الارتقاء المطـرد لنظم الزواج على مر السـنين فى مصر الى سـمو المثـل العليـا للأخلاق ، وبالتالى الى حرص الفتيان المصريين الذين يبلغون سن الزواج على الاقبـال على الزواج ممن يتوفر فيهن سمو الأخلاق وحسن السلوك من الفتيات وترتب على ذلك بقاء عدد كبير من الفتيات ممن كان سـلوكهن دون المسـتوى المطلوب عانسات •

وبينا نجد أن مصر قد بلغت ذلك الرقى منذ آلاف السنين ، فان أوروبا لم تعرف الزواج المنظم الا منذ ألف سنة على التقريب •

وفيما عدا ذلك فقد كان هناك بعض المسائل التى لاتخضع عادة لأحكام القانون أو الاجبار الأدبى ، ولكنها كانت مع ذلك على جانب كبير من الأهمية لأنها تبين عن الاتجاهات العقلية للمصرى القديم •

وفيما يلى نورد لك أمثلة على ذلك :

---

(١) وجهة نظر المصريين فى ذلك ، كما اثبته ديودورس أن العقاب ينزل بالعضو الذى استخدمه المجرم فى ارتكابه جريمته جرحا لايندمل الى يوم مماته، فيكون فى رؤيته عظة للآخرين ، يصرفهم عن اقتراف أمثال هذه الجرائم ، «المصدر السابق ص «٧٨» •

ففى الأسرة الخامسة كانت حب الناس واكرامهم والترحيب بالغريب الطارق من الأمور المرغوب فيها لدى المصريين القدماء حتى لناكرى الجميل !

وفى ذلك يقول أحد حكمائهم :

اذا كنت كريما مع أحد الناس ، وصنعت معروفا له ، كأن أنلته حقا من حقوقه ، فمن الخير أن تتناسى هذه المكرمه ، ولا تذكره بها ما لم يذكرها لك هو .

ولقد كان النبلاء والحكام يباهون بنشر لواء الأمن والطمأنينة ، والعدل والاحسان بين الناس فى كافه انحاء الاقاليم التى يحكمونها فى سنوات القحط وسنى الرخاء على السواء :

ولنستمع الى أحدهم وهو يقول :

« لم يوجد فى عهدى فقراء ، ولم يحدث أن جاع أحد فى أيام ولايتى . »

وفى أثناء المعركة البحرية العظيمة (١) التى خاضت الأسرة العشرون غمارها دفاعا عن مصر ضد الغزو الأجنبى ، نرى المصريين

---

(١) وقعت هذه المعركة فى البحر المتوسط شمال غرب مصر بين الملك رمسيس الثالث ، ثانى ملوك الاسرة العشرين وبين حلف قوى مكون من الليبيين وسكان جزائر صقلية وسردنيا وكريت وغيرهم وكان أولئك الغزاه قد عزموا على مهاجمة شمال غرب الدلتا بحرا وبرا ، وحشدوا لذلك عددا عظيما من السفن ! ودارت معركة بحرية هائلة بينهم وبين مصر ، هزم فيها الغزاة وحطم الاسطول المصرى معظم سفن أساطيلهم المجتمعة ، وبلغت ضحاياهم ١٢٫٥٠٠ بين قتيل وغريق ، وكما أسر منهم ألف أسير ، وقد سجل رمسيس الثالث اخبار هذه المعركة على جدران معبده بمدينة هابو .

في المعركة المنقوشة على حيطان معبد هابو (١) وهم ينقذون الأع
من احدى سفن الغزو التى بدأت تغوص فى الماء •

وفى الأسرة الخامسة والعشرين نرى بعنخى الفاتح النوبى وقد استاء أشد الاستياء من الأهمال الذى تسبب عنه هلاك بعض الخ جوعا فى طيبة • وكان يرجو الحاميات المصرية فى المدن بالتس كلما أوغل فى البلاد حقنا للدماء • ومن أقواله المأثورة انه يود يرى أهل منف فى أمان مطمئنين سالمين ، وأن لا يتسبب عن الحر التى يخوضها بكاء الأطفال الأبرياء ••• ومما يروى عنه أنه لم يق أحد من المصريين الا فى ساحات القتال •

ويقول ديودورس : ان المصريين هم أكثر شعوب الع تقديرا للمعروف ، الذى يسدى اليهم ••••

ولقد احتل الشعور بمحاسبة النفس حيزا فى عقل المصر وتفكيره فى عهد الدولة الحديثة ، وفى أواخر عصرها بخاصة ، ولع ذلك راجعا الى ظهور عبادة آتون (٢) ، التى تحث الناس على السلو المثالى ، فنرى المصرى فى ذلك العصر الزاهر يتوسل الى ال آلا يعذبه على ذنوبه الكثيرة ••••• حتى يصبح جديرا بسك دار النعيم •

---

(١) هابو هى التسمية القبطية للمنطقة التى يوجد بها معبد الملك رمسيس الثالث فى البر الغربى للاقصر • ومازال هذا المعبد باقيا الى اليوم فى حا حسنة نسبيا •

(٢) آتون هو الاله الذى عبده اخناتون ، ونشر عبادته ومعناه قرص الشمس •

الفصل الرابع

الحياة الخاصة

الظروف المناخية
في مصر وأثرها في شكل المساكن

ان مناخ مصر قد جعل المأوى في ربوعها أقل أهمية عند سكان مصر عنه عند كثير من سـكان الأقطار الأخـرى ، والأقطار الباردة بخاصة ! ولهذا نرى أن بعض البدو من سكان مصر لا يزالون يأوون الى الخيام ، وأن بعض سكان قراها يأوون في بعض أشهر السنة الى عرائش من البوص لتقيهم وطأة الحر وعصف الرياح في أثنائها ، وأنه حتى في المنازل التي يبنونها باللبن أو الحجارة فان البهـــو المكشوف مسرح طبيعي لحياتهم المنزلية •

ولقد كان الانسان البدائي في الأزمنة الغابرة يقنع أينما حل في بقاع الأرض المختلفة بوســائل من الوقاية أقل كفـاية منها في الوقت الحاضر ، سواء أكان ذلك في الملبس أم في المأوى ، ولذلك راض نفسه على أن يفترش الأرض ، كما يفعل سكان أقطار أوروبا

الشرقية (شرقى أوروبا) الى اليوم : ولقد كان عندما يجلس على مقعد عال ويدلى قدميه ، يندفع الدم اليهما ويزداد ضغطه فيهما ، يجد نفسه مدفوعا الى رفعهما ووضعهما على مقعد آخر .

وكان المصريون القدماء يفترشون الأرض فى أثناء تناولهم الطعام ، ويرفعون احدى ركبتيهم الى أعلى ! ولم يعرف عنهم أنهم كانوا عندما يجلسون يسندون ظهورهم الى متكأ ، كما كان يفعل الاغريق والرومان عند تناولهم الطعام !

ولا ريب أن الأوضاع المختلفة التى كان المصريون القدماء يتخذونها فى جلوسهم ترجع الى عصر ما قبل التاريخ ! ويمكن اجمالها فيما يلى :

(١) لقد كانوا يضمون الركبتين عند جلوسهم على الأرض مع توجيه القدمين الى جهة واحدة ، نستبين ذلك من الرسوم البدائية التى ترجع الى العصر الحجرى القديم . وقد استمر النساء دون الرجال يتبعن ذلك الوضع الى عهد الأسرة الثانية عشرة .

(٢) وقد كانوا يفترشون الأرض مع خفض احدى الركبتين ، ورفع الأخرى !

وهذا ما نشاهده فى صورة الالهة ايزيس وهى تحمل ابنها

حورس ، التى ترجع من غير ريب لعصر ما قبل التاريخ !

(٣) وكان الوضع السائد بين الكتبة هو جلوسهم مع جعل الساقين متقاطعتين ووضع القدمين تحت الركبتين (١) •

(٤) أما الصناع فقد كانوا يجلسون راكعين بينا تكون القدمان ممدودتين الى الخلف ، كذلك كان يفعل الضيوف •

(٥) وعند تقديم القرابين كانوا يركعون مع ارتكاز القدمين على الأصابع فى وضع رأسى •

(٦) ويبدو أن جلوس القرفصاء مع اتجاه الركبتين الى أعلى قد بدأ فى عهد الأسرة الثانية عشرة ، وهو وضع يستلزم أن يكون الفخذ أطول من قصبة الرجل ، وهذا الأسلوب فى الجلوس شائع بين المصريين فى الوقت الحاضر (٢) •

(٧) وفى حالات نادرة تتطلبها طبيعة بعض الأعمال كانوا يفترشون الأرض مع جعل الركبتين الى أعلى بينا تكون الساقان ممدودتين الى الأمام • وعندما كانوا يريدون التعبير عن الخشوع أو الخضوع ، فقد كانوا يضعون اليدين متقاطعتين على الكتفين •

وكان المتبع عند الدفن فى عصور ما قبل التاريخ وضع الجثة

---

(١) وهى التى تسمى الآن الجلوس القرفصاء

(٢) انه شائع بين سكان القرى غير المتعلمين ، وقد اختفى بين المدنيين !

بحيث تتخذ شكل القرفصاء ، مع سحب الركبتين نوعاً ما الى أعلى، وهو الوضع الطبيعي الذي نتبعه في نومنا في الوقت الحاضر . أما دفن الجثة مع جعلها ممدودة ، فقد بدأ اتباعه في عهد الأسرة الثانية، ولا يزال هو الوضع الذي يتبعه المصريون اليوم في أثناء نومهم .

وكان الرجال والنساء ، اذا ما دعوا الى الولائم ؛ساولون الطعام معاً وهم جلوس على الحصر ، ذلك على الرغم من أن منازلهم كانت تحتوى على أجنحة للرجال وأخرى للنساء !

ولقد كانت الدور الكبيره في عهد الاسره الثانيه عشرة تشتمل على ممرين ، يمتدان من الباب الخارجي الى الداخل . وكان أحدهما يؤدى الى الأبهاء وحجرات سيد القصر والى المطابخ ، أما الآخر فكان يؤدى الى الجناح الخاص بالسدات !

وسوف نصف تخطيط المنازل ورسومها وابنيتها في الفصل الأخير من هذا الكتاب تحت عنوان المباني !

أما الأثاث كما يبدو من النماذج الخاصه بالأسرات التاسعه والعاشرة والحادية عشرة ، فكان يتكون من أريكة طويلة ومقاعد في الطابق العلوى من المنزل ، ليجلس عليها أهله للتمتع بالنسيم البارد المنعش ، وعلى حامل تصف عليه جرار الماء وأكوابه ، ورحاة لطحن الغلال كانت توضع على قاعدة في أسفل السلم ، وفي حجرة النوم مقعد يستخدم للراحة والاستجمام ؛ يرتكز على غصن ذى شعب،

مثبت فى احدى حوائط الحجرة (١) •

المدافىء : وكانت مدافىء المنازل المستعمله فى عهد الأسرة الأولى من الفخار ، وكانت حافاتها مرتفعة لمنع الرماد من التبعثر ، وكان لبعضها حافة مصنوعة على هيئة أفعى ملتوية حول نار موقدة ، كما تفعل الثعابين التى تأوى الى المنازل ، وكان المصريون لا ينالونها بأذى لاعتقادهم أنها تقوم بحراسة المنازل من الفيران التى كانوا يعتقدون أنها تحمل عدوى الطاعون ! (٢) •

وفى عهد الأسرة الثانية عشرة كان المصريون يضعون موقدا كبيرا من الفخار فى وسط البهو لتدفئته !

تمسك المصريين بالنظافة

ولقد كان المصريون يتمسكون بالنظافة تمسكا شديدا ، وكانت ملابسهم ، وملابس الكهنة بوجه خاص تصنع من الكتان (التيل) لأن الملابس الصوفية كانت فى ملتهم واعتقادهم مرتعا خصيباً محببا للهوام والحشرات ، وكانوا يحرصون على غسل ملابسهم فى فترات قصيرة وبعناية خاصة •

---

(١) هيرودوت الجزء الثانى ص ٣٥ •

(٢) كان المصريون يعتقدون أن ثعبان المنزل هو الاله أجاثوديمون الذي يحرص على طرد الفيران من المنزل منعا من انتشار الطاعون الذى كانت تحمل عدواه •

كانوا يغتسلون بالماء البارد أربع مرات كل يوم مرتين فى النهار ومرتين فى الليل ، كما كانوا يحلقون رءوسهم وأذقانهم ، لا بل وأجسامهم مرة كل ثلاثة أيام ! وكان مما يثير سخطهم وسخريتهم أن يروا الشعور المرسلة الكثة فى صور الرعاة أو بعض الأجانب ، وكانوا يصورون الرجل الريفى وقد طال شعر رأسه ، كما صوروا شعور بعض الثوار وقد طالت حتى تدلت على أكتافهم .

ولقد كان غسل الملابس من الأعمال المنزلية التى استحقت فى نظر المصريين القدماء تصويرها بالتفصيل على جدران المقابر ، ويتضح من هيئة الحلل الرسمية أن النشا كان يستخدم دائما فى تثبيت طياتها .

ولقد كان المصرى شديد العناية بآداب المائدة (١) . فقد ورد فى سفر التكوين من التوراة أنه كان لكل من كبار الموظفين المصريين ، وعامة الشعب المصرى والمهاجرين السوريين طريقتهم الخاصة فى تناول الطعام ! .

---

(١) يتبين ذلك من نصائح الحكيم بتاح حتب لابنه اذ يقول له : اذا كنت من بين الجالسين على مائدة من هو أكبر منك مقاما ، فخذ ما يقدم لك ، ولا تأكل الا مما يوضع أمامك ، ولا تطيل النظر الى ما وضع - من طعام أمام غيرك ، لأن ذلك مما تشمئز منه النفوس !

وانظر بمحياك الى أسفل الى أن يحييك المضيف .

أنظر الادب المصرى القديم جزء (١) ص ١٧٩ ، تأليف الاستاذ الكبير سليم حسن .

ويقول هيرودوت : ان المصريين القدماء لم يكونوا يستعملون السكين ، أو السفود أو أى وعاء خاص باغريقى ، أو يتناولون لحما قطعته سكين أحدهم ، ويرجع ذلك الى عقيدة المصرى بأن معدن الحديد نجس ، وكانوا يؤمنون بأن عظام الاله ست الشرير مكونة منه (١) . وكانوا لذلك يصنعون مداهم من البرونز .

وكان المصريون يجلسون فى أثناء تناولهم الطعام على

---

(١) لانعلم علم اليقين سبب ربط المصريين بين الاله ست والحديد ، ولعل سبب ذلك أنهم كانوا يعتبرون الحديد معدنا (أسيويا) ، اذ أنه أول من استخدمه فى صنع آلات الحرب هم الحيثيون الد أعداء المصريين ، وكانوا كما نعلم من سكان غربى آسيا كما أن الهكسوس الذين غزوا مصر ، وعاثوا فيها فسادا قد (جاءوا) من غربى آسيا أيضا فوق أنهم عبدوا الاله ست دون غيره من آلهة المصريين الأخيار ، ولهذا كله ربط المصريون بين كراهيتهم للهكسوس الأسيوبى الأصل وبين المعدن الذى كان يستخرج من بعض بقاع آسيا الغربية وبين الاله ست الذى عبدوه !

هذا هو السبب البادى ، أما السبب الحقيقى فى عدم ذيوع استعمال الآلات الحديدية رغم انتشار استعمالها فى غربى آسيا ، فهو ان تكاليف نقله من مناجمه التى كشفها المصريون منذ عصور أسرهم الاولى ، كانت باهظة لبعدها عن الدلتا ووادى النيل ، على حين أن النحاس الذى نجح المصريون فى تحويله الى برونز ، كانت مناجمه قريبة !

على أن الحديد ، كما سبق أن ألمحنا ، قد وجد منذ العصور الأولى ، ولانجزم بنجاح المصريين فى صنع الآلات قبل عهد الأسرة الثانية عشرة ، اذ وجد فى مقبرة الملك توت عنخ آمون خنجر من الحديد ! ثم أخذت الآلات الحديدية يعثر عليها فى قبور من خلفوه من الفراعنة ، ثم كثر استخدامها فى عهد الأسرة الخامسة والعشرين ! وقد عثر فى بلدة نقراطيس على أفران لصهر الحديد ، ترجع لعصر الاسرة السادسة والعشرين .

الحصر(١) ، وكانوا يستخدمون السكين اذا اقتضى الأمر ذلك ! ولم تكن الشوك معروفة لهم آنذاك ! أما الملاعق فقد استعملوها في عصر ما قبل التاريخ (أي قبل عصر الأسرة الأولى) ولكن أحجامها كانت صغيرة ، ومصنوعة من العاج ! وقد وجدت ملاعق صغيرة الحجم مصنوعة من البرونز كانوا يستخدمونها للدهون العطرية فى عصر الأسرة الثانية عشرة ! .

كما كانوا يستعملون ملاعق مصنوعة من البرونز أيضا على هيأ المجرفة (الكريك) فى عصر الأسرة التاسعة عشرة ، وقد ادخل الاغريق المغرفة التى كانت ولا تزال تستخدم فى نقل السوائل من آنية الى أخرى !.

ولقد كان المصريون يحتسون بعض السوائل بقطع البوص (الغاب) أو الانابيب المرنة كأمعاء الحيوانات ؟ .

وان استعمال المصريين لأكواب النحاس ، والتى ذكرها هيرودت فى تناولهم الشراب لمن الأمور المألوفة اليوم فى شوارع القاهرة

---

(١) يقول العالم ارمان أن الحصير استخدم للجلوس عليه قبل عصر الدولة القديمة ، ولكن منذ أوائل هذه الدولة استبدلت المائدة القليلة الارتفاع والتى يتكون جزؤها العلوى من حجر مستدير بها ، فاستخدمها النبلاء والاغنياء بادىء ذى بدء ، ثم استخدمها بعد ذلك الناس جميعا ، واستبدل بها الأمراء والأثرياء مائدة طويلة (مرتفعة) . انظر مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة : تأليف درانكه : ترجمة الاستاذين عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال : ص ٢٠٢ .

وغيرها من المدن المصرية (١) •

ولقد استعمل المصريون قرب الماء منذ عصر ما قبل التاريخ ، وقد وجدت بعض السدادات المصنوعة من العاج أو الحجر لسد فوهاتها •

ولقد بدأ ظهور المدى النحاسية التى كانت تستعمل لسلخ جلود الحيوانات خلال الحضارة الثانية من حضارات ما قبل التاريخ ! •

وانك لتشاهد شكل قربة الماء ، وقد ربطت من طرفيها بحبل من جلد تحمل به ، فى الرسومات التى ترجع لعصر الدولة القديمة، وهى شبيهة بالقربة التى يستعملها السقايون فى الوقت الحاضر •

---

(١) كان المصريون يمرحون كثيرا فى الحفلات ، وكانوا يكثرون من شرب الخمور التى كانت تفقدهم اتزانهم فيزيطون ويصخبون ! وكانت بعض نسائهم يشاركنهم فى ذلك فى كثير من الاحيان ! وهناك فى احدى مقابر طيبة صورة على أحد جدرانها تمثل سيدة أفرطت فى شرب الخمر فبدأت تترنح فسارعت اليها احدى خادماتها لتقدم لها كأسا به سائل ، كان معروفا لديهم اذ ذاك من خصائصه المساعدة على القىء ، فتفرغ ماقى جوفها !

ولكن الى جانب ذلك كان عقلاء تلك العصور وحكماؤها ، وحفظتها على الأخلاق الكريمة لا يوافقون على تلك الحياة العابثة الماجنة ، فيقول الحكيم آنى فى نصائحه الى ابنه خونسو حتب :

لاتفرط فى شرب الجعة ، لأن لشاربها فلتات لسان ، يستقبح صدورها منه ، متى يفيق ويعود اليه رشده ، وهو دائما منبوذ محتقر من الناس حتى من أمثاله الذين يشاركونه فى تعاطيها !

ومن نصائحه أيضا «لاتدخل «بيت السكير» ، ولو كان دخولك يعود عليك بالخير !

وقد وجدت فى أقدم السجلات التى دونها المصريون القدماء، ما يشير الى شربهم للجعة والخمر • • • • • • • • ولقد كانت الخمر تقدم فى الحفلات والولائم ، ولم يك ثمة لوم أو تثريب على شاربيها ، والسكارى منهم بخاصة حتى عهد الأسرة التاسعة عشرة! ففى عهد الاسرة السابعة عشرة ، كان الخدم يقدمون لضيوف أسيادهم كئوس الخمر ليشربوها حتى الثمالة لتدخل عليهم السرور ويقضوا وقتا سعيدا ! وفى ذلك تقول سيدة من أهل ذلك العصر للساقى « اعطنى ثمانية عشرة كأسا من الخمر لأننى أحبها حبا جما ! ويظهر أن تباهيها بحب الخمر لم يكن آنذاك مدعاة لتوجيه النقد أو اللوم اليها أكثر من الذهاب لمشاهدة حلبة ملاكمة أو مصارعة فى وقتنا هذا ! •

وفى عصرى الفرس والبطالمة أدى انهيار أسس الحياة القومية المصرية الأصيلة بتأثير عاداتهما وتقاليدهما وسلوكهما التى كانت تختلف جد الاختلاف عن عادات وتقاليد وسلوك المصريين الى التردى فى حمأة الترف والاستهتار والانغماس فى تعاطى الخمور وغيرها من المسكرات ! •

وسائل المحافظة على الممتلكات

لقد كانت الأختام تستخدم منذ ما قبل الأسرة الأولى فى ختم الوثائق التى تثبت تملك الناس للعقارات والممتلكات الأخرى على

اختلاف أنواعها ، محافظة عليها من ادعاء المدعين ! .

ولقد استقينا علمنا بعصـــور الأسرات المصرية الأولى من بصمات الاختام الرسمية على الأوانى والجرار الملكية .

ولقد استمر استعمال تلك الاختـام الى عصر الأسرة السادسه والعشرين ! فكانت الصناديق والحقائب والرسائل ، وكذلك الجرار الكبيرة والأبواب تربط بالحبال ، ويوضع قدر من الصلصال على العقدة ، ثم تختم بالخاتم . وكانت تلك الأختام على هيئة اسطوانات تمرر على الصلصال ؟ وكان ذلك فى عصر الدولة القديمة ! وما جاء جاء عصر الأسرة الثانية عشرة حتى كانت تلك الأختام الاسطوانية قد استبدل بها أخرى مستوية ! .

ويبدو أن ذلك حدث فى عهد الاسرة الثامنـة وكان أقدمهـا أختام الملك تلولو (١) .

ولقد استعملت الأقفال لأول مرة فى العصر الرومانى ! وكان القفل آنذاك يتكون من مزلاج تثبته عندما يراد قفلَ الباب سقاطات اسطوانية صغيرة من الخشب ، ويرفعها مفتاح اذا أريد فتحه ! .

---

(١) هو الفرعون نفركارع تلولو ، حكم فى الدلتا فى عهد الاسرة الثامنة اى فى فترة الاضمحلال والتسيب والفوضى ، التى أعقبت سقوط الدولة القديمة، ويدل اسمه على أنه من أصل سامى ولذلك لا يستبعد أن يكون من أحد الغزاة الاقوياء الذين غزوا الدلتا من الشرق .

وقد أصبح القفل فى أواخر العصر الرومانى على هيئة مزلاج ذى ثقوب تثبت فيه أسنان من الخشب تسقط فى تلك الثقوب ، وكان المفتاح يستعمل لرفع هذه الأسنان من الثقوب ، ويؤدى فى الوقت نفسه عمل المقبض للمزلاج ! وهذا ما يشاهد فى ريف مصر فى الوقت الحاضر .

بعض العادات والتقاليد

من التقاليد التى كانت متبعة فى العصــور الأخيرة أنه كان اذا أخطأ رجــل أو امرأة خطأ بســيطا أمــرت المرأة أن تركع على ركبتيها ، ثم تضرب على كتفيها بعصا قصيرة ! أما الرجل فكان يطرح أرضا منكبا على وجهه بعد أن توثق يداه ورجلاه من خلاف وينهال عليه ضربا وجيعا ! .

ومن العادات المرعية أن الرجل اذا مثل أمام أحد العظمــاء ينحنى وتلمس يداه ركبتيه ! وكان ذلك هو الشأن فى أيام هيرودوت الذى روى أن تلك الطريقة كانت هى الاسلوب السائد لتحيــة العامة للعظماء ! .

أما اذا مثل أحد أفراد العامة أو أحد صغار الموظفين أمــام الملك فكان يخر على الأرض ساجدا وتلمس جبهته الأرض ، كما يفعل المســلمون فى ســجودهم فى أثناء الصلاة ! أما كبار الموظفين فكانوا يكتفون ظهورهم ، وبخاصة فى عصر الاسرة الثامنة عشرة .

وكان اذا جاء ضيف منزل رجل لزيارته ، وكان متغيبا ، سارعت ابنته الرشيدة لاستقباله وهى باشه ، طلقة المحيا ، مبديه الود والسرور بمقدمه .

أما سلوك المصريين عامه ، وفى عهد الأسرة الثانيه خاصه ، فاننا نستشمه من أقوال آنتف ! فاستمع قوله :

انى ممن يحترمون الناس ، ويذللون لهم الصعاب التى تعترضهم ، ويكتنهون ما فى قلوب الناس ، انى حازم ولبق اذا ما عزمت على أن أحول دون حدوث ما يصيب الناس بالضرر ، أو أسوى أمرا عسيرا ، انى طيب القلب ، ولست سريع الغضب والانفعال ، ولست ممن يمسكون بتلابيب الناس ويطرحونهم أرضاً ، مهما كانت الأسباب الداعية الى ذلك ، انى ممن يواسون الحزانى ، بأن ألقى فى مسامعهم بالفاظ عذبة تنسيهم أحزانهم . !

ويقول آنى وهو من أشهر حكماء الأسرة التاسعة عشرة :

اذا أردت أن تصلح بين المتخاصمين ، فأحسن انتقاء الألفاظ التى تلقيها على مسامعهم ، فان الخطاب الجيد يميل قلوب الناس اليه فيتقبلونه قبولا حسنا ويعملون به ، واذا طهر الصديق قلبه من الشرور ، حسنت أعماله ، وانتفع بها أصدقاؤه ، وأصبح بذلك بمأمن من نقدهم اياها ، فحذار من فقد صداقة الخلان .

ولقد كان المجلس المحلى للسراة مدرسة لآداب السلوك ! وفى

ذلك يقول الحكيم : اذا كنت رجلا ناجحا وعضوا فى المجلس فاحصر ذهنك فيما يبشر بالنجاح وان صمتك أجدى عليك من القاء الأقوال جذافا من غير تبصر !•

ولقد كان من التقاليد المتبعة تقديم القرابين وصلوات الشكر قبل اقامة الولائم • ولقد ذكر يوسف اليهودى (١) المؤرخ أنه عندما استقبله بطليموس الثانى (فيلا دلفوس) أبعد المنادين (Heralds) المقدسين وأولئك الذين يقومون بذبح الضحايا ، والذين كانوا يتلون صلاة الشكر ، ولكنه استدعى القس اليزار (١) وطلب منه أن يتلو صلاة الشكر ، فوقف بينهم ودعا فى صلاته للملك ورعيته بالهناءة والسعادة •

وكان من التقاليد المرعية آنذاك أنه اذا دعى بعض سراة المصريين الى وليمة جاءوا منزل الداعى فى عربات يحف بها الخدم ذات اليمين وذات الشمال ، وذلك اذا كانت منازلهم تبعد عن بيت الداعى بعض البعد ، أما اذا كانت قريبة منه ، جاءوا مشيا على

---

(١) كان يعيش يوسف اليهودى فى الاسكندرية فى أوائل القرن الأول الميلادى ، وقد ألف كتابا للرد على مطاعن العالم السكندرى ابيون ضد اليهود، وقد نقل عن المؤرخ المصرى مانيثون جزءا من كتابه الذى أفرده للتحدث عن الهكسوس ، وكان هدف يوسف من ذلك أن يثبت أن يهود مصر من نسل ملوك الهكسوس الذين غزوا مصر وتربعوا على عرشها حقبة طويلة من الزمن ، وقد تلاعب بالالفاظ كشأن أفراد قومه لتحقيق غرضه• ، ولقد خدم يوسف تاريخ مصر من غير قصد ولا رغبة منه ، لأنه نقل لنا جزءا من كتاب مانيثون القيم الذى فقدناه !

الأقدام ! وكان خدم الداعى يقفــون فى حديقــة منزله مصطفين لاستقبالهم ، وليقدموا لهم الشراب والفاكهة من أوان مرصوصــه أمام باب المنزل ! ثم يرشدونهم الى مكان الوليمة ! .

فاذا ما جاءوه قدم لهم الخدم أوانى مملوءة بالماء لغسل أيديهم ! وكانت أوان الماء الذى كان الضيوف يغسلون به أيديهم فى الولائم الملكية من الفضة الخالصة ! وكانت تقدم للضيوف بعناية حتى لا ينسكب منها قطرة ماء على الطنافس ، فاذا ما اتخذ الضيوف مجالسهم ، طافت علهم غادات حسناوات ليضعن أكاليل الزهــور حــول أعنــاقهم ،

= (١) هو الكاهن الاكبر لمعد اليهود ى أورشليم آنذاك !

ويشير المؤلف الى ماذكره يوسف اليهودى عن التوجمة السبعينية للتوراة ومؤداها أن الملك بطليموس الثانى أراد أن يترجم النوراة الى اللغة اليونانيــة خدمة ليهود الاسكندرية الدين كانوا يؤلفون جالية كبيرة كانت تسكن حى دلتا (ومكانه حى الشاطبى الحالى) فأرسل الى اليزار كبير الكهنة بأورشليم ، رسالة يطلب فيها سبعين عالما ويقول يوســـف أن هؤلاء عكفوا على ترجمة التوراة ، منعزلين بعضهم عن بعض ، ولما أتموها بعد سبعين يوما ، قورنت تراجمهم بعضها ببعض فوجدت أنها تطابق بعضها بعضا ! ويذهب دكتور ابراهيم نصحى الى أن « الشواهد التاريخية تدل على أن هذه القصة مخترعة لأن ترجمة التوراة امتدت طوال القرون الثلاثة السابقة لميلاد المسيح (انظر تاريخ مصر فى عهد البطالمة ج ١ ص ٢٧٠) .

اما بيفان فيذكر أن التوراة لم تتم ترجمتها كلها ، كما ورد فى رواية يوسف اليهودى ، ولكن ماترجـــم منها كان كتب القــوانين الخمســة فقط (أنظر (Bevan : The Ptolemaic Dynasty, p. 112). ولعل السبب فى ذلك يرجــع نسيان يهود الاسكندرية آنذاك لغتهم العبرية وتفاهمهم باللغة اليونانية الامر الذى دعاهم الى طلب ترجمة القوانين الخمسة ، لأنهم كانوا يحاكمون وفقــا لقانون موسى .

ويضعن الدهون فى هيئة أقماع مخروطيـة الشـكل على رءوسهم العارية أى على شعورهن المصففة ، التى كانت تمتص الدهـون وكأنها قطع من الاسـفنج سكب عليها بعض الماء ! كمـا كن يضعن فى يد كل ضيف زهرة من زهـور اللوتس ! ثم تدار بعـد ذلك كئوس الشراب عليهم ! .

وكانت الراقصـات الهيفاوات وعازفات الموسيقى والمغنيات بشرحن برقصهن وموسـيقاهن وأغانيهن صدورهم ، ويضفين على الحاضرين جميعا جوا من المرح والسرور ! فاذا ما انتهت الوليمة ، عرض المضيف على ضـيوفه وهم سكارى نموذجا لمومياء فى تابوت طوله ذراع أو أكثر قليلا .

وكان بلوتارك (١) يرى أنه كان يقصد بذلك حث الضيوف على التمتع بمباهج الحيـاة الدنيا قبل أن يصيروا ان آجلا أو عاجلا كهذه المومياء ! .

على أن هذا العمل كان يمثل ناحية من نواحى التفكير المنظم الذى اتصف به العمل المصرى منذ القدم ، كمـا يتبين ذلك من الأغنية التى كانت تغنى فى أحفالهم !.

---

(١) بلوتارك مؤرخ رومانى عاش فى أوائل القرن الثانى الميلادى ، جاء مصر وأقام فيها وكتب كتابا عن العقائد والتقاليد والعادات المصرية القديمة . وأهم ما جاء فى كتابه ما ذكره عن قصة ايزيس وأوزيريس .

صنع نصب عينيك التمتع بالموسيقى والغناء
واطرح جانبا أسباب الأسى والألم
ولا تذكر الا المرح والسرور
حتى يحين يوم الرحيل
الى المكان (١) الذى يخيم عليه الصمت !

وهناك لون آخر من ذلك المزيج من الفرح والحزن والمرح والأسى ، يتمثل فى أغنية مانيروس (٢) ، وهو الابن الوحيد لأول ملك من ملوك مصر القديمة ، وقد خطفته المنون وهو غض الاهاب! ولقد خلد المصريون ذكراه فى هذه المرثية الحزينة التى أطلق عليها بعد ذالك : لحن أدونيس لفناء الكون ! .

هذا وتمثل الرسوم الموجودة على بعض الآثار المصرية الضيوف وهم جلوس وليس أمامهم موائد (٣) ، بينا يقدم لهم الخدم صحاف الطعام الواحدة تلو الآخرى ، ويذكر اثنايوس أنه لم

---

(١) يقصد القبر !

(٢) هذا هو تفسير هيرودوت لهذا النشيد ، ويضيف على ذلك أنه كان ينشد فى فينيقية وقبرص وغيرها من الاقطار المجاوره لمصر ، وانه يشبه النشيد الذى كان ينشده الاغريق باسم لينوس ! ويعلق الاستاذ وهيب كامل على ذلك بقوله : ان كلمة مانيروس يبدو أنها حورت من العبارة المصرية « ما ـ ان ـ هرا » ومعناها جئنا ثانية . (أنظر كتاب هيرودوت فى مصر فقرة ٧٩) .

(٣) يلاحظ ما سبق أن نقلناه عن أرمان بهذا الخصوص راجع حاشية سنة ١٩٣ (ص ٥) .

تكن توضع للضيوف موائد على الاطلاق ، وانما كانت تقـدم لهم صحاف الطعام ، وهو تقليد كان يتبعه سكان أقطار البحر المتوسط ، وأنه لا يزال متبعا فى أسبانيا (١) حتى اليوم .

ولقد كان العشاء عند المصريين أفخر من العشاء عند الفرس !

ولقد كان فى المدن المصرية فى العصر الرومانى حدائق عامة تقام فيها الولائم ، ويؤمها الرجال والنساء والأطفال للمرح والترفيه عن النفس ! وخير مثال لها حدائق اليوسس (Eleusis) (٢) وحدائق كانوبس (Canobus) (٣) بضـواحى الاسـكندرية ! وفيها كان روادها ينغمسون فى حياة بوهمية اباحيه صاخبة ، فكنت ترى جموعا من الرجال والنساء آناء الليل وأطراف النهار ، يستقلون الزوارق ، وقد أطلقوا لأنفسـهم العنان فى الغناء والرقص ، مـع

---

(١) استرابون : الكتاب الثالث .

(٢) مكانها الآن المنطقة التى تشغلها أحياء الابراهيمية وأسبورتنج والحضرة وحدنقة النزهة ، وكان قسمها الشمالى يعرف باليوسيس الحمامات .

(٣) وهى ضاحية أبو قير الحالية ، التى كانت مزدهرة فى العصرين لاغريقى والرومانى ، وسميت بذلك لأن فرع النيل المسمى الكانوبى كان يصب فى البحر على مقربة منها ! وكان بها معبد للاله سيرابيس ذاعت شهرته فى هذين العصرين وكان يقصده المرضى طلبا للشفاء ! وقد سكنهـا بعض القديسـين فى العهد المسيحى ومنهم القديس الأنبا كير الذى اشتقت من اسمه اسم الضاحية أبو قير . هذا وقد أخذت المدينة تضمحل عندما انسد الفرع الكانوبى ، وتحول الى فرع رشيد !

التحرر التام من كافة حدود السلوك القويم والتقاليد المرعية (١) ! •

ولقد كانت تقام فى الجبانات ولائم جنائزية ، ومازلنا الى اليوم نرى بعض الأسر تزور مقابر أمواتها احياء لذكراهم ، وتقضى بعض الوقت فى غرف خاصة ملحقة بها ! •

تعداد السكان

لقد حفظت لنا الآثار المصريه عددا كبيرا من القوائم الخاصه بتعداد بعض الأسرات فى عصر الأسرة الثانية عشرة ! ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر بيان بأسماء أفراد أسرة هيرا ابن الجندى تحوتى بالفرقة الثانية من الفرق النظامية المعسكرة بمدينة « وعسرت » الشمالية (٢) • ومن بين أولئك الأفراد زوجته شبنست ابنه سات سيدو ، وابنه سنفرو ، ووالدته حار أختى (Harakhni) وأخواته كات سنوت ولكتن وايزيس وورودت وسات سنفرو ! •

ولقد عثر على قائمة بأفراد أسرة سنفرو بن هيرا يرجع تاريخها الى السنة الثالثة من حكم الملك سخم كارع ، ذكر فيها اسم أمه ، واسم جدته ، واسماء عماته ! •

---

(١) كان أهل الاسكندرية يستقلون القوارب بعد تزيينها بمختلف الزينات، ويتجهون بها شرقا نحو مدينة كانوب سالكين قناة كانت تصل بينها وبين الاسكندرية ، وسط مظاهر الفرح والبهجة والسرور وكان كثير من الموبقات ترتكب فى تلك القوارب حتى ذاعت شهرة هذه الملاهى الماجنة ، حتى أطلق على جميع أنواع الملاهى الماجنة آنذاك اسم ملاهى كانوب الفاجرة» .

(٢) مكانها بلدة صان الحجر الحالية جنوب بحيرة المنزلة .

وقد أدى أفراد تلك الأسرة يمين الولاء والطاعة للملك في حضرة الوزير وأحد العظماء العشرة للوجه القبلي وكان يدعى منتومحات وثلاثة آخرين ، ثم سجلت أسماؤهم في سجل خاص ! وكانت أفراد كل أسرة تسجل مرة أخرى في العام التالي لوفاة ربها ، باعتبار أن ابنه أصبح ربها وعائلها ! وبعد مرور عامين على وفاة العائل الأول كان أفرادها يؤدون يمين الولاء أمام الوزير نائبا عن الملك ! وبحضور أحد أعضاء مجلس الثلاثين ، وثلاثة من المسجلين الرسميين كشهود ! .

وهذا يبين مدى الدقة التي وصل اليها نظام التسجيل فيمصر اقديمة ، حتى في حالة عدم وجود ثروة أو ممتلكات لعائل الأسرة المتوفى !

وكان التسجيل قد شمل جميع أفراد الأسرة بما فيهم الأطفال وهم في مهودهم ! .

ولقد كان أساس الأسرة المصرية يرتكز على نظام الأمومه فقد كان الزوج سواء أكان موظفا أو تاجرا أو زارعا ، يتبوأ مركزا ثانويا فيها ، وكانت الزوجة تتبوأ مركز الرياسة في تدبير شئونها ، كما كان البيت أثاثه ورياشه ملكا لها ، واذا ماتت ورثها بناتها لا أبناؤها ! ولهذا كان زواج الأقارب محببا ! ولا يزال حتى وقتنا هذا زواج بنات الأعمام بابناء أعمامهم مفضلا على زواجهم من الغرباء ! ولعل علة هذا حرص الأسر على ألا تتوزع ممتلكاتها بين

الغرباء ! فتنفصم عراها ! وفي ذلك يقول ديودورس المؤرخ المشهور: لقد كان القانون في مصر خلافا لتقاليد الشعوب الأخرى كافة يجيز ان يتزوج الاخوة من أخواتهم(١)! وقد ورد في قصة ستنا (Setna) ما يأتي : ليس لى الا هذين الطفلين فمن الصواب أن يتزوج أحدهما الآخر . ولقد قال روماني : انك في أثينا تستطيع أن تتزوج أختك من أمك أو أبيك ، ولكن في الاسكندرية تستطيع أن تتزوج من شقيقتك ! وينبغي لنا أن نذكر فيما يختص بعادة زواج الأخ من أخته عند قدماء المصريين أن تلك العادة لم تكن مقصورة عليهم بل كانت سائدة في أقطار كثيرة من فارس الى بريطانيا ! على أن موانع الزواج من الأقارب التي نظمها العرف ثم القانون لم تنشأ الا في العصور التاريخية المتأخرة . وتعتبر نظم الزواج من أحدث نظم الحياة التي خضعت لسلطان القانون ، ولقد أدى نظام الأمومة القوى المتين في مصر القديمة الى أن تأول الثروة العقارية كما قدمنا الى النساء دون الرجال ! وكان ذلك من الحوافز القوية التي أغرت الأخوة بالزواج من أخواتهم لكى

---

(١) قد يبدو من الغرابة بمكان زواج الملك سنفرو ورمسيس الثانى من ابنتيهما ، ولكن كما يقول المؤلف : ان هاتين الحالتين كانتا الوحيدتين لهذا النوع من الزواج في التاريخ المصرى القديم كله ، وبذلك يكون ذلك استثناء لا قاعدة وعلى ذلك لاينبغى أن يقال أن المصريين القدماء كانوا يتزوجون بناتهم !

ولا نعلم حتى الآن علم اليقين السبب الذى حدا بهما الى هذا الزواج !

يحتفظون بالميراث ، اذ كان الزواج من الأخت يؤدى الى الجمع بين ممتلكات الأم وميراث الأب ، أما فيما يتعلق بزواج الأب من ابنته فليس لدينا أمثلة لذلك فى حياة عامة الناس ، ولكن لدينا مثلين مؤكدين فى حالتى ملكين من عظماء الملوك ألاوهما سنفرو ورمسيس الثانى فقد تزوج كل منهما ابنته ! •

وقد تكون وراثة العرش مقصورة على فرع الأمهات فى عصر ما قبل التاريخ ! ولكن فى عصر الأسرة الأولى كانت الوراثة محصورة فى الأبناء • أما فى عصر الأسرة الثانية فقد اعترف بحق النساء فى تولى الحكم نتيجة لسيطرة اتباع الاله ست على سياسة الدولة (١) ، وبذلك استرد البنات حقهن فى قصر وراثة العرش عليهن دون الأبناء • ولم يتول سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة العظام الا لأنه تزوج بابنة آخر ملك من ملوك الأسرة الثالثة (٢) • ولكن لم تلبث أن أصبحت وراثة العرش قاصرة على الأبناء ، وفى عصور الأسرات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة بخاصة ! ولكنها عادت فصارت حقا للنساء ، فى عصور

---

(١) يرى بعض المؤرخين أن اتباع الاله ست الشرير كانوا يعتنقون هذا المبدأ تشبها بالههم ست الذى تزوج اخته نفتيس ! ومع ذلك فلم يكن غريبا أن يتزوج ست من أخته فقد تزوج الاله أوزيرس الخير من أخته ايزيس كما جاء جاء فى قصة ايزيس وأوزيريس وست المشهورة •

(٢) لقد تزوج سنفرو من حتب حرس ابنة سلفه الملك حو وأعقب منها الملك خوفو العظيم •

(٣) يرى البعض أن النساء ظللن يتمتعن بذلك الحق فى عهد الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين •

الأسرات الثمنه عشرة والتاسعه والعشرين والواحد والعشرين (١) وما كان تولى ملوكها العرش مرهونا بالزواج من وريثاته الشرعيات ٠

وقد ابتدعت الأسرة الخامسه والعشرين قانونا يقضي بمشاركه الأخوات اخوتهن في وراثة العرش حتى ولو كن كاهنات ! ولقد كان يتبع هذا النظام نظريا في عهد الأسرة السادسه والعشرين ! فقد كان الملوك يتزوجون زواجا صوريا من وارثات العرش ، قبل توليه ! وقد كان الملك يقيم في مقر الملك في الشمال بينما تقيم الملكة شريكته في الملك في طيبة متربعة في منصب كاهنة عظمى ! ولم يكن آنذاك مانع قانوني يحول دون الملك وزواجه من أخرى ! وكثيرا ما كانت أولئك الملكات الكاهنات يتبنين فتيات اذا لم يكن لهن بنات ! ٠

ويرى بعض المؤرخين أن قمبيز ملك الفرس عندما طلب القربى من ملك مصر امازيس (٢) بالزواج من أحد بناته كان يهدف الى أن يصير لأبنائه منها الحق في تولى عرش مصر ٠ ولما فتح قمبيز مصر كان عزاء المصريين أنه يمت الى ملوكهم بصلة النسب (٣) ٠

---

(١) يرى البعض أن النساء ظللن يتمتعن بذلك الحق فى الاسرتين الثانيه والعشرين والثالثه والعشرين أيضا .

(٢) هو الملك أحمس الثانى من ملوك الأسرة السادسة والعشرين ! وقد كان أحد كبار الموظفين فى بلاط سلفه الملك ابريس فتآمر عليه ونجحت المؤامرة ، فنحاه وخلفه على عرش مصر :

(٣) يقول هيرودوت أن قمبيز أراد أن يتقرب من الملك امازيس (هكذا ينطق الاغريق لفظ أحمس المصرى) فارسل اليه يطلب يد ابنته ، فأرسل اليه الأميرة نيتيتس ابنة الملك المخلوع ابريس بدلا من ابنته ، وأن قمبيز كشف خدعته ، فحلف قمبيز أن يعاقبه عقابا صارما .

ولما تولى البطالمة حــكم مصر اتبع ملوكهم نظـام الزواج من أخواتهم ، فتزوج بطليموس فيلادلفوس أخته أرسينوى على الرغم من استنكار مواطنيه المقدونيين ذلك ! واستمر اتباعهم لذلك التقليد طوال عهد حكمهم لمصر ، فكان العرش والحال هذه كممتلكات الأسرة الأخرى يتوارثه عمليا أو نظريا فـرد من أفـراد فرع الأم ! وكان يتزوج الاخوة أخواتهـم الشقيقات أو غـير الشقيقات الوارثات الشرعيات للعرش ، ليصبحوا ملوكا ممثلين الاله رع أو الاله أمون على الأرض ! فلقد كان معنى اسم الملك توت عنخ أمون ، الصورة الحية لآمـون ! ولما ادعى الكهنة المصريون أن الوحى نزل عليهـم وانبـأهم بأن الاسـكندر هو ابن الاله آمـون صـدقهم المصريون فتوطدت دعائم سلطان ذلك القائد المقدونى المظفر على عرش مصر •

وكل ما سبق ذكره ينعلق بالناحيه السياسيه المبحتة الخاصـة بوراثة العرش ! ولا علاقه له بمن يتخذهم الملوك زوجات لهم من نساء مصر ، أو من بنات الأمراء أو الملوك الأجانب اللائى يتزوجوهن زواجا سياسيا • ومن أشهرهن الفجر ابنة ملك الحيثيين التى أضفى عليها لقب « الزوجة الملكية العظمى ، سيدة الأرضين معات نفرورع ، (Moat-nefro-Ra) ابنة عاهل خيتا (١) العظيم •

(١) خيتا هى التسمية المصرية القديمة للحيثيين •

ولقد صورت حياه الحريم على آثار تل العمارنة ، فنرى في الصورة الفتيات الحسناوات يرقص بعضهن ، ويعزف على الآلات الموسيقية بعضهن ، وتصفف بعضهن شعورهن ، وتتناول بعضهن الآخر الطعام! كما ترى بعض غرف المنازل وقد صفت فيها المقاعد وزينت بالمرايا ! ووضعت في جوانبها الصناديق !

ولقد كان تعدد الزوجات متبعا بين ملوك مصر كما كان متبعا بين معظم ملوك الأقطار الأخرى !

ولقد برهنت الحوادث ومجريات الأمور في عصور كثيره على أهمية زواج الملوك المصريين بأميرات أجنبيات كرابطه من أقوى الروابط وأفضلها ، التي من شأنها أن تدعم التحالف السياسي بين مصر والأقطار الأخرى .

وقل أن نرى أطفالا من زوجتين أو أكثر لأسر الطبقات العالية التي تركت آثار ممثلة في عدد من التماثيل ، غير أن أكبر مجموعة من تلك التماثيل الأثرية ، تمثل زوجة رب الأسرة الأولى ، وكانت عاقرا ، وبجانبها خمس زوجات أخريات لهن كلهن أطفال ، وكان عددهم اثنى عشر ، خمسة بنين وسبع بنات . ويبدو أن الزوجة الأولى تزوجها رب الأسرة على الرغم من أنها لم تكن آنذاك في مقتبل العمر لأسباب اجتماعية ، اذ أنها كانت احدى المزينات الملكيات ، على أن تعدد الزوجات لم يقف عقبة في مصير الأبناء ،

فقد كانوا يعتبرون جميعا أبناء شرعيين ، مهما كانت منزلة الأم التى أنجبتهم ! على أن الكهنة أو القساوسة كانوا يتزوجون بواحدة ! وكذلك كان الشأن بالنسبة لعامة الشعب !

ولقد كانت حقوق الورثة الشرعيين تحاط بعناية كبيرة فقد كانت تحددها وتبينها وثائق ومستندات رسمية ! ولقد عثر الباحثون على وصية لأحد أبناء خفرع أحد ملوك الأسرة الرابعة وبانى الهرم الثانى ، يوصى فيها لابنته بضيعتين ، ولما توفيت وهو على قيد الحياة ، أوصى بها لزوجته ، أما ممتلكاته الأخرى فى أربع عشرة قرية من قرى الريف ، فقد أوصى بها لزوجته وأبنائه موضحا فيها نصيب كل منهم ! •

ولدينا بعض الوصايا والوثائق فى حال جيدة ترجع الى عصر الأسرة الثانية عشرة ، منها وثيقة يرجع تاريخها الى السنة التاسعة والعشرين من حكم الملك أمنمحات الثالث تتضمن شراء آحى سنب ابن شبست أمرأتين اسيويتين من قبيلة العامو وطفليهما ، وقد وجدت مسجلة فى مقبرة الوزير خيتى •

وبعد ذلك بخمسة عشرة عاما أى فى السنة الرابعة والأربعين من حكم ذلك الملك نفسه ، نجد وثيقة تملك ، أو وصية ، أوصى فيها آحى سنب والشهير بعنخ رن بجميع ضياعه وممتلكاته الأخرى من منازل وعقارات أخرى وما ملكت يداه لأخيه ورفقاء حياته المخلصين •

ويبد وأن آحى سنب صاحب الوصية قد توفى بعد كتابه وصيته بوقت قصير ، ويتبين ذلك من تسجيلها بعد مضى أربعة أشـهر فى مصلحة السجلات ، ومن تسجيل أخيه واح وصية يوصى فيها بجميع ما أوصى له به أخـوه لزوجتـه شـفتوتيتا (Sheftu-Teta) وذلك بعد مضى خمسة أيام فقط من تاريخ تسجيل وصية آحى سنب ! ومما ذكره واح فى وصيته لزوجته انها حرة فى أن تهب ذلك الميراث حال حياتها أو توصى به بعد موتها لمن تشاء من أبنائها الذين انحدروا من صلبى ! ومنها انى أوصى لها بالاربع الاماء الاسيويات من قبيلة العامو اللاتى ورثتهن من أخى « عنخ رن » وهما الرقيقتان وابنتاهما اللائى سبق ذكرهن ، ولابد أن تكون الابنتان قد بلغتا آنذاك السابعة عشرة) .

ثم يوصى بأن يدفن فى مقبرته الخاصة ، ومعه زوجته دون سواها ! .

وقد عين صـديقا له يدعى جيبو وصـيا على ابنه ، ويأتى بعد ذلك أسماء الشهود الثلاثة على ما جاء بهذه الوصية ! .

وهذا يلقى بعض الضوء على نظام الرق فى مصر القديمة(١)

---

(١) لقد انتشر نظام الرق فى مصر فى عصرى الدولتين الوسطى والحديثة ، لانهما كانا عصرى الفتوحات المصرية العظيمة التى شملت ربوعا كثيرة من الشرقين الادنى والاوسط وقد عادت الجيوش المصرية الظافرة بعد استيلائها على اقطار كثيرة بعدد كبير من الاسرى ـ رجالا ونساء وأطفالا ـ فكانوا يباعون ويؤجرون ، شأنهم شأن السلع والبضاعات . وكان الملك الغازى يتركهم لمن أسرهم تارة ، وتارة يوزعهم جميعا على الجنود الغازين جميعا .

ذلك أنه كان لكل من هاتين المرأتين الرفيقتين من العامو طفلة واحدة وقت شرائها ، وبعد مضى خمسة عشر عاما ظل عددهن فى الوصية الثانية أربعا ولم يذكر معهن أطفال آخرون ! وهذا دليل قاطع على أنهما لم يتزوجا ، ولم يتسرى بهما أحد .

وان أقدم وثيقة لعقد الزواج المصرى عثر عليها الأثريون يرجع تاريخه الى سنة ٥٩٠ق.م وبما أن نصه يتفق تماما مع نص عقد آخر عثر عليه ويرجع تاريخه الى سنة ٥٥٠ق.م، فانا نرجح انهما كانا نموذجا ظل متبعا حقبة طويلة . وفى هذا العقد نص على أن « ا » قد حضر الى منزل « ب » ليطلب يد ابنته (ج) ، على أن يقـــدم (ب) ٦ أوقيات من الفضة وخمسين مكيا لا من الحنطة كدوطة لابنته «ج» ، وأن يتعهد (٣) بأنه اذا هجر زوجته (ج) كارها أياها ، أو بسبب رغبته فى الزواج بأخرى،يقوم برد الدوطة ، ويستثنى من ذلك هجره أياها لارتكابها جريمة الزنا ! وبأن يورث من تنجبه له من الأطفال نصيبا بذكر مما تركه له والداه .

ولقد كانت تلك « الدوطة » تقدر بحوالى عشرين جنيهـا مصريا (١) .

ولقد قدرت دوطة أخرى بنحو ثلاثين جنيها ! .

---

(١) مقدرة بما يساويه الجنيه المصرى وقت تاليف الكتاب أى فى سنة ١٩٢٣م

وقد تسلمت احدى البنات عند زواجها ، من أبيها دوطـــه فدرت بكات واحــد أى بحوالى جنيه واحــد ! وقد تعهدت بدفع نصف مقدار الدوطة فوق الدوطة نفسها لزوجها اذا هجرته !.

ولقد كانت صـــيغة الطلاق المصرى كالآتى : لقد هجرتك كزوجــة لى ، واننى أفارقك وليس لى مطلب على الاطلاق ! كمـا أبلغك أنه يحل لك أن تتخذى لنفسك زوجا آخر متى شئت ، وفى عقد زواج ليهودى من اليهود الذين كانوا يســـكنون الفنتين (١) يرجع تاريخه الى ٤٤٧ ق . م ما يأتى .

أشور يتزوج مفتاحيا ابنة محســيا . ويعطى محســيا الزوج خمسة شاقل (٢) « ويعلق على ذلك بقوله له « لقد تقبلت هذه الهبة وأطمأن قلبك الى ذلك ، ويقدم محسيا لابنته الملابس وأدوات الزينة، كما يقدم للزوج هدايا محددة أثمانها فى العقد ، فاذا مات آشــور من غير أن ينجب من مفتاحيا فسوف يؤول اليها كل أملاكه ! والأمر بالعكس ! .

---

(١) هى جزيرة واقعة أمام مدينة أسوان ، وقد سماها الافريق بهذا الاسم وهو تحريف للاسم المصرى القديم آبو أى جزيرة الفيل ، وقد يكون السبب فى ذلك كثرة سن الفيل بها فى عهدهم ! وكان يقطنها جالية يهودية كبيرة فى العصر الفارسى .

(٢) الشاقل عملة بابلية تساوى نصف أوقية من الفضة تتراوح قيمتها بين ريالين ونصف الريال وخمسة ريالات وكانت هذه العملة منتشرة فى فلسطين والشام ! ويبدو أن سكان فيلة اليهود وقد جاءوها مطرودين من بلادهم بعد أن دمرها ملوك بابل وآشور ، قد احتفظوا بالتعامل بتلك العملة البابلية .

واذا مثلت الزوجه أمام القضاه وقالت : انى أطلق أشور زوجى فان عليها آنذاك أن ترد له الشاقلات الخمسة ، كما تدفع له كلما أعطاه لها من نقود وتعيد له ما قدمه من هدايا ! وعندئذ تكون حرة طليقة تذهب الى حيث تشاء ! والأمر بالعكس .

أما اذا طرد أشور مفتاحيا من بيته من غير أن يطلقها حق عليه أن يدفع لها مبلغا وقدره عشرون كبهز (Kebhes)

ويقر آشور فى العقد أنه لا يحق له أن يصرح بأن له زوجة أخرى غير محسيا ولا بنين غير بنيه منها ! واذا ما صرحت بذلك فانه يجب على أن أدفع لها خمسة عشر ضعف ما لها :

ثم يلى ذلك توقيع أربعة شهود :

كما وجد عقد زواج آخر يرجع تاريخه الى عصر البطالمة ، تشابه شروطه شروط العقد السابق ! ففيه قدم الزوج الى الزوجة مهرا مقداره خمسة جنيهات (١) ، وتعهد أن يعطيها راتبا شهريا مقداره عشرة شلنات ثمنا لأدوات زينتها ، ومثله لنفقاتها الشخصية ! وفيه يقول للزوجة : ان ابنك البكر منى سوف يرث كل ما أملك من عقار فى الحاضر والمستقبل وانى أقر واعترف أنك زوجتى ، فاذا أهملتك أو اتخذت لنفسى زوجة أخرى غيرك فسأدفع لك ما يساوى

---

(١) مقدار القيمة بالجنيه المصرى وقت صدور هذا الكتاب سنة ١٩٢٣ .

مائة من الجنيهات (١) ، كما أقر أن عقود التملك الخاصة بنصف ممتلكاتي التي ورثتها عن أبي ، وكذلك عقود الممتلكات التي ورثتها من أمي سوف تؤول اليك ..

ولم يرد في العقد شيء خاص بالطلاق ! ولكن جاء ذكر غرامة يدفعها الزوج في حالة فسخ عقد الزواج ! وفي عقد آخر كان المهر سبعة جنيهات وغرامة هجر الزوجة ثلاثين جنيها (٢) وقد عثر على وثيقة زواج يرجع تاريخها الى العصر القبطي وكانت لابن أحد القساوسة ، جاء فيها :

بما أن مشيئة الله قد اقتضت أن يرتبط أحدنا بالآخر برباط الزواج المقدس الصحيح وفقا لتقاليد الرجل الحر والمرأة الفاضله، فاني أعطيك مهرا مقداره ستة عشر شلنا (٣) ذهبا ، لكي تجيء الى بيتي كأمرأة حرة ، على أني أقدرك كأنك قطعة مني ، فلا أقلل من شأنك ولا أهملك ، ولا أهجرك الا اذا اضطرني سبب شرعي هام(٤) فاذا حدث ذلك فسأقوم بدفع سبعين شلنا لقاء ذلك ! وبالعكس .

وهذه المبالغ مقدرة قيمتها بالعملة الحالية تساوي ثمانية جنيهات للمهر ، وثلاثين جنيها للطلاق .

وكما نجد عقدا يرجع تاريخه الى القرن الثاني عشر ، ينص

(١ ، ٢ ، ٣) بالعملة المصرية في سنة صدور الكتاب وهي سنة ١٩٢٣ .
(٤) لعله يشير الى رهبنة الزوج .

على أن المهر مائة سوليدى أى خمسمائه جنيه ، على أن يدفع خمسها فورا ، ويدفع الباقى فى خلال خمس سنوات •

وهناك عقد يرجع تاريخه الى سنة ١٢٨٠ م ، وشروطه مطابقة لشروط العقد السابق !

من هذا نرى أن المصريين كانوا يعتقدون فى جميع عصور تاريخهم المختلفة حتى العهد المسيحى ! أن وثيقة الزواج لم تكن الا عقداً كغيره من عقود الصفقات التجارية الأخرى خسارة فادحة للطرف الذى يقوم بفسخه !

وكثيرا ما كان ينص فى العقد على اعادة قيمة ما دفع من المهر والهدايا فقط من غير جزاء على فاسخه ! ولكن ما جاء القرن الرابع للميلاد حتى كثر النص فى العقود على غرامات كبيرة لمن يقوم بفسخها ! ولعل ذلك التغيير يرجع الى التأثير الاغريقى !

وليس فى كل عصور التاريخ المصرى حتى فى العصر المسيحى، أثر ما لزواج دائم أبدا ، لاتنفصم عراه ، كما أنه لم نستدل على ما يشير الى اقامة أحفال دينية خاصة بالزواج ، أو الى وجود نوع من الطقوس خاصة به ! وربما كان هناك أحدهما أو كلاهما ، ولكن لم يسجل عنهما شيء مطلقا لا فى عصور مصر الفرعونية ولا فى عصر البطالمة الذين كانوا يعنون عناية كبيرة بالحفلات المختلفة !

ويقول ديودورس :

لقد كانت عقود الزواج فى مصر تنص على منح الزوجه السلطة على زوجها ، وكان الازواج آنذاك يتعهدون باطاعة زوجاتهم فى كل ما يؤمرون به » (*)

على أننا لم نعثر على أى أثر يدل على ذلك فى العقود التى نعرفها ، ويحتمل أن يكون منشأها مبالغة لاحدى الزوجات الوارثات بادعائها حق القيام بادارة ممتلكاتها بدون معارضة أحد من أقارب زوجها •

وعلى الآثار المصرية نرى الزوجة المصرية على قدم المساواة مع زوجها ! وقد كانت الزوجة فى اعتقاد المصريين ضرورية لزوجها فى الحياة الآخره ! وقد كان يوضع فى قبور الرجال تماثيل أو رسوم لزوجاتهم ، واذا عز ذلك كان يستبدل بها نماذج من الفخار عليها صورة الزوجة ! •

ولقد منح القانون للمرأة المصرية حرية التعامل اذا كانت تعرف القراءة والكتابة ••• واليك مثل لذلك أورلياثيسوس (Aurelia Thaisous) وشهرتها لوليانا ، ابنة أحد كتبة الأسواق المتقاعدين ، تذكر فى طلب لها لجهة من جهات الاختصاص أنها قادرة على الكتابة بسهولة تامة ، ولهذا فان من حقها أن تتصرف فى شئونها بنفسها • وبعد مضى أربعة أعوام ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٧ ق•م تجدها قد قامت بشراء منزلين وقطعة من الأرض •

ولما كان الزوج مسئولا عن الوفاء بديون زوجته ، فقد كان السبيل آنذاك الى التخلص من الأفلاس أن يقوم بطلاق زوجته ، بعد أخذه لما دفعه لهـا من مهـر ، ثم تعلـن افلاسـها فيما يختص بممتلكاتها (١) ، ثم يعود فيتزوجها ثانية ، على أن يحرر وثيقة ، قبل اتمام عقد الزواج الثانى تخوله حق الحجز على ممتلكاتها بحيث اذا حدث طلاق جدى بينهما فيما بعد لا يفقد الزوج حقه فى المطالبة بقيمة الصداق الذى دفعه للزوجة • على أن الحقوق الشرعية لذريتهما كانت تلقى كل رعاية خلال تلك التطورات •

وكان فرع الأم يوضـع موضـع الأعتبار الأهم فيما يختص بالنسب ! فقد كان اسم الأم يذكر دائما ، أما اسم الأب فكثيرا ما يغفل ذكره ! وكان الابناء اذا انتسبوا يذكروناسماء أسلاف أمهاتهم، لا أسلاف آبائهم ! ولم يكن الأب الا حامل لقب ، أما الام فكانت واسطة عقد الاسرة ! ويستثنى من ذلك شاغلى بعض الوظائف التى يرثها الأبناء بحكم القانون عن آبائهم أباً عن جد ! فانهم كانوا ينسبون الى الآباء لا الأمهات وكانت الممتلكات العقارية يرثهـا الابنـــاء عن الأمهات سيدات البيت !

---

(١) فى ذلك العهد كانت تركة الاب تنتقل بعد موته الى أولاده وأولاد اولاده، ولم يكن هناك قانون يمنع توريث الحفيد اذا مات أبوه ، كما كانت التركـة تؤول اذا لم يكن للمورث أولاد ولا أحفاد الى الاخوة والاخوات كما كانت انصبة الأولاد فى الميراث متساوية ، ولم يكن هناك تمييز بين الذكور والاناث ا•

ولقد كانت مكانة الخـال ووالد الأم تسـمو مكانة العم ووالد الأب •

ولقد رأينا فى الفصل الأول أن توارث مختلف الصناعات والحرف لم يتقيد قط بنظـام الطبقات ، بيد أن العـرف كان يقف أمام كل شخص حائلا اذا أراد الخروج عن نطاق مهنة والده •••

ولقد كانت الوظائف الدينية بخاصة يرثها الأبناء عن الآباء بسبب ما تتطلبه اقامة الطقوس والشعائر الدينية من تدريب دقيق فضلا عن أنها كانت دائما موضع التبجيل والاحترام ومصدر هبات ومنح لمتقلديها ! ولقد كان أهم استثناء لهذه القاعدة تنصيب الملك أحد أبنائه فى منصب من المناصب الدينية الرفيعة كمنصب الكاهن الأكبر لمنف أوهليوبوليس ! •• ويحدثنـا أحـد الكهنة فى عصر الأسرة التاسعة عشرة بقوله :

لقد تعطف الملك وقرر بعدما تبين له أن أبنائى قد انحدروا من صلبى أن يعينهم كهنة يعملون تحت رعايته السامية • اننى الكاهن الأكبر للاله آمون ، فأصبح ابنى كاهنا ثانيا لى فوق وظيفته كمدير مساعد للقصر الملكى ! وسوف يمنح حفيدى منه ألقاب الكاهن الرابع لآمون والأب المقدس ، والقس •

ولقد شاهد هيرودوت فى منف مجموعة من التماثيل الخشبية

يبلغ عددها ٣٤٥ تمثالا ! وقد أخبره مرشده أنها لكبار كهنه الاله بتاح ، الذين توارثوا هذه الوظيفة ابنا عن أب ! .

وقد كان منصب الكاهن الأكبر لبتـاح فى العصر الرومانى مقصورا على الابن الأكبر وكان الابناء الآخرون يعدون خارجين على القانون ان "هم" أحدهم بتولى ذلك المركز .

ولما كانت وراثة العقارات الثابتة تنحدر عن طريق الأم ، كان من الطبيعى أن يقع واجب كفالة الوالدين احدهما أو كليهما على عاتق بناتهما دون أبنائهما ! .

ولقد كان هذا الأمر من الأمور التى أثارت دهشة الاغريق الذين كانوا يزورون مصر .

ولقد سبق ذكر قصة ابن الملك خفرع (١) وما ورثه من ممتلكات عقارية وهناك حالة لاحقة لذلك التاريخ تختص بكاهن يسمى « نكعنخ » (٢) الذى كان له الحق فى أن يوصى بما يشاء من أملاكه! لقد أراد نكعنخ هذا أن يوصى بضيعتين يملكهما لأولاده من بعده

---

(١) كان كاهنا للالهة حاتحور فى عهد الأسرة الخامسة ، وقد اشتهر بتلك الوصية التى سجلها على احد جدران مقبرته ! وقد ذكر فيها أن ملكيته لهذه الاراضى ترجع الى عهد الملك منقرع ! وانه عين كاهنا فى عهد الملك أوسركاف .

(٢) ورث عن جده وكان يدعى خنوكا احدى هذه الضياع ! وتقدر مساحتها بنحو ٤٠ فدانا أما الضيعة الاخرى وكانت مساحتها نحو ٤٠ فدانا أيضا وهبت له كمرتب من الدولة مقابل قيامه بأعباء وظيفة كاهن للالهة حاتحور .

على أن يقسمان بينهم بالتساوى ، كما أوصى أن يقوم كل منهم بوظيفة كاهن التى يشغلها لمدة شهر بالتناوب (١) ! والى جانب ذلك وضع شروطا للتصرف فى أملاكه الخاصة (٢) .

وفى عصر الأسرة الثانية عشرة كان العرف يفرق بين الضياع التى يرثها الأشراف عن آبائهم التى كان يحق لهم أن يوصوا بها لأبنائهم ، وبين الضياع الحكومية التى كانت يمنحها لهم الملك طول حياتهم جزاء لهم على اخلاصهم وولائهم له ! .

وكثيرا ما كان الأب المورث ينص فى وصيته عدم تصرف الورثة فيما نركه لهم من ممتلكات بالبيع أو التجزئه كما لو كانت موقوفه ! وكان يذكر فى بعض عقود التوريث « انها موروثة لشخص واحد ، ولا تورث الا لشخص واحد » وكان أحيانا يعين الشخص الثانى بأن ينص على أنه « الحفد ، أو الحفيدة » ! .

(١) وضع نكعنخ فى وصيته التزامات وظيفته بوصفه كاهنا أعظم للالهة حاتحور فى يد جماعة من أسرته تحت اشراف ابنه الاكبر ، وبذلك أصبح جميع أولاده يستفيدون من وظيفته ، على أن يقوم بالعمل بأعباء وظيفة الكاهن الأعظم للالهة حاتحور ، كما وزع بينهم القيام بالشعائر الدينية التى يوهب ثوابها لجده خنوكا الذى ورث عنه الضيعة الأولى .

(٢) كان نكعنخ يملك عشرين فدانا ، وضعها على ان يصرف ربعها على اقامة شعائر دينية يوهب ثوابها له بعد وفاته ، ووكل مهمة القيام بها لأربعة من أولاده لم يذكروا فى الوصيتين السابقتين ، ويبدو أنهم من أم غير أم ابنائه الذين ذكروا فى الوصيتين !

وكان من أهم واجبات الابناء تقديم القرابين الى أرواح آبائهم وأجدادهم كما هو الشأن الآن فى الصين والهند • وكان الابن الأكبر يلقب بعائل أمه (ايون ـ موت ـ اف) وكان يلبس جلد النمر عندما يقوم بتقديم القرابين الجنائزية لروح والده ! •

وفى ذلك يقول الأمير زاو الثانى (١) :

لقد احتفلت بدفن والدى الأمير زاو فى موكب فخم فاق كل مواكب الأحفال التى أقيمت لأقرانه من أمراء الجنوب ! فلقد توسلت فى ذلة وخضوع السائل الى صاحب الجلالة مليكى نفر كارع ، عاهل الوجهين القبلى والبحرى أن يأمر بصرف تابوت وأقمشة ، وقدر من العطور من الخزانة الملكية من أجل والدى زاو المتوفى زد على ذلك أنى هيأت كل شىء بحيث يجمعنى وأبى زاو مقبرة واحـدة حرصا منى على البقاء دائما الى جواره • ولم يمنعنى من بنـاء مقبـرتين احداهما له والأخرى لى ، نقص فى مواردى المالية ، وانما دفعنى الى بناء مقبرة واحدة رغبتى فى التمتع برؤيته كل يوم •

ولقد منح زاو الثانى كل ما طلبه من مليكه فى سهولة ويسر ، ولعل السبب فى ذلك أن أباه زاو الأول كان أخا لزوجتى الملك بيبى الأول •

ولقد كان حقا على الأبناء عند تشييع جنازة آبائهم أن يطرحوا

---

(١) عاش ذلك الأمير فى عهد الملك بيبى الثانى •

الثيران أرضا ثم يقوموا بحرها ، وانك لنشاهد صور هؤلاء الابناء وهم يفعلون ذلك ! واسماؤهم منقوشة على جدران مقابر آبائهم ! وكانوا يقومون عدا ذلك بصيد الطيور وتقديمها قرابين لهم ! وهذا ما فعله الملك رمسيس الثانى لأبيه الملك سينى الأول ! كما هو مصور على جدران معبد أبيدوس •

وكان المصريون القدماء ينظرون الى تعليم الابناء كأنه واجب تمليه عليهم محبتهم لهم ! •

ولقد قال أحد حكماء الأسرة الخامسة :

اذا كنت رجلا ناجحا في عملك ، ووهب لك الاله ولدا من فضله وكرمه ، فاذا سلك هذا الولد سراطا مستقيما واقتفى فى الحياة أثرك ، وسهر على رعاية مصالحك •• فعليك أن تمنحه كل ما تستطيع من بر وعطف ورعاية ، ولابدع فانه ولدك الذى سوف يخلفك فى حمل شعلة روحك المقدسة ، وهى روح الآباء والأجداد التى حملتها قبله ، ولا تدع قلبك ينصرف عن محبته مهما كانت الأسباب التى قد تدعوك الى ذلك •

ولقد كان الأطفال يلفون في لفافات من الأقمشة منذ نعومة أظفارهم وتحملهم الأخوات الكبريات أو الأمهات وراء ظهورهم تارة وعلى صدرهم تارة أخرى ، وكان من أحب وسائل التسلية الى نفوسهم عندما يشبون عن الطوق صنع لعب من الصلصال على

هيئات مختلفه ، وهم يمرحون ويلعبون على جوانب الترع والقنوات القريبة من قراهم الريفيه ، كما يفعل اليوم أبناء بعض القبـــائل الافريقيه ! وكانوا يحملون أحسن ما يصنعونه من اللعب الى بيوتهم للتسلية بها فى أثناء وجودهم فيها •

واذا اتيحت لك فرصـة وشاهدت صـور بعض منازل قدماء المصريين على جدران معابدهم ، لرأيت فى داخل بعضها صور لعب أطفال على هيأة تماسيح وخنازير وأغنام ورجال وقوارب وتوابيت وموميات •

وان صنع نماذج للاشخاص أو للأشياء لم يحرمه الاســلام تحريما قاطعا ، فقد شاهدت منظراً لصبى يجر كتلة من الصلصال ثبت عليها أربعة عصى ، نشرت فوقها قطعه من القماش ، وهو يفسر ما تعنيه تلك اللعبة لأختـــه ، قائلا : هــذا هو هودج العروس • وكان يوجد غيرما يصنعه الأطفال من لعب لأنفسهم أنواع أخرى من اللعب يصنعها الكبار لهم من الخشب من بينها دمى تتحرك ، بيد أن تلك اللعب لم تكن تثير اهتمام الأطفال كتلك التى يصنعونها بأيديهم !

وكان الأطفال المصريون يلعبون بالدوارة (١) وبكرات الجلد

---

(١) يقصد ما يسميه العامة بالنحلة •

المحشــوة ، وبكرات من الخشب ' وأخـرى من الجوارب القديمة المحشوة •

ولقد كانت تلك اللعب يستخدمها الأطفال المصريون في ألعابهم الى عهد قريب •

وكان الطفل في مصر الفرعونيه يبدأ حياته المدرسية في سن مبكرة ، كما هو الحال في مصر الآن ! ولا يمكن أن يكون لهذا النوع من الحياة المدرسية آنذاك أثر فعال في نشأة التلميذ لأنهـا لم تكن تؤهله الى استيعاب موضوعات دراسية عميقة ، اد كان هدا النوع من التعليم مجــرد مران رتيب للذاكرة ' كما هو الآن ' دون محاولة لفهم المعاني وادراكها • ولقد كانت بعض المدارس تلحق بدواوين الحـكومة المختلفة لاعـداد طائفة من الموظفين للنهــوض بالأعمال الحكومية •

ولقد كان يوكل الى الكهنة القيام بتدريس الموضوعات التى تتطلب بحثا عميقا كالكتابة الهيروغليفية والحساب والهندسة والفلسفة وعلم الأخلاق •

وأقدم كتاب من الكتب التى كانت مقررة دراستها في حوزتنا الآن هو الجزء الخاص بالتبرؤ من الخطايا والذنوب من كتاب الموتى المشــهور ، وهو يتألف من فصول ' يشــمل كل فصـل منها على خمسة بنود • وهى طريقة ابتدعها المصريون القدماء لتساعد الذاكرة

على الحفظ عن طريق العدد بالأصابع ، ويبدو أنه يرجع تاريخ تأليفه الى عصر ما قبل الآسرات ، وآية ذلك أنه خال من ذكر أى شيء يتعلق بواجبات الأفراد في الأسرة .

ولقد كانت ألواح الفخار أداة استعملها التلميذ المصرى للمرانة على الكتابة ، وما لبث أن استعمل لهذا الغرض تلك الألواح الفخارية بعد طليها بطبقة رقيقة من الجص لمنع تسرب الحبر الى مسامها . كما ساعد طلاءها على سهولة مسح الكتابة لاستعمالها مرة أخرى !.

والواقع أن جزءا كبير من انتاج المصريين القدماء الأدبى حفظته لنا تلك الألواح الفخارية التى عثر عليها فى بعض مقابرهم .

ولقد ورد فى قصة وقعت أحداثها فى عصر الأسرة الخامسة أن أية أمرأة من نساء الطبقة الرافية تستطيع قراءة الهيراطيقية (١) الخاصة بذلك العصر ، غير أن الكتابة بها لا ينقصها الا « كاتب قدير وعالم جليل » .

ولهذا كان يدرب من كان يريد الكتابة تدريبا دقيقا مضنيا لاحتوائها على مئات الرموز ! وآية ذلك أنه قد عثر علماء الآثار المصرية على كتابات ملأى بالأغلاط وغير واضحة المعنى ! الأمر الذى يدل على أنها صادرة من أشخاص غير محترفين للكتابة ! .

---

(١) تتألف حروف هذه اللغة من حروف اللغة الهيروغلوفية بعد اختصارها وحذف بعضها ليسهل على الكاتب استيعابها ، وكانت سائدة بين الكهنة ولذلك اطلق عليها الاغريق هذا الاسم ومعناه الخط الكهنوتى .

ولقد كان فى استطاعة العداد (١) المصرى فى عصور مصر الأولى أن يحصى السفن القادمة والراحلة وحمولاتها ، ويدون أسماء ما تحمل من بضائع وغيرها ! .

ولقد عثرنا على بعض الرسائل التى يرجع تاريخها الى العصر الرومانى قام بتحريرها الفلاحون تحتوى على أخطاء كثيرة ، كما عثرنا على كتابات فى الموضوعات المختلفة غير الرسمية تحتوى أيضا على أخطاء كثيرة على الرغم من صدورها من شخصيات كبيرة ! .

ومن الغريب أن ابنة كاتب لأحد الأسواق زعمت انها «تستطيع الكتابة فى سهولة ويسر » ذلك على الرغم من أن ابيها وغيره من الكتاب المحترفين لم يكونوا معصومين من الأخطاء فى عمليات الاحصاء التى كانوا مكلفين بها ، كما كانوا يخطئون أحيانا فى العمليات الحسابية من جمع وطرح ! .

ولقد كان أطفال الطبقات الراقية يذهبون الى مدرسة الحضانة التى كانت ملحقة بالقصر الملكى ، حيث كانوا يختلطون فيها بأبناء سيدات القصر وبالرهائن من أبناء أمراء سوريا ! .

وكان يشرف على تربيتهم هيئة كبيرة العدد من الوصيفات والاتباع ، وقد خصص للكبار من هؤلاء الأطفال معلمون كان يطلق

---

(١) الذى يقوم بعملية التعداد بجميع أنواعه من احصاء للسكان ، واحصاء حمولة السفن القادمة والراحلة : والمحاصيل المختلفة .

عليهم « الآباء المربون » الذين كان لهم حق الاشراف على تعليمهم وتنشئتهم . وقد سجلت لأولئك المعلمين فى مقابرهم رسوم وقد جلس على ركبتى كل منهم أحد الأمراء الصغار ! ولقد كانوا يمتازون بالقدره العلمية الممتازة ، ولم يكونوا دائما من ذوى الحسب الرفيع !.

ولقد كان سموت ذا مكانة رفيعة فى الدوائر الرسمية ، كما أشرف على تربية الأميرة نفرورع (١) ، ووريثة العرش ، على الرغم من عدم ورود ذكر لابيه وأجداده فى السجلات الرسمية ! .

ولقد كانت تنشئة الابناء فى القصر الملكى موضع فخر واعتزاز من جانب النبلاء ، وقد كانوا يشيرون اليها عند تدوين تاريخ حياتهم ! فيقولون انهم كانوا ممن أشرفوا على تربية أبناء الملك .

ولقد جرى العرف فى عصر الأسرة التاسعة عشرة على أن جميع الأطفال الذين يولدون فى يوم ميلاد ولى العهد لهم الحق فى تنشئتهم معه فى القصر الملكى ! وقد يكون علة هذا أنهم يشاطرونه نفس الطالع ، فيحق لهم أن يشاطروه نفس المصير ! .

وقد عثرنا على أحصاء لهؤلاء الأطفال يبلغون فيه ١٧٠٠ طفل ، ويبدو أن هذا الرقم صحيح ! فاذا علمنا أن نسبة المواليد كانت تبلغ فى مصر القديمة ٦٠ فى الألف كما هو الآن ، وأن ربع هذا العدد

---

(١) ابنة الملكة حاتسبسوت .

(٢) أى فى تاريخ صدور الكتاب ! .

يموت قبل بلوغ سن الالتحاق بالمدارس ، فانه يتحتم أن يكون عدد سكان مصر آنذاك ١٤ مليونا . وهذا يؤكد دقة المصادر التى كان يعتمد عليها المؤرخ المشهور ديودورس .

وان السبيل الذى كان يسلكه أى موظف مصرى منذ ولادته حتى يوافيه أجله يتمثل خير تمثيل فى تاريخ حياة باكن خنسو (Bakenkhonsu) فقد ولد قبل عام ١٣٢٠ ق م وبعد أن سلخ أربع سنوات من عمره فى دور الطفولة ، وأثنى عشر سنة فى دور الصبا تقلد منصب أحد كهنة آمون فى سن السادس عشرة ، واستمر متربعا فيه حتى سن العشرين ، ثم تقلد بعد ذلك منصب الأب المقدس لآمون ، لمدة اثنى عشرة سنة ، ثم منصب الكاهن الثالث لآمون من الثانية والثلاثين الى السابعة والاربعين ، ثم منصب الكاهن الثانى لآمون من السابعة والأربعين الى التاسعة والخمسين ، ثم منصب الكاهن الأكبر لآمون من التاسعة والخمسين الى السادسة والثمانين ، وكان تقلده هذا المنصب الأخير فى عهد رمسيس الثانى ، ولقد ظل يشغل ذلك المنصب الى عهد رمسيس الثالث ، الذى تولى عرش مصر فى (١) سنة ١٢٠٢ ق . م . وعلى ذلك يكون هذا الموظف قد عاش ١١٨ سنة على الأقل أى من سنة ١٣٢٠ ق . م الى سنة ١٢٠٢ ق . م .

---

(١) لأنه ولد قبل عام ١٣٢٠ ق.م ، وقد يكون مولده قبل ذلك ببضع سنين ، كما أنه حضر عهد رمسيس الثالث وقد يكون قد عاش فى ذلك العهد بضع سنين اخرى .

هذا ولم يتدهور التعليم فى مصر فى العهد الفارسى ، اذ أنه يؤثر أن دارا ملك الفرس أمـر باعـداد كافة الأدوات والآلات والأجهزة اللازمة لتـدريب الشبان المصريين على شـئون الطب والجراحة .

أما فى العهد الاغريقى فقد كان نظام التعليم يقضى بتنقل طالبى العلم المصريين من مختلف المدن لزيارة مشاهير العلماء لتلقى العـلم على أيديهـم ، ولكنه لم يلبث أن انهـــار بسبب الحـروب والاضطرابات التى حدثت بين الدول التى قامت عقب موت الاسكندر وانقسام امبراطوريته .

ولقد عانت مدينة الاسكندرية التى كانت عاصمة مصر آنذاك بسبب كثرة المذابح وأوامر النفى والتشريد التى حدثت فى عهـــد بطليموس البطين حوالى سنة ١٤٠ق.م وقد ترتب على ذلك انفراط عقد مدرســـة الفكر العظيمة التى كانت قد ازدهرت فى مدينـــة الاســكندرية ، فلاذ أساتذتهـا وعلماؤها بالفـرار الى مدن اليونان وجزرها ! وهناك أسسوا نهضة علمية جديدة فى مناطق كان يسودها التخلف الفكرى فى عهد حكم الرومان لها ! .

ان استعمال سكان أقطار البحر المتوسط للملابس أول مرة

---

(٢) هو بطليموس التاسع ، وقد اطلق عليه الاسكندريون لقب البطين من باب التهكم والسخرية لشراهته .

اتقاء للبرد القارس والحر اللافح لم يعم الا فى العصور الكلاسيكية ، أى فى عهدى دولتى الاغريق والرومان ! أى أنهم لم يرتدوها فى عصور ما قبل التاريخ ! •

أما فى مصر فقد بدأ استعمال الملابس فى عصور ما قبل التاريخ• وقد بدأ الرجل المصرى بالتحاف جلود الماعز ، ثم لم يلبث أن شد على وسطه حزاما (٣) • أما المرأة المصرية فقد كان أول رداء لبسته ثوبا ذا أهداب ، ومن الغريب أن ذلك الثوب ذى الأهداب لايزال يستعمله بعض نساء بلاد النوبة حتى الآن ! ثم أخذ المصريون يرتدون ملابس مصنوعة من أقمشة منسوجة من ألياف الكتان !•

ولقد كانت المرأة المصرية فى عصر ما قبل التاريخ وفى أواخر ذلك العصر بخاصة ترتدى أحيانا ازارا مصنوعا من خيوط الكتان البيضاء ، وكان ضيقا حتى ليكاد يلتصق بجسمها ، ومتدليا الى ركبتيها•

أما فى عهد الأسرة الأولى فقد كان المصريون يرتدون العباءات لوقايتهم من البرد ! وكانت تلك العباءات مبطنة أحيانا ! ولقد كان الملك والأمراء والنبلاء يلبسون تحت العباءات صدرات وقمصان قصيرة زيادة فى الوقاية من البرد ! أما العمال فقد كانوا يكتفون بقطعة

---

(٣) لقد كان يربط بهذا الحزام من الأمام مايشبه الجعبة أو الكيس لستر العورة ، كما تدل رسوم الرجال على لوحة نارمر المشهورة •

من القماش تلف حول الأرداف ويربط طرفاها فوق البطن ! وقد ظل ذلك شأن عمال الزراعة حتى عهد الأسرة الثانية عشرة !.

وفي عهد الأسرة الرابعة ابتكر صنع الثنيات (١) في أثواب الطبقة الراقية لتساعدهم على التحرك في سهولة ويسر ! ثم تطور شكل الرداء منذ ذلك العصر حتى عصر الأسرة التاسعة عشرة ، حتى أصبح يثبت بحمالة ترتكز على الكتفين أو يمتد من الخلف فوق الظهر ، ثم يثبت الى الصدر بحمالتين ترتكز على الكتفين . وقد استعملت الحمالات المتقاطعة في بعض الملابس التي كان يرتديها المصريون في عصر الأسرة الثانية عشرة وما بعدها ! بيد أن تصوير ذلك الزى المبتدع على جدران المقابر وعلى الآثار القديمة الأخرى لم يساير ذلك التطور الكبير الذى حدث في حياكة الملابس وتفصيلها . وما جاء عصر الأسرة الخامسة حتى بدأت النسوة يرتدين فساتين ضيقة جدا ، وطويلة بحيث تصل الى الكعبين ، ولها أكمام ضيقة ولها فتحتان عند العنق ، واحدة من الأمام والأخرى من الخلف ، تسهلان لهن ارتداءه ، وكان لكل من هاتين الفتحتين شريط يستعمل في ضم حرفيها عند الحاجة !.

ولقد كان المصريون منذ العصور الأولى وبخاصة الذين كانوا

---

(١) يخالف أرمان ذلك اذ يقول فى كتابه مصر والحياة المصرية ص ٢١٦ ان التجديد الذى ادخل على الرداء فى الأسرة الرابعة هو زيادة طوله واتساعه ! أما الثنيات فلم تصنع الا فى أواخر عصر الاسرة الثامنة عشرة .

يزاولون حرفا يتعرضون فى أدائها لرطوبة الماء وبرد الهواء ، كانوا يلفون أجسامهم برداء يقيهم منهما ! بيد أن هذا الرداء كان قصيرا الى درجة أن أطرافه السفلى لا تصل الى الأرداف ، وكان لذلك يقصد به وقاية الجسم من البرد لاستره .

ولقد أدخلت فى العصور التالية زيادات وتغييرات فى الملابس جريا وراء ستر الأجسام وحب المظهر ! ولقد كان الزى الرسمى للموظفين يختلف جد الاختلاف عن ملابسهم العادية . وكان الوزراء يرتدون دثارا سميكا طويلا ، يتدلى الى الكعبين .

وكان من عادة المصريين منذ عصور ما قبل التاريخ أن يحلقوا شعر رءوسهم ويضعون شعورا مستعارة عند تعرضهم لحرارة الشمس .

ومهما يكن منشأ هذه العادة ، فقد استمر اتباعهم لها فى أثناء عصور تاريخهم الطويل . ولعل سبب ذلك حرصهم على نظافة رءوسهم ! .

وكانت النساء المصريات يقصرن شعور رءوسهن ويضعن فوقها شعرا مستعارا (١) . ولقد كانت الفتيات والسيدات المصريات وفى عهدى الاسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة بخاصة ، يصففن شعور رءوسهن ويصنعن منها ثلاث جدائل اثنتان يتدليان من الأمام ، وواحدة تتدلى من الخلف ، وفى حالات نادرة كان يحلق شعر الرأس الأمامى للخادمات ولا يترك منه الا خصلة واحدة على قمة الرأس ! .

الفصل الخامس

موارد البلاد المختلفة وتجارتها الخارجية

موارد البلاد المختلفة وتجارتها الخارجية

نكتب فى هذا الفصـــل عن الموارد الطبيعية للغذاء والكساء فى مصر الفرعونية ، أى عن منتجات أرضها ووسائل توزيعهـــا فنقول :

لقد كانت فصول السنة فى مصر القديمة أساسا لتنظيم أعمال سـكانها ، ولا تقتصر أثر هذه الظاهرة الطبيعية على شئون الزراعة فحسب ولكنها كانت تشمل المظاهر المختلفة للنشاط البشرى . ويرجع ذلك الى أنه كان يوجد آنذاك فترة جفاف شديد وجدب يشـمل البلاد من أقصاها الى أقصاها ، تتبعها فترة يفيض فيها ماء النيل ، يعقبها نماء ومحصول وفير . ولقد عرف المصرى القديم من تجاربه الطويلة المواعيد الآتية :

وهى أن مياه النيل تنخفض الى أدنى مستوى لها فى شهر يونيه،

ثم تأخذ في الارتفاع في مستهل شهر يوليه ، وتستمر في الزيادة خلال هذا الشهر ، ثم تبلغ مداها في الثالث والعشرين من شهر أغسطس فيحتفل المصريون بوفاء النيل ، ويقومون بفتح الترع والقنوات لري أراضيهم ، وقد يستمر مستوى الفيضان عاليا الى أواخر شهر أكتوبر ، ثم يأخذ مستوى مياه النيل في الانخفاض حتى لا يبقى على سطح الأراضي الزراعية قطرة ماء .

ويترك ماء الفيضان وراءه بعد انسلاحه عن الأرض طبقة من الغرين المخصب عليها ، وعندما تأخذ تلك الأراضي في الجفاف وتتحمل ثقل الانسان ، يخرج كل فلاح الى أرضه ، ويبذر فيها الحب ، ويغطيه بآلة ابتدعها يطلق عليها أهل الصعيد الآن اسم اللوح ، ولا يمضي أكثر من اسبوعين حتى يأخذ النبت الصغير في الظهور ، وتبدو الأرض مخضرة الجنبات ، وكانت هذه الظاهرة تعتبر تباشير الفصل الأول من فصول السنة ، وهو فصل النماء أو الانبات(١) .

---

(١) كان المصري يقسم السنه الزراعية ثلاثه أقسام متساوية ، تقابل ثلاث مراحل مختلفة في زراعة الارض : فالفصل الاول الشتاء ؛ وكان يبتدىء من أواسط أكتوبر الى أول فبراير ، وفيه كانت تبذر الحبوب في الارض بعد انسلاح ماء الفيضان عنها وكان يسمى (برت) أى الخروج أى ظهور الارض من تحت ماء الفيضان ، والفصل الثاني من أول فبراير الى يونيه وهو فصل الحصاد وكان يسميه المصريون «شمو» اى انسلاخ الماء عن الارض ، والفصل الثالث فصل الفيضان وكان يسمى «اخت» من منتصف يونيو الى منتصف اكتوبر . وكان كل فصل اربعة شهور ، وكل شهر ثلاثون يوما ، وتتم السنة باضافة أيام النسىء لخمسة ، ولم يكن المصريون يسمون الشهور بأسماء خاصة بل كانوا يطلقون عليها عددها مضافا الى فصلها ، فيقولون الشهر

= الأول من فصل الحصاد ، والشهر الثالث من فصل الفيضان وهكذا ، ولم تسم بأسمائها المعروفة لنا الآن الا فى القرن السادس ، وهى أسماء معبودات مصرية قديمة : فتوت اسم المعبود تحوت ، وهو طائر أبو منجل الذى كان يظهر آنذاك فى الحقول ويقضى على الديدان وآفات المزروعات الاخرى ، وقد جعله المصريون رمزا للعلم لما كان يوحى به مظهره فى أثناء بحثه عن الديدان بالتأمل والتفكير . وبابه نسبة الى «ابى» أى طيبة ، وهاتور نسبة الى الالهة هاتور أو حاتحور وكيهك نسبة الى أحد الأعياد المصرية ، وطوبة بمعنى الحنطة ، وأمشير أو مخير آى عفريت الزوابع ، وبرمهات نسبة الى الملك أمنحتب الذى ألهه المصريون بعد وفاته ، وبرموذة نسبة الى الهة الحصاد ، وبشنس نسبة الى الاله خنسو ، وبؤونه وأصلها « بى أنت » أى عيد وادى الملوك الحجرى ، ومازال هذا الشهر يسمى الى اليوم بؤونه الحجر وأبيب عيد الاله « أبيبى » . ومسرى ، وأصلها مس ـ رع أى ولادة الشمس .

أما أيام النسىء الخمسة فكان المصريون يسمونها الخمسة الايام التى فوق السنة .

هذا ومازال الفلاح المصرى الى اليوم يستخدم هذه الشهور فى تقويمه الزراعى ويقرن اسم كل شهر منها بما يتفق معه فى حالة المناخ أو الزراعة أو نوع المحصول كما يلى :

(١) توت هات الانتوت (كثرة البلح) .
(٢) بابه زرعه يغلب النهابة (لوفرة المحصول) .
(٣) هاتور أبو الذهب المنثور (القمح) .
(٤) كياك صباحك مساك (دلالة على قصر النهار) .
(٥) طوبة أبو البرد والرطوبة اللى يخلى العجوز كركوبة .
(٦) أمشير يقول للريح سير (دلالة على شدة العواصف) .
(٧) برمهات روح الغيط رهات (فيه ينضج المحصول) .
(٨) برمودة دق بالعامودة (موسم الدرس) .
(٩) بشنس يكنس الغيط كنس (الحصاد) .
(١٠) بؤونه الحجر (شدة الحر) .
(١١) أبيب طباخ العنب والزبيب .
(١٢) مسرى تجرى فيها كل ترعة عسرة (بداية الفيضان) .

أكواخا من عيدان البوص ، وبخاصة فى حقول البرسيم ، وكانوا يربطون ما شيتهم فى أثناء النهار بحبال متصلة باوتاد لتأكل من نبات البرسيم من غير أن تطأه بأقدامها فتهلكه .

ولقد كان سراة المصريين فى عصر الأسرة الأولى ينقلون بيوتهم الخشبية من حافة الهضبة ويقيمونها فى الوادى وسهل الدلتا ! وكانت الغلات الزراعية من قمح وفول وشعير وحلبة وترمس تنضج فى ذلك العهد ، كما هو الشأن اليوم فى غضون شهر أبريل ثم تحصد ، وعندئذ تصبح الأرض قفراء جرداء لانبات فيها ولا ماء ، دات تربة طينية سوداء صلبة تتخللها شقوق عميقة ! وعند ذلك كان الزراع لا يجدون عملا يقومون به الا رعاية مواشيهم ! ولقد دفع ذلك الفراغ بعضهم الى القيام بزراعة مساحات محدودة من الأرض العالية التى تحف بالترع والقنوات ، ويرفعون الماء لسقياها بالشواديف . وفى الوقت الذى تبلغ فيه درجة الحرارة فى مصر أقصاها ، وينخفض ماء النيل الى أقصى حد له ، يبدأ ماؤه فى الزيادة فتبدأ تباشير حياة جديدة ، ولا يزال الماء يعلو حتى يصل الى مستوى الأرض الجافة ذات الشقوق العميقة ، فيغمرها ! وعندئذ يبدأ فصل الفيضان ! وتبدو القرى المصرية كما يقول هيرودوت كأنها جزائر بحرايجة ! وكان المصريون آنذاك لا يجدون عملا مجديا يقومون به ، فيخلدون للكسل . ولقد فكر بعض الفراعنة من ذوى العقول الراجحة ، فقدروا ما يصيب العطل رعاياهم من تعود على القعود والكسل ،

فكلفوهم باقامة تلك المنشئات العظيمة مثل الأهرام والمعابد ، التى تعد بحق من المفاخر الخالدة لتلك البلاد (١) .

وان منهاج العمل فى مصر القديمة مسجل تسجيلا دقيقا فى أوراق من البردى يرجع تاريخها الى العصر الرومانى ، ومنها نعلم أن العمل خلال شهرى سبتمبر واكتوبر كان قاصرا على حراسة الجسور التى كانت تقسم الأراضى الزراعية الى حياض ، لوقايتها من الانهيار بفعل مياه الفيضان ، وبسقى المساحات القليلة من الأراضى الصالحة للزراعة التى لا يصلها ماء الفيضان لارتفاعها وقد سبق الاشارة اليها ! .

وكانت تبذر الحبوب فى شهر نوفمبر كما ذكرنا ، وفى أثناء فترة نمو المزروعات المختلفة ، كانت تشذب أشجار الكروم والنخيل وفى شهرى أبريل ومايو ، كانت تحصد المحاصيل ثم تجمع وتدرس

---

(١) لا يرى معظم المؤرخين ما يراه بعضهم فى بناء الهرم الاكبر العرق المتصبب من جباه المظلومين ، ولا السياط ترتفع فى أيدى الزبانية القساة ثم تهوى على ظهور العاملين الناصبين ، ولكنهم يرون فيه حكمة الراعى المسئول عن رعيته ، البصير بأمورها .. وخلاصة رأيهم أن خوفو .. رأى الفلاحين لا يشتغلون فى الأرض الا أياما معدودات فى أثناء بذر الحب وحرث الأرض وفى أيام الحصاد وجمع المحصول ، ويقعدون فيما بين ذلك فى دورهم لا يكادون يعملون شيئا محدديا ، رأى الملك الحكيم ذلك الفراغ الطويل فاشفق عليهم ان يتعودوا الكسل ، ويتاصل فيهم الخمول ، فامر حكام الاقاليم أن يختاروا من سكانها من يصلحون للاضطلاع باعباء اقامة ذلك البناء الضخم المشمخر ، على أن يؤجروا على عملهم ، ويقدم لهم الغذاء (مصر الخالدة للمؤلف الاول ص ص ٤٢ — ٤٧) .

ثم تحمل الغلال المستخلصة الى المخازن المعدة لها !.

ولقد كانت مناسيب مياه الفيضان تختلف في جهات الوادي المختلفة ! وفي ذلك يقول بلوتارك « كانت مياه الفيضان عند مفاوز جزيرة الفنتين تصل الى ٢٨ ذراعا (٤٨ قدما) على حين أنها كانت أمام منف تصل الى ١٤ ذراعا فقط (٢٤ قدما) كما كانت تصل قبل مصب أحد فراع النيل في البحر المتوسط بقليل نحو ٦ أذرع فقط (١٠ أقدام) .

كما يقول المؤرخ بليني « ان الفيضان اذا بلغ عند منف ١٢ ذراعا فقط حدث جدب مروع ، أما اذا بلغ ١٣ ذراعا أمنت البلاد شر الجدب ، واذا بلغ ١٤ ذراعا ، كان الفيضان متوسطا واذا بلغ ١٥ ذراعا كفى متطلبات الزراعة ، فاذا ما بلغ ١٦ ذراعا كان بهجة للنفوس .

وقد حدث أعلى فيضان في التاريخ في عهد الامبراطور كلوديوس (١) ، اذ بلغ ١٨ ذراعا . أما أقل فيضان سجله التاريخ فقد حدث في عام ٤٨ق.م اذ بلغ ٥ أذرع فقط ! وقد ذكر استرابون أن مياه فيضان النيل انخفضت انخفاضا شديدا عام ٤٠ق.م ، ولكنه لم يذكر مقدارها ! .

ولتقدير ارتفاع مياه فيضان النيل أقيمت مقاييس في أماكن

---

(١) حوالى عام ٢٦٩ م .

عدة ، أشـــهرها فى جزيرة الفنتين وطيبه ومنف • ويرجح بعض المؤرخين أن هذه المقاييس أقيمت فى أوائـل عصر الأسرة الاولى ، كما يدل على ذلك تسجيلات ارتفاعات مياه الفيضـان فى حوليات الملوك (١) وهذه الارتفاعات مسجلة بدقة تصل الى ١/١٦ من البوصة، ولابد أنها كانت ترصد فى أماكن فيها الميـاه ساكنة لا يهيجهـا تيار ، ويبدو أن فيضان النيل فى ذلك الزمن الغابر كان أقل تذبذبا بدليل أنه لم يتجاوز الفرق بين النهايات الصغرى والنهايات الكبرى فى مدى ٤٩ سنة سبعة أذرع على حين وصل ذلك الفرق فى العصر الرومانى ثلاثة عشر ذراعا ، كما لم يبلغ متوسط الاختلاف عن المعدل السنوى أكثر من ذراع واحـد وكف واحـد أى قدمين اثنين • ولعل سبب ذلك كان يرجع الى أن النيل كان فى ذلك العصر ينصرف اليه مياه الأمطار التى كانت تسقط فى مساحات أوسع من المساحات التى تتصرف مياهها اليه الآن بما فيها البحيرات الاستوائية ، كما أن وسائل الرى الصـناعى أنذاك كانت بسـيطة ، ولعل أبسطها كان الشادوف (٢)وطمبور ارشيميدس،أما الساقية التى لا يزال الفلاحون

---

(١) وجدت هذه التسجيلات منقوشة على الاثر المعروف بحجر بلرمو •

(٢) يرى بعض العلماء أن المصريين عرفوا الشادوف فى عصور ماقبل عصر الأسرة الاولى ، ولقد نقل كويبل
(Quibell and Green : Herakonpolis 1902, p. II, pl. 74-75).
رسما لشادوف كان منحوتا على جدران مقبرة هيراكنبوليس بالقرب من ادفو ، ترجع الى ذلك العصر الغابر •

فى مصر يستخدمونها بكثرة فى رى أراضيهم فانها لم تستخدم قبل العصر الرومانى .

وفيما يلى أهم أنواع المحاصيل فى مصر القديمة وطرق زراعة كل منها

الحنطة (القمح) لقد كان حبها يبذر كما هو الحال فى الوقت الحاضر وتغطى بواسطة ما يسميه الفلاحون « اللوح » اذا كانت التربة لاتزال لينه ، أما اذا كانت جافة وصلبة تتحمل وطء الثيران استخدموا المحراث أو العزاقة فى تغطيته (١) .

وعندما تنضج الحنطة كان الفلاحون يستخدمون المنجــل فى حصدها ، ويجمعون سوقها ، ويدرسونها (٢) ثم يستخلصون حبوب القمح ، ويعبئونها فى أكياس ، يحملونها الى بيوتهم أو الى الاسواق لبيعها وكانت سيقان الحنطة بعد درسها غذاء للماشية ! .

ولقد كانت العادة فى العصر الفرعونى أن يترك الزراع نصف محصولهم من القمح فى سنابله ، ثم يربطونه حزما ، ثم يحفظ فى مخازن خاصة .

وكانت مخازن الحنطة نوعين :

---

(١) لاتزال يســـتعملها الزراع حتى وقتنا هـذا وهى شـبيهة بالفاس .

(٢) كانوا فى العصور الغابرة يستخدمون الثيران والحمير فى وطء السنابل لتخليص الحب منها ثم لم يلبثوا ان ابتدعوا النورج المستعملة الآن فى ذلك !

١ ـ حظائر مخروطية الشكل مبنية بالطوب ، وكانت تستخدم لخزن السنابل •

٢ ـ حجرات سقوفها على هيئة قباب ، وكانت تستخدم لخزن الحبوب •

ولقد كانت تلك المخازن تغطى أرضها بطبقة سميكة من فتات الحجر الجيرى منعاً من تسرب الفئران اليها •

وأهم الحبوب التى كانت تزرع فى مصر الفرعونية القمح والشعير والذرة(١) •

---

(١) لاريب أن المؤلف يقصد الذرة الرفيعة التى يسميها الفلاحون العويجة Millet التى كانت معروفة فى العالم القديم ، لأن الذرة الشامية corn المنتشرة الآن فى أرجاء العالم المختلفة لم تعرف الا بعد كشف أمريكا ، اذ لم تكن تنمو الا فيها ومنها نقلت الى اقطار العالم المختلفة ، كما أن الذرة الرفيعة نقلت الى مصر من أواسط افريقية ، وكانت أكثر ماتزرع فى اراضى الحياض بالوجه القبلى . وهى نوعان :

(أ) صيفية وتسمى القيضى ، وتبدأ زراعتها من منتصف مارس .

(ب) نيلية ويمتد بدأ رزاعتها من يوليه الى أغسطس تبعا لموعد التصريح بطفى الشراقى ولاتزال مسألة زراعة الذرة العويجة فى مصر موضع جدال بين العلماء فبعضهم يجزم بأن المصريين القدماء مارسوا زراعتها ومنهم ماسبيرو اذ يقول أن المصريين القدماء زرعوها وكانوا يطلقون عليها اسم ديراتى أو دورانى ويستشهد على ذلك ببردية يرجع تاريخها الى عهد الاسرة التاسعة عشرة (Maspero : Histoire de Peuples, Vol. I, p. 66). ويؤيد رأيه هذا ويلكنسون Wilkenson : Manners and Customs, Vol. II, p. 27. ويزعم فريق آخر منهم أن الذرة كانت تزرع فى مصر القديمة وكان المصريون القدماء يسمونها «ات» أو «يوت» (انظر قواعد اللغة المصرية القبطية لجورج صبحى ص ٩٣) =

وفى عهود الأسراب الأولى كان القمح يجفف بوضعه فى أون كبيره ثم تدلى فى حفر عميقة ، بحيث ترتكز على قضبان من الفخار، وتوقد حولها النار • وكان الغرض من تجفيفه حفظه من السوس •

الكروم : لقد كانت كروم العنب تزرع فى مصر فى العصور القديمة ، ولقد ظهرت معاصر العنب على الآثار التى ترجع الى منتصف عهد الأسرة الأولى ، على أن احدى الأساطير المصرية القديمة تدل على أن أوزيرس كان أول من ابتدع زارعة كروم العنب ، وأنه أول من صنع منه النبيذ ، الأمر الذى يدل على أن زراعة الكروم عرفت فى مصر القديمة قبل عهد الأسرة الاولى بآلاف السنين وكانت الكروم فى عصر الدولة القديمة تعتمد على عرائش ! أما فى عصر الدولة الحديثة فقد كانت تزرع فى وسط حدائق قصور الأمراء والعظماء على هيئة خمائل يستظلون بها فى أشهر الصيف من وهج الشمس ! ولقد أوحى ذلك بطراز من طرز البناء حاكاه المهندس الذى اضطلع ببناء بهو الأعمدة العظيم فى تل العمارة ، والذى بالغ فى المحاكاه فطلى سقفه بالجص وزينه برسم شجرة من أشجار العنب!•

= ولا يذكر ارمان فى كتابه عن مصر • والحياة المصرية فى العصور القديمة – ترجمة دكتور عبد المنعم ابو بكر والاستاذ محرم كمال ، شيئا عن زراعة الذرة فى مصر• ويزعم أن كلمة يوت التى يؤكد بعض العلماء أنها الاسم المصرى للذرة ، كانت تطلق على نوع من الشوفان (أنظر ص ٥٠٣ من كتابه المذكور) ويؤيده المؤرخ الالمانى شفيتورت ولكنه يذهب الى أن كلمه يوب كانت تطلق فى مصر القديمة على نوع من الشعير ، على حين يقول دكتور سليم حسن ان زراعة الذرة فى عصر الدولة القديمة لم يقم عليها دليل قاطع (مصر القديمة ح٢ ص ٨٠) •

وكان العنب يجمع فى سلال ويحمل الى المعاصر لاستخراج النبيذ منه ! وكان النبيذ المستخرج من العنب أنواعا ، كان يطلق عليها أسماء مختلفة ، منها نبيذ بوتو ، ونبيذ اسنا ونبيذ مخفف ، ونبيذ أبيض . ولقد كان لنبيذ الدلتا فى عصر الاغريق شهرة واسعة ، ونبيذ مريوط بخاصة ! وكانت كروم العنب آنذاك تزرع بكثرة فى الفيوم وفى الواحات .

وكانت الخضروات تـــزرع فى معظم جهات مصر المختلفة ، وأهمها الفول والعدس والبازلاء ، وعندما كانت مياه الفيضان تأخذ فى الانحسار عن الأراضى التى كانت تحف بالوادى ، يســـارع أصحابها الى زرعها بالبصل والكرات والثوم والخيار والقثاء بأنواعها المختلفة ! كما كان نبات القلقاس ينمو فى المناقع والمستنقعات ! وكانت ثماره عندما تنضج تجمع وتنقع فى الماء عندما كان يراد طهيها ! ويبدو أن العلة فى نقعها الرغبة فى التخلص من بعض عناصرها التى كانوا يعتقدون أنها ضارة بالانسان ! وكانت تزرع بعض النباتات لاستخراج الزيت منها ، وأهمها القرطم والسمسم والخس والسلجم(١) والكتان فوق استخراج الزيت من بذوره كانوا يصنعون منه المنسوجات الكتانية التى يتخذون منها ملابسهم المختلفة . ولقد كان يزرع فى العهد الرومانى أربعة أصناف من الكتان ! فكان الصنف الأول يزرع

(١) السلجم نبات من فصيلة الكرنب .

فى تانيس (١) والثانى فى بلوزيوم (٢) والثالث فى بوتو والرابع فى دندره (٣) .

أما القطن فقد كانت مساحة الأرض التى كان يزرع فيها فى العهد الرمانى قليلة جدا ، ولم يكثر زرعه واستخدام محصوله فى صنع المنسوجات القطنية الا فى العصر الاسلامى ! .

أما أشجار الفاكهة فيبدو أن أول ما زرع منها فى مصر كان نخيل الدوم والجميز والخروب ، أما نخيل البلح فقد استورد حبه من العراق ، ثم زرع فى بعض جهات مصر وفى بلاد الصعيد بخاصة! ولم يكن واسع الانتشار ! أما أشجار الرمان فقد كانت مساحاتها قليلة فى بادىء أمر زراعتها فى مصر (٤) وأكثر بقاع مصر زراعة للتين

---

(١) تانيس هى مدينة صالحجر الحالية ، وكانت العاصمة الثانية فى عهد الاسرة التاسعة عشرة ، والحاضرة الاولى لمصر فى عهد الاسرة الحادية والعشرين، وهى غير مدينة تنيس التى اشتهرت فى العصر الاسلامى بمنسوجاتها والتى لاتزال أطلالها باقية فى احدى الجزر الواقعة فى شرقى بحيرة المنزلة !

(٢) بلوريوم هى مدينة الفرما التى اشتهرت فى أثناء الفتح العربى لمصر ، وتقع على بعد ٣٠ كيلومتر شرقى بور سعيد ، وكان فرع النيل البلوزى يصب عندها ، وبه سميت وكان سبب ازدهارها ، فلما انسد أصابها الاضمحلال !

(٣) دندرة بلدة صغيرة الآن وكانت لها شهرة عظيمة فيما مضى لوجود معبد الالهة حتحور بها ، وتقع فى الضفة الشرقية للنيل فى مواجهة مدينة قنا ،

(٤) ادخلت زراعة الرمان فى مصر فى عهد الاسرة الثانيه عشرة ، اذ ورد رسم شجرته ضمن مجموعة الاشجارالتى أحضرها الفاتح العظيم تحتمس الثالث معه من بلاد الشام ، ورسمت فى عهده على جدران معبد الكرنك .

وفى عهد رمسيس الرابع كثرت زراعتها ، فاصبحت فاكهة محلية شائعة ، ويجدر بنا ان نشير الى ان المصريين القدماء كان يسمون الرمان «رمن» الامر الذى يؤكد أن اصل كلمة رمان مصرى قديم !

كانت ولاتزال هى الواقعة غربى مدينة الاسكندرية ! ويبدو أنه لم يكن واسع الانتشـار فى مصر فى عصور تاريخها القديم ، ولعل السبب فى ذلك أن زراعته لم تكن تلائمها مياه الفيضان الغزيرة أنذاك .

وقد ظهرت أشجار النبق فى مصر منذ عصورها الأولى .

ولقد كان أهم ما كان ينمو فى مصر من الأشـجار المنتجة للخشب عدا أشجار الجميز الطرفاء والعبل والسنط والبرساء !.

ولقد كانت الأخشاب المستوردة من الخارج تستخدم فى صنع الأثاث ، وأهمها التى كانت تتخذ من أشجار الصنوبر والأرز التى كانت يؤتى بها من الشـام والأبنوس الذى كان يستورد من بـلاد النوبة ! .

ولقد كان المصريون يزرعون الأشجار بكثرة حول المعابد ، كما كان الشأن حول الدير البحرى (١) وهرم اللاهون ! .

ولقد كانت النيران فى مصر القديمة نوعين : الزيبو الافريقى وله قرون طويلة ، والنوع الثانى ذو قرون قصيرة .. ولم يكن النوع الأفريقى ذو القرون الطويلة قوى البنية متينا ، ولذلك فقد تعرض لأوبئة كثيرة فانقرض سنة ١٨٦٣م .

---

(١) يقع معبد الدير البحرى فى البر الغربى للنيل ازاء الاقصر ، حيث توجد معابد الملكة حتشبسوت والملك منتوحتب (من ملوك الأسرة ١١) وكانت أشجار البخور تحيط بمعبد الملكة حتشبسوت التي أحضرتها البعثة التى أرسلتها الى بلاد الصومال من هذه البلاد .

وكانت هناك سلالة من الأغنام ذات قرون أفقية متلوية ! وكانت أكثر انتشارا في عصر الدولة الوسطى ، ولكنها لم تلبث أن انقرضت .. وكانت في مصر أيضا سلالة أخرى من الأغنام ذات قرون مقوسة، وهو النوع الذي نشاهده في تمثال جوبتر آمون(١) . ولا تزال هذه السلالة موجودة في مصر المعاصرة . أما المعزى فقد كانت منتشرة في عصور مصر القديمة المختلفة ! .

ولقد كان الخنزير موجوداً في مصر في عصورها المختلفة ، ولكن المصريون كانوا يعزفون عن اقتنائه فكانت تقوم بتربيته احدى القبائل المنبوذة في حف الصحراء ، ولعل سبب عزوفهم عن اقتنائه انهم كانوا يعدونه مكرسا للاله ست الشرير . أما الحمار فعلى الرغم من أن المصريين كانوا يعتقدون أن الاله ست يتقمصه (٢) فكان

---

(١) اتخذ المصريون من الكبش ذى القرون المقوسة رمزا للاله آمون ، وهذا هو السبب فى تزيين مداخل معابد الاله آمون بتماثيل على هيئة كباش كما هو الحال فى معبدى الأقصر والكرنك !

(٢) يبدو أن نظرة المصريين للحمار كحيوان اقترن بعبادة الاله ست لم تنشأ الا فى عصر الدولة الحديثة بعد غزو الهكسوس لمصر ، فقد اتخذ ملوك الهكسوس من الاله ست الها حاميا لهم .. وكان الحمار هو الحيوان الذى كان يعتقد أنذاك ان الاله ست يتقمصه. فقدسوه وكان بعض ملوكهم يلقبون أنفسهم « يعاقبن » أى الحمار الشجاع وكانت مقابر الحمير فى عهدهم مقدسة ، وكانت فخامة مبانيها يفوق فخامة مبانى قبورهم تكريما للحمار واجلالا لمقامه ! .ولعل السبب فى كراهية المصريين للحمار كان تقمص الاله ست له فى اعتقادهم ، وتقديس الهكسوس أعدائهم له !

لذلك مكروها ، فان حاجتهم اليه لحمل أثقالهم حالت دون نبـــذه والتقليل من شأنه . ويبدو أنه جيء من ليبيا اذ كان موجودا فيها قبل عصر الأسرة الأولى ! وما لبث أن عم استخدامه فى بقـــاع مصر المختلفة ، وبخاصـــة لحمل الزاد والماء اللازمين للبعثات التى كانت تجوب الصحارى المصرية بحثا عن المعادن ! .

أما الجمل فقد كان عدة البدو الذين كانوا يقيمون فى الجهات التى تحف بمصر ، ولقد عم استخدامه فى حمل المحاصيل والبضائع وزاد المسافرين وبخاصـــة فى عهد الأسرة الأولى والأسرة التاسعة عشرة والأسرة الخامسة والعشرين (١) ! وكذلك فى العهد الرومانى ، وكان يستخدم آنذاك فى حمل جرار الماء الضخمة ، أما فى العهد الاسلامى فقد أصبح الوسيلة الرئيسية لحمل السلع والبضائع المختلفة والثقيلة منها بخاصة (٢) .

ولم يكن للخيل وجود فى مصر قبل الأسرة الثامنة عشرة ، وقد استخدمت آنذاك فى جر العربات الحربية ، ويبدو أنها كانت ضئيلة الجسم غير صالحة للركوب عندما جيء بها أول مرة ، ولكن

(١) أقدم تمثال للجمل هوتمثال صغير من الفخار يرجع تاريخه الى عصور ما قبل الاسرات (عصر نقاده) ثم عثر على تمثال صغير له يرجع الى عهد الاسرة الثامنة عشرة ، غير أن اقدم ذكر للجمل ورد فى بردية انستاس التى ترجع الى عهد الأسرة التاسعة عشرة .

(٢) يزعم المؤلف أن الجمال قد ألفت على ما كان ينمو فى الصحارى المصرية من نباتات واشجار .

سرعان ما ظهرت فى مصر وليبيا سلالة منها قوية البنية ، متينة ، ذات صفات ممتازة وذلك عندما عنى بها وأحسن تغذيتها فى المراعى الخصيبة الغنية بنباتاتها . ويبدو أن موطن الخيل الأول كان فى أواسط أسيا ، وقد جاء بها منها الآريون الذين غزوا بلاد الهند وبابل (١) ، ولعلهم كانوا السبب فى هجرة الهكسوس من بلادهم وحملهم على دخول مصر .

ولم يستخدم المصريون الخيول فى جر المحراث ، فقد كانت تلك المهمة يؤديها الثيران فى العصور القديمة ، ولا تزال تؤديها حتى اليوم (٢) .

كانت فى مصر القديمة ولا تزال حتى اليوم ، سلالات كثيرة من الكلاب ، مما يدل على أنه جيء بها من بيئات جغرافية مختلفة اختلافا بينا فى طرق المعيشة ! وكان النوع ذو الحجم الكبير يستخدم فى الصيد والقنص ، كما كان النوع المتوسط الحجم منبوذا يعيش على فضـلات الطعام أما السـلالات الصغيرة فكانت يحتفظ بها فى المنازل ليأتنس بها أصحابها ويدللوها ! .

ولم تكن القطط (٣) موجودة فى مصر قبل عهد الأسرة الثانية

---

(١) وكان يطلق عليهم المؤرخون الكاسيين 'Kassites'

(٢) يقول المؤلف : أن هذه المهمة يقوم بها اليوم الجاموس والجمال والحمير فى حالات نادرة .

(٣) كان يوجد فى ذلك العصر القديم نوعان من القطط : القط النمر ـ أى الشبيه بالنمر فى هيئته ـ والقط الفهد .

عشرة ، فقد عثر على صورة لقط نحيل طويل العنق على آثار يرجع تاريخها الى عهد تلك الأسرة ، ولم يلبث القط أن قدسه سكان سينا اعتقادا منهم أن الالهة حاتحور تتقمصه ، وذلك فى عهد الأسرة الثامنة عشرة •

ولقد كان من نتائج طول فترة الفيضان الذى كان يغطى الحقول شهرين وبعض الشهر أن اضطر المصريون الى خزن الطعام اللازم لمواشيهم وطيورهم الأليفة ، فكانوا يقدمون لها الطعام بأيديهم ، حتى التماسيح كانوا يقدمون لها الطعام أيضا بأيديهم باعتبارها من الحيوانات المقدسة (١) •

ولقد كان التفريخ الصناعى للبيض من مبتدعات المصريين ، وكان غير معروف فى الأقطار الأخرى ، ولقد كان المصريون يعدون للفراخ حظائر مصنوعة من الفخار ذات أبواب لوقايتها من غائلة البرد ومن الثعالب ليلا !

ولقد كان السمك الذى يصيده الصيادون المحترفون من النيل

---

(١) يروى استرابون كيف كان الكهنة المصريون فى الفيوم يقدمون الطعام للتماسيح المقدسة .. وكان أحدها يربى وحده فى بحيرة ، وكان يألف الكهنة ويأنس اليهم ، وكان الناس يذهبون الى تلك البحيرة لمشاهدته وليقدموا له اللحم والنبيذ ، وقد ذهب معنا مضيفنا الى البحيرة حاملا معه كعكة ولحما مشويا وابريقا مملوءا بالنبيذ المحلى بالعسل ، فوجدناه مستلقيا على حافة البحيرة . ولما جاءه الكهنة فتح أحدهم فاه ، ودس آخر فيه الكعكة وسكب فيه النبيذ ، (وهيب كامل : استرابون فى مصر فقرة ٣٨ •

ومن البحرين الابيض والأحمر يسهم بقدر كبير فى طعام المصريين القدماء ، والطبقات الفقيرة منهم بخاصـة ، وأقدم منظر للسمك على الآثار المصرية الباقية ، ويرجع تاريخه الى أواخر عهد الأسرة الثالثة ، ترى فيه رجلا يشق جسم سمكة من الخلف ، بعد أن قطع رأسها وذيلها ورمى بهما • وفى أحد الأحفال فى يوم العيد الكبير فى عهد الأسرة العشرين (١) قدم فيه ست آلاف سـمكة لنحو عشره آلاف شخص ، غير الذين كانوا يفدون كل يوم من أيام العيد الأخرى ، عدتهم ألف شخص ! وان تقديم ذلك العدد الكبير من السمك فى أيام عدة يؤكد لنا أن السمك الذى كان يقدم يحفظ فى أحواض كبيرة من الماء بعد صيده ! ولقد كان وزن السمك الذى يؤكل يوم ذلك العيد يساوى ما كان يؤكل فى أثنائه من لحوم الحيوان والطيور • ومن الغريب أن أكل السمك كان محرما على رجال الدين لسبب لا نعلمه • ولقد كان النوبيون يعتقدون أيضا بعدم طهارة السمك ، ويحرمون أكله ، ولذلك منع أمراء الدلتـا فى عهد بعنخى من دخول قصره للمثول بين يديه لا لشىء الا أنهم يأكلون السمك ! ولم يسمح الا بدخول أحدهم بعد أن تأكد بيعنخى أنه لا يأكل السمك ! •

---

(١) لقد كثرت الأحفال فى عهـد الملك رمسيس الثـالث أحـد ملوك الأسرة العشرين ! فالى جانب الاحتفالات الكثيرة بانتصاراته الكثيرة على اعدائه والتى كان يستمر الاحتفال بكل منها عشرين يوما ، كما كان عيد تتويجه عشرين يوما على حين كان عيد تتويج أسـلافه يوما واحدا كما كان عيد الاله آمون فى عهده يستمر نحو سبعة وعشرين يوما ، ونتيجة لهذه الاعياد أصبحت أيام العطلات الرسمية فى عهد ذلك الملك تكاد تساوى أيام العمل •

ولقد كانت صناعة الجلود من أولى الصناعات التى ابتدعهـا المصريون وبرعوا فيها ! ولقد كانت جلود الماعز تستخدم أحيانا فى تكفين الموتى بدلا من المنسوجات ! ولقد كانت تلك عادة أهل الوبر (البدو) فى فلسطين الى عهد الأسرة الثانية عشرة !٠

ولقد كان أهم الأسباب التى دعت سنوحى الى العـودة الى مصر (١) خوفه من أنه اذا مات فى منفاه لف جثمانه قبل دفنـه فى جلد الماعز الذى كان يكفن به آنذاك الفلسطينيون انذاك ! ٠

ولقد كان صنع قرب الماء والغرائر من الجلود من الصناعات الهامة ، ولقد تمكن المصريون من اعداد الجلد اعدادا يسهل طيه ولفه ثم حفظه بحيث لا يشغل حيزا كبيرا ٠

ولقد كان المصريون فى عصور ما قبل التاريخ يستعملون مدى من النحاس فى سلخ الجلود ، وكانت قصيرة وعريضـة مستديرة الطرف ، حتى لا يتعرض الجلد للتمزيق عندما كان يسلخ بها ٠

وان قرب الماء التى كانت تظهـر فى الكتابة الهيروغلوفية فى الأسرة الخامسة ، تشبه القرب التى ظل المصريون يستعملونها فى حمل الماء حتى عهد قريب ٠

---

(١) كان سنوحى قد فر من مصر خوفا من الملك سنوسرت الأول الى فلسطين ، وبعد أن قضى بضع سنين فيها عاوده الشوق والحنين الى وطنـه العزيز ، فارسل يستعطف الملك ، فعفى عنه الملك ورد عليه مرحبا لعودته الى مصر ، ومبينا مزايا تلك العودة ، ومن بينها أنه عندما يموت سيدفن فى مقبرة بعد أن يوضع جثمانه فى تابوت لا فى جلد معزى ، كما كانت عادة بدو فلسطين آنذاك ٠

ولقد كان المصريون يدبغون الجلود ويصنعون منها نعالا خفيفة، وأغطية للمقاعد ، كما كانوا يستعملونها كمادة من المواد التى تستخدم فى صناعة العربات الحربية والدروع ، وفى أغراض أخرى عديدة • وكانوا يصنعون منها حبالا بأن تقطع الى أشرطة رفيعة جدا ، ثم تجدل فتصبح حبالا متينة • على أن أجمل تلك الصناعة كانت الجلود المخرمة التى تشبه الشباك ، وقد كان بعضها ذا أشكال منتظمة جميلة! ولذلك كانت تغطى بها المقاعد والأرائك ! ولقد كانت الفواصل بين ثقوبها دقيقة الى أبعد حدود التصور ! ولقد كانت تلك الجلود المخرمة تلبس فوق الملابس التيلية لوقايتها وزيادة دفئها ! •

ولقد كانت المصنوعات الجلدية التى تستعملها الطبقات العاملة الكادحة أشد صلابة وأكثر متانة من التى يلبسها الاثرياء والمترفون ، ولقد كان جزؤها الأوسط يترك بدون ثقوب ليطول عمرها •

* * *

وتعتبر صناعة السلال أقدم من صناعة الفخار ، اذ أن الرسوم التى وجدت على مخلفات الفخار من عصور ما قبل التاريخ كان بعضها على هيئة سلال ! وهذا يدل على أن صناعة الفخار قد يكون منشأها طلاء احدى السلال بطبقة من الصلصال لوقايتها من الماء أو النار ! ولم يلبثوا أن استبدلوا أوانى الفخار بالسلال ! ولقد كانت السلال فى مبدأ نشأتها فى منتصف العصر الأول لما قبل التاريخ تصنع ولها أغطية مخروطة الشكل ترتكز على حوافها البارزة ! ولقد كان الفخار فى

أول نشأته يصنع على غرارها ! ولقد ظل هذا الطراز متبعا حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة ولا يزال متبعا حتى الآن فى بلاد النوبة •

وفى عهد الأسرة الأولى كانت تصنع السلال كبيرة مرنة ، ثم استبدل بها سلال صلبة لحفظ المحاصيل الزراعية ! وظلت كذلك حتى العهد الرومانى ، وكانت تستعمل آنذاك لحفظ الفاكهة أو نقلها ، وكانت السلال تصنع من سعف النخيل ، وهى لا تكاد تختلف عن تلك التى يستعملها الفلاحون المصريون فى الوقت الحاضر •

وكانت بعض الأوعيـة والأوانى تصـنع من لحاء نبات البردى الداكن لحفظ المأكولات المختلفة ! ولقد كانت جوانبها تقوى بعيدان « البوص » أو الغاب •

وكان يصنع من تلك المواد نفسها مقاعد كبيرة مزودة بقوائم من خشب لتصبح ثابتة متينة •

ولقد ابتدع المصريون القدماء صنع الحصر منذ أوائل عصر ما قبل التاريخ ، وكانوا يفرشون بها أرض غرف بيوتهم ولم يلبثوا أن صنعوا نوعا منها مزخرفا ، وكانوا يفرشون به السرر فى عهد الأسرة الأولى • ثم لم يلبثوا أن زينو بهذا النوع المزخرف الحيطان الداخلية ! ولقد كانت صناعة الحصر بنوعبها تشبه الى حـد كـبير صناعتها فى العصر الحاضر •

ولقد ابتدع المصريون صنع المكانس والمراوح والفراجـين ، واستخدموها منذ العصـور الأولى وكانت تصـنع المكانس والمراوح

من الغاب بعد شقه • وكانوا يستخدمون المراوح للتهوية ولاذكاء النار عند طهو الطعام فى عهد الأسرة السادسة ! أما الفراجين فقد صنعوها من سيقان الغاب واستعملوها فى الرسم !•

ولقد كانوا يصنعون من نبات البردى غرفا صغيرة خفيفة على ظهور السفن ! وكانت زخارف « الخكر » التى كانوا يزينون بها جدران تلك الغرف على هيئة الأطراف العلوية لنبات البردى ، وكانوا يزينون بالخكر أيضا الحواشى الجانبية للحصر التى تزدان بها جدران الغرف فى المنازل ، كما استعملت رسوم الخكر أيضا فى تزيين الأجزاء العليا من غرف المقابر ، ولقد كان ورق البردى الذى كانوا يستعملونه فى الكتابة يصنع بوضع طبقات من سيقان البردى الداخلية، بعد نزع قشورها الخارجية ، بعضها فوق بعض ، وبينهما سائل غروى ثم تضغط ، ثم تجفف (١) • ولقد كان ورق البردق أنواعاء كان معروفا منها ثمانية فى العهد الرومانى •

---

(١) يعد الحكر ـ وهى كلمه هيروغليفية معناها الزينة أو التحلية ـ الوحدة الزخرفية الغالبة فى الفن الزخرفى فى مصر القديمة ، ويرجع أصلها الى عصور ما قبل التاريخ حين كان المصريون يسكنون الأكواخ ويقيمون سقوفها على أعمدة من سيقان البردى ، وكانت أطرافها العليا غير منسقة ، ويربطونها بخيوط فتبدو حسنة المنظر ! وعندما استبدلوا المصريون الأحجار بنبات البردى فى بناء بيوتهم ، نقلوا العناصر الزخرفية النباتية اليها (أى الى الأحجار) وزينوها بها ، كما رسموا زخارف الخكر على سقوف البيوت •

(٢) هذه الطريقة فى صناعة المصريين لورق البردى ذكرها المؤرخ بيني ، ولكن ثبت بعد قيام بعض العلماء بتجربتها أنها غير صحيحة ، فقاموا باجراء تجارب محورة فنجح العالم باسكوم جن (Batiscomb Gunn) فى صنعه !

ولقد كان المصريون القدماء يلجأون الى النار أو الى فأس بدائى خاص لتجويف الكتل الخشبية فى عصور ما قبل التاريخ ! ولقد ظلت هذه الطريقة مستعملة فى بعض العصور التاريخية ! ولقد عثر على توابيت مصنوعة بهذه الطريقة يرجع تاريخها الى عهدى الأسرتين الخامسة والثانية عشرة ! وقد اتبعت هذه الطريقة نفسها فى العصر الرومانى لصنع الزوارق !٠

وكانت صناعة الخشب تقوم فى أول الأمر على استعمال مطارق صغيرة عرضها نصف بوصة وأزاميل حادة الطرفين ! ومنذ بداية عصر الأسرة الأولى ظهرت آلات أكبر حجما ، بعد أن أصبح استخدام النحاس فى صنعها أكثر ذيوعا ، ثم بدأت صناعة نشر الخشب فى الظهور تدريجيا ، بالاستعانة بسكاكين كبيرة وعريضة ،

= والطريقة التى اتبعها هى أنه قطع نبات البردى وهو أخضر ، ثم ازال لحاءه الخارجى ، ثم قطع اللب قطعا (شرائح) ووضع على لوحة من الخشب ، ثم وضع عليه عددا من هذه الشرائح جنبا الى جنب • وبحيث نكون موازية لبعضها بعضا ومتماسة ، ثم وضع فوقها شرائح أخرى بحيث تكون زوايا قائمة مع الشرائح النى تحتها ، نم غطاها بنسيج رفيع ردق عليها بمطرقة من الخشب دقا متواصلا لمدة ساعتين ، ثم وضع ما نتج بعد الدق فى مكبس ، لبضع ساعات وعندما أخرجها من المكبس وجد أن الشرائح قد التأمت وكونت ورقا رقيعا متجانسا صالحا للكتابة ثم صقله بعض الشىء مما جعله أكثر ملاسة •

هذا وكان البردى يستخدم فى اغراض أخرى ، فكانت تصنع من سيقانه الحصر والسلال والغرابيل ، وكان البردى ينبت بريا فى منافع الدلتا ، ولكنه اختفى منها الآن ، وينمو الآن بكثرة فى السودان ، ويتراوح طول ساقه بين سبعة وعشرة أقدام ، ذلك عدا الجذور والأزهار •

ولقد أدى ذلك الى استعمال المناشير ذات الأسنان المنتظمة ابتداء من عهد الأسرة الرابعة •

ولقد كان المصريون القدماء يزرعون الأشجار المنتجة للخشب ، ويتعهدونها مدة تتراوح بين عشر سنين وعشرين سنة ، ثم يقطعونها ويقسمونها الى مكعبات يصنع منها بعض الأثاث كالمقاعد ذات الأرجل(١) والسرر (٢) •

ولقد وجدت مقاصير فى داخل مقابر الملوك مصنوعة من ألواح من الخشب يتراوح طولها بين ١٨ و ٢٠ قدما ، ويبلغ عرضها ١٠ بوصات ، يتبع فى تركيبها الطريقة المستعملة فى بناء القاعات الخشبية فى قصور الملوك ! وتتلخص فى صف الألواح متجاورة فى وضع رأسى بحيث تعلو أطرافها بعضها فوق بعضها الأخرى وتثبت بأوتاد من خشب توضع فى ثقوب رأسية ! وهذه الطريقة تمنع الألواح عند انكماشها من ترك ثغرات فى الجدران ، وبذلك لا يكون لبرودة الهواء ورطوبته فى أثناء الليل ، أو لحرارة الشمس ووهجها فى أثناء النهار تأثير محسوس فى داخل تلك القاعات •

---

(١) كان المقعد يصنع من كتلة خشبية واحدة ، ريتم ذلك بتقويم ثلاثة أغصان متجاورة في الاتجاهات المناسبة لتكون بمثابة أرجل المقعد ، أما القاعدة فكانت تقطع من جزع الشجرة المتصل بالأفرع •

(٢) كانت هيائل الأسره تتكون من عوارض من الخشب تستدق عند نهايتها ، تحفر فيها فجوات لتثبت فيها الملة من الداخل ، حتى لا تندو الملة وقد التفت حول العوارض •

ويتجلى الابداع الفنى فى طرز قطع الأثاث المصنوعه من الخشب ، فقد كانت الزوايا الخشبية المستخدمه فى ربط أجزائها تؤخذ من فروع أشجار خاصة ، تثنى فى أثناء نموها . وكانت ظهور بعض المقاعد تستند على دعامات منحرفة من الخلف ، وتقوى رجل الموائد الطويلة الدقيقة بأزرع متقاطعة من الخشب ! وكانت الأرائك والكراسى عريضة ومتناسقة الأجزاء ، ولا يعوزها اتقان الصنعة ودقتها !.

أما الفخار فان الكتابة عنه وعن أنواعه الكثيرة ، وعن تاريخه لا يكفيها عدة مجلدات . ويحتمل أن يكون بعض اوانى فخارية قد جاء بها مصر فى عصر ما قبل الأسرات بعض المهاجرين اليها من الغرب ! ولقد كانت تصنع بعد ورودها باليد ، ثم تشكل دون أن تكور ، كما كان الشأن فى بعض الأقطار الأخرى ! وكانت الخطوه التالية تشكيل جزئها العلوى ، ومنذ عهد الأسرة الأولى استخدمت عجلة الفخار فى صنع الجرار الكبيرة ، ولكن استخدام اليد فى تشكيل الفخار ظلت قائمة عدة قرون بعد ذلك !.

وفى عهد الأسرة الثالثة كانت الأوانى الخشنة تصنع بواسطه لفها داخل حفرة فى الأرض ، بينا تشكلها يد الصانع ! وفى عهد الأسرة الثانية عشرة ، كان الفخارى يدير عجلة الفخار بيده اليسرى، ويشكل الآنية بيده اليمنى ، ثم ينزعها ، ويصقل قاعدتها وكانت الجرار الكبيرة تصنع انصافا منفصلة ، ثم تلصق بعد ذلك ! وفى

عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت الجرار الكبيرة تصنع بحيث تكون في وضع معكوس أو مقلوب على عجلة الفخار ، وتستخدم اليد في تشكيلها حتى تضيق فتحتها العليا ، فيخرج الفخارى يده منها ، ثم تسد القاعدة بقطعة من الصلصال ، ويصقل من الخارج ، ويترك من غير صقل من الداخل !٠

ولقد بدأت صناعة الأوانى الفخارية المصقوله في مصر ، في أوائل عصر الحضارة الأولى ! ولكن دهان الأوانى الخزفية باللون الأزرق أو باللون الأخضر كان يتطلب مهارة في التسخين ! اذ يحتاج هذا الطلاء الى حرارة عالية معينة ، لا تنقص ، ولا تزيد ، لمدة ساعات معينة ! ولم يك ذلك ممكنا من غير تجارب طويلة سابقة ٠

ولقد استخدم المصريون في عصر الحضارة الثانية الزجاج الأزرق واللازوردى ، على الرغم من أن استخدامه في ذلك العصر المبكر كان نادراً اذ لم يكثر انتاج الزجاج واستخدامه في شتى الاغراض الا في عهد الأسرة الثامنة عشرة ٠

ولقد عثرنا على نموذج واحد من الزجاج عليه أشكال من الموزايكو الملون يرجع تاريخه الى الأسرة الثانية عشرة ٠

وقد نهضت صناعة الموزايكو نهوضا عظيما في العهدين اليونانى والرومانى ، واتسمت بطابع الدقة المتناهية ! وكانت مدينة الاسكندرية ذات شهرة عظيمة في تلك الصناعة ! ٠

ولقد عرف المصريون عشرة أنواع من المعادن وثمانين نوعا مختلفاً من الأحجار والصخور ، ولكنهم لم يستغلوا منها الا تسعة أنواع فقط ! •

ولقد استخدم المصريون الذهب فى عصر ما قبل التاريخ غير أنهم كانوا يخلطونه دائما بالفضة فى عهود الأسرات الأولى ، الأمر الذى يوحى بأنهم كانوا يستوردونه من أقطار أخرى ، ومن أسيا الصغرى بخاصة !•

ومن المعادن التى عرفها المصريون فى عصور ما قبل التاريخ معدن الفضة ، ولكنها كانت نادرة كالذهب ، وظلت كذلك حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ولكنها كانت على الرغم من ندرتها قليلة القيمة ! وأصبحت أقل قيمة عندما توثقت صلة الحيثيين بمصر (١) • ولم يكن استعمال معدنى الذهب والفضة قاصرا على صنع الحلى ، بل كانا يستعملان فى تجميل الأوانى المصنوعة من الحجر ، اذ كانت حوافها ، وقواعدها ومقابضها تكسى بالذهب ، كما كانت أغطيتها تصنع من الفضة ! وكان الذهب يستخدم فى كسوة أطراف القسى ومقابض المدى ، وغيرهما ، وكانت حبات العقود المصنوعة من حجر الجير تكسى بالذهب • وكان كل ذلك يصنع فى عصور ما قبل التاريخ ! •

---

(١) بعد ابرام معاهدة السلام بين رمسيس الثانى والحيثيين ، وزواجه من ابنة ملكهم تحسنت العلاقات بين مصر وبلاد الحيثين ، فتبادلا السلع التجارية ، وكان معدن الفضة كثيرا فى القطر الأخير ، فاستوردته مصر منها ، فكثر فيها فقل ثمنه .

وفى عهد الأسرة الأولى كان الذهب يلحم بعضه ببعض بدقة عظيمة ، وقد عرف المصريون معدن النحاس بمقادير قليلة منذ عصور ما قبل التاريخ ، ولكنه لم يصبح ذائع الاستعمال فى صنع الأوانى والأدوات الأخرى الا فى أوائل عصر الأسرات ! ولقد كان يخلط بعض المعادن الأخرى الا فى أوائل عصر الأسرات ! ولقد كان يخلط بعض المعادن الأخرى لجعله أشد صلابة ، وأخف وزنا ! ومن تلك المعادن التى كان يخلط بها البزموت والمنجنيز والزرنيخ والقصدير !

ولم يعرف المصريون البلاتين الا فى أواخر عصر الأسرات ، اذ لم يستخدم فى التطعيم الا فى عهد الاسرة الخامسة والعشرين .

ولقد صنع المصريون حبات العقود من الحديد فى عصر ما قبل التاريخ ، ولكنه لم يكثر استخدامه فى الصناعة الا فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ! اذ كان يعلق بشباك صيد الاسماك ليزيد من ثقلها !

ولقد حصل المصريون على القصدير النقى فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وعلى الانتيمون (١) فى عهد الأسرة الثانية والعشرين !

ولقد صنع المصريون حبات العقود من الحديد فى عصر ماقبل التاريخ وكان لندرته كالذهب قيمة ! ولقد عثر على بقايا حديدية ، يرجع تاريخها الى عهود الأسرات الرابعة والسادسة والثانية عشرة ، وما بعدها ! ولكن قلتها جعلت بعض المؤرخين يظنون أنها من بقايا

---

(١) حجر شبه كريم أزرق !

شهب سماوية ، وليست خام حديد مستخرج من مناجم ! والذى لا ريب فيه أن الحديد كان معروفا ابتداء من الأسرة التاسعة عشرة ، ولكن ارتباط ذلك المعدن بالاله ست صرف المصريين عن استعماله والانتفاع به حتى عصر البطالمة .

ولم يكن الزئبق معروفا فى مصر ، حتى جاء به الرومان ! وكان المصريون ينقبون فى الصحراء الشرقية عن المعادن والأحجار القيمة ، وقد عثروا على عدد من الأحجار المتينة الجميلة المنظر ، وقد برز صناعهم فى نحتها والنقش عليها ! ومن أجمل تلك الأحجار التى عثروا عليها حجر البورفير الامبراطورى الأحمر(١) فى أوائل عهد الأسرة الأولى ، لظهوره فى آثارها ، ثم اختفى ولم يعد للظهور الا فى آثار العهد الرومانى .

وفى عهد الأسرة الثانية عشرة استخرج حجر الجمشت(٢)، ولم يظهر بعد ذلك الا فى أواخر عهد الرومان فى مصر .

وقد استعمل المصريون الامازوينت فى عهد الأسر من السادسة الى الثامنة عشرة على أن مصدره لا يزال مجهولا لنا حتى الآن ! .

---

(١) حجر أرجوانى اللون ذو حبات دقيقة ، يوجد فى الصحراء الشرقية عند جبيل الدخان ، وهناك نوع منه استعمل فى عصر الأسرات الأولى فى صنع الأوانى ، ويتكون من بلورات بيضاء فى رقعة سوداء .

(٢) الجمشت أو الأماتيست حجر بنفسجى اللون يتركب من الكوارتس الشفاف الملون بأكسيد المنجنيز .

وكان المصريون يصهرون المعـادن في قوالب مفتوحة ، أو يحيلونها بالطرق الى صفائح رقيقة ! ولقد كانت الطريقة الاخيرة دقيقة جدا اد كان سمك بعض المعادن المطروقة يصل أحيانا الى أقل من ١/٥٠ من البوصة ... وقد استخدمت هذه الطريقة أى طريقة الطرق فى صناعة الأوانى النحاسية الرفيعة ! وكانت رقائق النحاس تستخدم فى كساء التماثيل المصنوعة من الخشب ، بتثبيتها بمسامير من النحاس أيضا !

ولقد كانت صناعة الأسلاك والسلاسل النحاسية من الصناعات المعروفة فى مصر ، وكان لحام المعادن بنفس مادتها متبعا فى صـنع الحلى فى عهد الأسرة الأولى ، وفى صنع الأوانى والادوات النحاسية فى عهد الاسرة التاسعة عشرة ! أما استخدام سبائك الرصـاص والقصدير فى لحام المعادن ، فلم يعرف الا فى العهدين اليـونانى والرومانى ! .

ولقد ظهرت صناعة اللبن فى أواخر عصر ما قبل التاريخ ، ثم عمت صـناعته في العصـور اللاحقة (١) وتوجد فى ابيدوس قلعة

(١) كان المصريون يستخدمون الاسرى فى ضرب اللبن ، ويعتقد المؤرخون ان الفراعنة سخروا بنى اسرائيل فى هذا العمل ! وكان حجم اللبنة الواحدة حوالى ٣٨×١٨×١٢ س م . ويلاحظ أن مصر الفرعونيه لم تعـرف الطوب الأحمر المحروق . وأحسن وصف لصناعة اللبن فى مصر ورد منقوشـا على حائط من حيطان مقبرة الوزير وخمارع . وكانت الطريقة المتبعة فى صناعته لاتختلف كثيرا عن الطريقة المستخدمة الآن ! ويتلخص فى عمل حفرة فى الارض على مقربة من

مشيدة بالطوب اللبن يبلغ ارتفاعها ٣٥ قدما ، ويرجع تاريخ بنائها الى عهد الأسرة الثانية ، وهى لا تزال قائمة لم تتأثر بالعوامل الجوية الا قليلا ! ولقد بلغ سمك أسوار بعض المعابد ثمانين قدما فى تانيس عاصمة مصر فى عهد الأسرة الواحدة والعشرين • وفى تل العمارة كانت أسوار القصر مزدوجة بينها ممر كانت طوائف الحرس تجوس خلاله !•

وكان المصريون يعرفون الغزل والنسج منذ أوائل عصر ما قبل التاريخ ، وفى عهد الأسرة الأولى كان نسج الكتان قد بلغ درجة من الاتقان يضارع أجود الأنواع المصنوعة فى كاميرى فى فرانسا من حيث جمال المظهر ومتانة الصنع !•

ومما لا ريب فيه أن الغزل كان يؤدى باليد ! وكان نوع المغزل اليدوى يختلف من عصر الى عصر • وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت الرسوم الملونة على الاقمشة تتم فى أثناء نسيجها فى أشكال دقيقة بديعة يزينها حروف هيروغلوفية •

= بركة ماء أو جدول ، يوضع فيها الطين ويضاف عليه بعض الرمل لوقايته من التشقق عندما يجف ، وقد يخلط بالتبن ليجعله متماسكا ، ثم تؤخذ كتلة كبيرة من المزيج وتوضع على حصير مفروشة فوق أرض مستوية ، وبعد ذلك يبدأ العمال فى تعبئته فى قوالب من خشب ذات مقابض ، وتسوية سطحه باليد ! ثم يخرج منها ويوضع فى الشمس لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، ثم يقلب أعلى لأسفل !

أما الملاط الذى كان يستعمل فى البناء باللبن ، فكان يتكون من طمى النيل المخلوط بقطع صغيرة من الفخار (أ) ارجع لكتاب مصر والحياة المصرية للمؤلف، وكتاب مصر واسرائيل للمؤلف نفسه ص‌ص ٣٢ — ٣٣ •

وقد عرفت الصباغة فى عهد الأسرة الثانية عشرة ، وربما قبل ذلك ! وقد وجدت مصبغة كاملة فى عهد الرومان بها أحواض تحتوى على أصباغ مختلفة فى بلدة اتريب بالقرب من مدينة سوهاج (١) وقد استعملت آنذاك مواد لتثبيت الألوان وفقا لما ذكره بلينى ! وقد استطاع المصريون تثبيت ألوان الزخارف على المنسوجات بغمسها فى محلول الشب •

وكانت المواد المستعملة فى تثبيت الألوان هى كما يأتى :

١ ـ اللون الأحمر : وكان يركب من مخلوط الهماتيت (٢) والمغرة الصفراء المحروقة •

٢ ـ اللون الأصفر : وكان يصنع من عدة أنواع من المغرة ، وللحصول على نوع جيد منه كان الرهج الأصفر أو أصفر الملك يستخدم لذلك •

٣ ـ اللون الأخضر : وكان يصنع من الملاخيت (٣) حتى عصر

---

(١) المعروف أن انريب مى بنها الحالية عاصمه القليوبية !

(٢) الهماتيت او حجر الدم نوع من أكاسيد الحديد ، يوجد طبيعيا بألوان مختلفة ـ اسود ، أحمر اسمر •

(٣) الملاخيت أو حجر الوهج أو التوتية هو النحاس الغفل ، لونه أخضر ، وكان المصريون يستعملونه كحلا للعيون ، ويستخدمون فى طحنه ألواحا من الاردواز بيضاوية الشكل ، وأشهر مثال لهذه الألواح لوح الملك مينا أو نارمر الموجود بالمتحف المصرى بالقاهرة !

الأسرة السادسة ، ثم استعملت سلسلات الجير الخضراء والنحاس في ذلك .

٤ ـ اللون الأزرق : كان يصنع فى عهد الأسرة الرابعة من كربونات النحاس الزرقاء .

٥ ـ اللون البنى : كان يصنع من أنواع عدة مختلفه من المغرة، بعضها يحرق خصيصا لذلك !

٦ ـ اللون الاسود : كان يصنع من أنواع السناج .

٧ ـ اللون الرمادى : كان يصنع بخلط اللونين الأبيض والأسود .

٨ ـ اللون الأبيض : كان يصنع من سلفات الجير .

وفي العصر الروماني استخدم أكسيد الرصاص الأحمر لانتاج اللون الأحمر الفاتح . ولقد كانت الرسوم الملونة تدهن بزلال البيض لوقايته من تأثير الماء حين يصيبها ! وكانت هذه الطريقه مستخدمة فى ذلك منذ أقدم عصور التاريخ المصرى حتى عهد الفاتح العظيم تحوتمس الثالث !.

صناعة نحت الاحجار

بدأ استخدام الأحجار فى البناء فى منتصف عهد الأسرة الأولى ، عندما استخدم حجر الجرانيت فى تبليط أرضية مقبرة مبنية باللبن خاصة بملك من ملوك هذه الأسرة ! .

وقد استبدل الحجر باللبن فى بناء المعابد الملحقة بالاهرامات فى أواخر عهد الأسرة الثالثة ! ومع ذلك فقد استمر استخدام اللبن فى بناء معابد الآلهة فى أبيدوس الى أن ظهرت الأبواب المصنوعة من الحجر فى عهد الأسرة السادسة ! ولم تلبث أن ظهرت مبانى شيدت كلها بالحجر فى عهد الاسرة الحادية عشرة !.

وان طريقة نحت الحجر التى كان المصريون القدماء يتبعونها تشبه الى حد كبير الطريقة التى يتبعها النحاتون فى العصر الحديث! فقد كانت تستخدم المناشير المرصـــعة بالأحجار الكريمة وتسويته. والمثاقب المصنوعة من أنابيب النحاس (١) فى قطع الجرانيت وتسويته. وكانت طريقة صنع التماثيل هى أن تحدد على قطع الصخر ، ثم تستعمل المناشير فى تشكيلها ، يلى ذلك استعمال المثاقب فى عمـل التجاويف العميقة ، وازالة النتوءات بالمطارق(٢) !.

وكانت المثاقب تستخدم أيضا فى صنع الأوانى الحجرية بعمل فجوة فى حجم فوهة الآنية ، ثم يوسع التجويف بمثاقب من الحجر الصلد ، ويرش بمسحوق الصنفرة بين وقت وآخر ، وتتحرك فى التجويف فى اتجاه مائل ! وبهذه الطريقة كانت سمك جدار الاناء

---

(١) كانت المثاقب تدار اما باليدين ، أو بمقبض متحرك !

(٢) تترلب المطارق من كرات من حجر الدلوريت (Dolerite) الشديد الصلابة بها تجاويف تركب فيها عصى أو قضبان ! وكان المصريون يحصلون عليها بحالة طبيعية من الصحراء الشرقية .

ارجع الى Engelbach : Problems of the Obelisks, p. 42.

المنحوت من البورفير الامبراطورى ، والذى يبلغ قطره قدمين و١/٤ بوصة ! وكان سطحه الخارجى يصقل بالصنفرة (١) .

ولم يستعمل المخارط فى صنع الأوانى حتى العهد الرومانى ! ولقد كانت الحلقات المحفورة على أرجل المقاعد تنحت باليد ..

ولقد كان الترقيع يسود صناعة الأوانى فى عهود التدهور الفنى الذى منيت به الصناعة فى مصر بوجه عام ! فقد كانت الأوانى المصنوعة من الحجر آنذاك لا تنحت من قطعة واحدة من الحجر ، ولكن كانت تنحت قطعا ، ثم تلصق كل قطعتين منها بعضها ببعض ، كما كانت تجوف الأوانى من ناحيتين ، ثم يركب لها قواعد ! أو تخلط شظايا الحجر الجيرى بالطين لتبدو وكأنها من حجر البورفير الامبراطورى !.

ولقد كانت مظاهر الترف واضحة فى العصور التى اتسمت بالثراء والغنى مثل عصور الأسرات الأولى والخامسة والثانية عشرة والسادسة والعشرين . وكذلك فى عصر البطالمة ، ولقد صحب ذلك انتشار التهتك والفساد ! .

---

(١) لقد استخدم المصريون الرمل والماء لصنفرة الأوانى فى عهد الدولة القديمة ، يدلنا على ذلك نقش على أحد جدران مقبرة « وب أم نفرت » فى الجيزة (ارجع الى مصر القديمة جزء ٢ ص ١٦٧ للاستاذ الكبير سليم حسن) . ويبدو أنهم عرفوا حجر الصنفرة بعد ذلك (ارجع الى كتاب Problems of the Obelisks, p. 81). (Engelbach للاستاذ

ولقد ادهش الاغريق وفرة الأزهار فى مصر فى جميع فصول السنة ، وكثرة منتجات البساتين ، والاكثار من استعمال العطور ، ومظاهر البذخ الأخرى ! •

وأكبر دليل على كثرة استعمال الزهور للزينة فى الاعياد والحفلات تلك الوثيقة المدونة على ورق البردى الجنائزى ، والتى تشيد بأعمال رمسيس الثالث الخيرية وتعدد هباته للمستحقين (١) •

المقايضة :

لقد كانت المنتجات على اختلاف أنواعها تتداول بادىء ذى بدء عن طريق المقايضة ! ولقد عثرنا على مناظر عدة لأحد الأسواق على جدران مقبرة من المقابر التى يرجع عهدها الى الأسرة الخامسة ، ومنها يتبين أن المقايضة كانت القاعدة المتبعة آنذاك • وليس هناك ما يشير الى وجود معايير ثابتة لتقييم السلع !•

ولقد كان مبدأ مقايضة الخبز بالجعة ، يستند على تساوى مقدار الحنطة الذى فى كل منهما !•

ولقد عاد الرومان فى أواخر عهدهم الى طريقة المقايضة بسبب

---

(١) بردية تعرف باسم ورق هاريس ، يبلغ طولها أربعين مترا ، وبها مائة وسبعة عشر سطرا من الكتابة ، فهى لذلك تعد أطول بردية وصلت الينا حتى الآن ! وقد قام بتدوينها الملك رمسيس الرابع ، وسرد فيها أعمال ابيه رمسيس الثالث الخيرية ، وهباته للمعابد ، ومنها عرفنا مقدار ما كانت تملكه هذه المعابد من الأراضى ذات المساحات الكبيرة !

انتشار العملة الزائفة حينئذ ! ولقد كانت حكومتهم آنذاك تتقاضى عينا لا نقدا ! •

الموازين والمقاييس :

ويبدأ وجود معيار مشترك فى عصر الدوله الوسطى ، حين كانت السلع التموينية والماشية تقدر بقدر معين من النحاس ! ولقد عثر على خلاخيل من النحاس ترجع الى عهد الأسرة الثامنه ، تكاد تكون متساوية فى الوزن ، الأمر الذى يوحى بأنها كانت أثقالا توزن بها بعض الأشـــياء ! وكان المصريون آنذاك يتداولون الذهب فى هيئه حلقات ، وربما كانوا يتداولون الفضة فى هيئـة حلقـات أيضا !•

ويظهر من قوائم الضرائب التى ترجع الى عهد الأسرة الثامنه أن كل واحـدة من تلك الحلقات الذهبيـة كانت تساوى فى وزنها دبنا واحدا (١) (١٤٠٠ حبة) وفى عهد الأسرة العشرين كانت المسروقات من المقابر لا تذكر أنواعها ، ولكنها كانت تذكر مقادير قيمتها بالنحاس ! •

وأول عملة استعملت فى مصر كانت العملة الفضية الاغريقيه الواردة من منطقه بحر ايجه ، ولم يكن هنـاك أية محاولة لاصدار عملة مصرية مستقلة قبل العهد الفارسى ! ففى أثنـائه سكت عملة فضية تحمل على أحد وجهيها صورة البومة المصرية ، وعلى وجهها الآخر مدقة الحنطة •

وفي عهد البطالمة أصبحت العملة المصنوعة من الذهب والفضة والنحاس أساساً ثابتاً للنقد في مصر ! غير أنها لم تسلم من التزييف ، وفي أواخر العهد البطلمي بخاصة ! .

ولم تلبث أن هبطت قيمتها في العهد الروماني بسبب سوء الحكم وتفشي الفساد آنذاك ، فارتفعت أسعار السلع والبضائع ارتفاعا كبيرا ! .

ولعل أقدم وحدة للمقاييس كانت عرض الاصبع ، وكان طول عشرين أصبعا يساوي ما كان يطلق عليه لفظ رمن (Remen) أي ما يساوي ١٤٫٦ بوصه ! وهو أساس المقاييس العقاريه ! وقد ذاع استعمال الزراع في المباني ، وكان يساوي ٢٠٫٦ بوصه ! وكانت وحدة مقاييس المساحة هي الأستاد أو الأرورة الاغريقية ، وتساوي ١٠٫٠٠٠ ذراع مربع ، وهذه المساحة تساوي ضعف عشرة آلاف رمن مربع ! .

وكانت وحدة مقاييس الطرق هي الرحلة الملاحية النيلية ، وكان طولها ٢٠٫٠٠٠ ذراع ووحدة الطرق البريه هي السخيتوس ؛ وطولها ١٢٫٠٠٠ ذراع . وكانت هذه الوحدات تقسم الى وحدات أقل ، طولها ١٠٠٠ ذراع !

أما وحدة الوزن فقد كانت في الحقبه الأولى لما قبل التاريخ هي النوب (Nub) أو الوحدة الذهبية ، وكانت زنتها ٢١٠ حبة أو قمحة ، وفي الحقبة الثانية لما قبل التاريخ كانت الشكل

(Shekel) وزنهـا ١٢٨ حبـه ، أما فى عصور الأسرات فقد كانت القدت (Quedet) وزنها ١٤٥ حبـة ، وكانت الدبن يساوى عشر قدات •

وكان المصريون القدماء يقسمون السنة الى أشهر عدتها اثنا عشر شهرا ، والأشهر الى أيام ، وعدد أيام الشهر ثلاثون ، وكانوا يضيفون خمسة أيام فى آخر كل عام ! كما قسموا السنة الى ثلاثة فصول عدة كل منها أربعة أشهر ، وكانوا يسمونها ، فصل النماء ، وفصل الركود ، وفصل الفيضان ! وكانوا يقسمون كلا من النهار والليل الى ساعات عدتها لكل منهما ١٢ ساعة • ولقد أدى نقص ١/٤ يوم كل عام الى تراجع الشهور ، بحيث تتم دورتها مرة كل ١٤٦٠ عاما ! فطابقت دورة نجم الشعرى اليمانية ! فقد كان هذا النجم يرصده المصريون عندما تشرق الشمس كلّ يوم لتحديد بدء السنة (١) •

---

(١) يظهر نجم الشعرى اليمانية فى الأفق الشرقى فى مستوى طلوع الشمس فوق الأفق على خط عرض مدينة منف فى صباح ١٩ يوليه حسب التقويم اليوليانى (الافرنجى) وقد ربط المصريون بين شروق الشعرى اليمانية وبداية فيضان النيل ، واعتبروا هذا التاريخ أول السنة ، وقسموا الفصول على أساسه !

ولكن اتفاق شروق الشعرى مع الشمس لا يحدث كل سنة فى يوم ١٩ يولية ، لأن السنة ٣٦٥¼ يوم لا ٣٦٥ يوما فقط •• وبذلك تتأخر السنة المصرية المدنية التى هى المدة ما بين شروقين شمسيين لنجم الشعرى عن السنة الحقيقية كل عام بمقدار ربع يوم أو بمقدار يوم كامل كل أربع سنوات ، وتكون النتيجة الحتمية لذلك تأخر الفصول •

ولقد كان في مصر القديمة وزانون عامون تخصصهم الحكومه للتحقق من أن الباعه لا يطففون فى الميزان •

وكانت السلع والبصائع التى تصدر الى حارج مصر ترسل الى بلاد النوبة والشام والمغرب ! وعبر البحر الأحمر الى البـــلاد المطلة عليه ! والى بلاد بونب (الصومال) •

ولقد كثرت البعـــات الى بـــلاد التوبة لكشف ما وراءها من أقطار تمهيدا لتبادل السلع والمنتجات ! ولقد كان من أهم عوامل تسهيل الوصول اليها القناة التى تم حفرها فى عهد الملك سنوسرت الثالث عبر شلال أسوان ! وقد بلغ اتساعها ٣٤ قدما وعمقها ٢٤ قدما وكان اتســاعها وعمقها بســمحان للسفن المحملة بالبضـــائع بالمرور فيها !•

= ولم يكن دلك محسوسا للمصريين فى مدة قصيرة ! ولكنه أصبح واضـــحا على مر القرون ! فوصح لهم أن فصول التقويم غير مطابقة للفصول الحقيقية ! ولدينا شاهد على ذلك الا وهو تمرين انشائى ورد فى كراسه تلميد مصرى عاش فى عهد الأسرة التاسعة عشرة ، نحمله فيما يلى :

تعالى الى يا آمون خلصنى من الســنه المضطربه ، لم تعــد الشـــمس تسطع ، ويحل الشتاء محل الصيف والشهور تسير القهقرى •

وعلى الرغم من أن هذا التباين كان مربكا ومضايقا للناس لحلول الأعيـاد الدينية والمدنية فى غير مواقيتها التى كانت تأتى فى ابان طفولتهم وصباهم الا انه لم يؤثر على مواقيت الزرع والحصاد ! اد كانت متبعة للظواهر الطبيعية •

ولقد تمكن علماء التاريخ والفلك من تحديد معرفه **المصريين لهـذا التقويم** بدراستهم للدورة الشعرية ! وقد توصلوا الى أنه تم لهم معرفته فى ســـنة ٤٢٤١ ق • م •

ولقد كان الاتصال ببلاد النوبة وثيقا في عهد الأسرة الثانيه عشرة بخاصة ، ولم تلبث مصر أن سيطرت عليها سيطرة تامة في عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وامتد سلطانها جنوبا حتى بلدة نباتا الواقعة على خط عرض ٣٠َ ١٨° .

وكانت الجزيه التي فرضتها مصر على كل من بلاد النوبة والسودان تشتمل على معدن الذهب والرقيق من الذكور والاناث والجوز والصمغ والحنطة والعاج والابنوس وجلود الفهد والماشية!

وكان الجانب الأكبر من تجارة منطقة البحر الأحمر يتبع طريق الصحراء الشرقية التي كانت تبتدىء من قفط ! ولقد اختيرت هذه الطريق تجنبا للشعاب المرجانية التي كانت تكثر في شمالى البحر الأحمر ! وفي عصر الدولة الوسطى أصلح هذا الطريق ، وسمى وادي الحمامات ، وذلك بحفر الأبار ، واعداد صهاريج الماء وانشاء مراكز حراسة لها على جانبيه ! وفي عهد سيتي الأول زادت مرافق المياه في هذا الطريق وقويت وسائل الأمن فيه !.

ولقد كان البحر الأحمر الطريق الطبيعي من مصر إلى بنت(١) ، ففي عهد الملك أسيسى أحد فراعنة الأسرة الخامسه ، أرسلت بعثة تجارية الى تلك البلاد ! كما أرسلت بعثة تجارية أخرى في عهد سفنح كارع (منتوحتب الخامس) أحد ملوك

---

(١) هي بلاد الصومال ، كما يرى ذلك معظم المؤرخين

الأسرة الحاديه عشرة ، وأرسلت بعه ثاله في عهد أمنمحات الثانى احد فراعنة الأسرة الثانيــة عشرة ، ولكن أهم هده البعثات جميعا هى البعثة العظيـمه التى أرسلتها الملكة حتشبسوت (١) •

ولم تقتصر تجارة مصر عبر البحر الأحمر فيما تلا ذلك من العهود على بلاد بنت ، بل شملت سواحل شبه الجزيرة العربيــة والهند !•

ويقول استرابون ـ المؤرخ المشهور ـ لقد كانت الأسـاطيل المصرية العظيمة تبعث الى الهند ، والى ما وراء أثيوبيا قاصدا بعض الأقطار الافريقية المطلة على المحيط الهندى جنوبى بنت وزنزبار بخاصة •

---

(١) كان العرض الأساسى من ارســـال هده البعثات هو احضار البخور اللازم للشعائر الدينية والجنائزية وقد بلغ حرص المصريين على الحصول عليه أن الملكة حتشبســوت أوصت باحضار أشـــجاره فى اصص ، وزرعتهـــا فى حديقـــه معبـــدها بالدير البحرى •• وهذا ولم تكن منتجـــات بنت قاصرة على البخور ، ولكنها كانت تشمل التبر والعاج والابنوس وجلود الحيوانات • ولقد أطلق المصريون على بنت « أرض الاله » وكانوا يعدون أنفســهم منحدرين من احدى سلالات سكانها ! فقد رسموا سكانها على الآثار المصرية بلحى كلحى آلهة المصريين ، كما لو لونوا أجسامهم باللون الاحمر الذى كانوا يلونون به أجسامهم والذى كانوا يميزون به أنفســهم من بين أفراد الشعوب الأخرى الذين كانوا يرسمونهم على آثارهم ! كما كانوا يرسمون شعورهم مرجله على الطريقة التى كانوا يرسمون بها أنفســهم ! كما كانوا يضعون على اجسامهم القميص المصرى ، والى جانب هذه السلالة مثل المصريون فى رسوماتهم سلالتين أخريين ينتميان الى الجنس الزنجى الاسود •

ويذهب بعض المؤرخين الى أن هنـــاك أدلة علمية على حـدوث هجرات من بلاد بنت الى مصر فى عصر ما قبل التاريخ !

ولقد كان التبادل التجارى بين مصر والشام مستمرا منذ عصور التاريخ الأولى ! وكانت أهم سلعة تحرص مصر على استيرادها من الشام حجر اللازورد !.

ولقد هبط مصر فى الحقبة الثانيه لما قبل التاريخ اقوام ، ويرجع المؤرخون أنهم جاءوا من الشام ، وقد أحضروا معهم أقدم قطعة من الزجاج عرفها المصريون ، ومنذ ذلك العصر استمر استيراد مصر للزجاج من الشام ! ولقد استقدمت مصر نفرا من الماهرين فى صنعه من الشام فى عهد الأسرة الثامنة عشرة لتعليم المصريين صناعته ! وبذلك نشأت صناعة الزجاج فى مصر ! .

ويبدو أن احتلال الهكسوس لمصر قد ساعد على انساع مجال التجارة المصرية فى الأقطار المجاورة ! ولا أدل على ذلك من العثور على بعض المنتجات المصرية فى عهد الملك خيان (١) فى كل من كريت والعراق ! ولقد كان ملوك الأسرة الهكسوسية الثانيه يلقبون أنفسهم « سادة الشمال وملوك البحر » كما هو منقوش على الجعارين الخاصة بهم ! وعلى الرغم من أن الهكسوس قد طردوا من مصر ، فان تجارة مصر مع الشام لم تتأثر ولم يعتورها نقص بل زادت ! ولعل سبب تلك الزيادة كان استيلاء مصر على بلاد الشام حتى نهر الفرات ! وكانت لذلك البضائع والسلع الشامية

---

(١) أشهر ملوك الهكسوس الذين حكموا مصر .

ترد الى مصر عن طريق البحر وعن طريق البر ! ولقد كان الجانب الأكبر من الأخشاب المستعملة فى كافة أنواع الأثاث الجيد الذى كان يصنع فى مصر كان يؤخذمنأشجار الأرز والصنوبر المستوردة من بلاد الشام • ومن البضائع المصرية التى كانت تصدر الى بابل والشام المنسوجات الكتانيــة والأشرعة المزركشة بخاصــة ، والتى اشتهرت وتميزت بها السفن والزوارق المصرية (سفر الملوك الأول، اصحاح ١٠ آيات ٢٨ ، ٢٩ ، وسفر حزقيال اصحاح ٢٧ آية ٧)•

وفى عهد الأسرة السادسة والعشرين كان الفينيقيون يضطلعون بدور الوساطه فى تصريف المنتجـات المصرية ، واســتيراد السلع التى تحتاجها مصر من الأقطار المجاورة ! وكانت الحكومة تتقاضى منهم ضرائب كانت من أهم موارد الايرادات العامة للدولة ! •

ولقد أدى تأسيس الاسكندرية واضطلاع بعض سكانها بتصريف المنتجات المصرية ، واســتيراد ما تحتاجه مصر من سلع أجنبية ، واضمحلال صور أهم موانى الفنيقيين الى القضاء على دور الفنيقيين فى التجارة المصرية !•

ولقد كانت مصر فى أوج عظمتها واتساع رقعة سيطرتها فى ابان عهد تحوتمس الثالث قائدها العظيم تستورد الحنطة من الخارج على الرغم من زراعتها فى مساحات كبيرة فى مصر ، وهذا يدل على كثرة عدد سكان مصر ! وكانت مصر لذلك تعتمد على الجزية التى كانت تفرضها على الأقطار التى انضوت تحت لوائها ، وعلى تجارتها

الخارجية لسد ضرورات حياة سكانها الذين كانوا يتزايدون باستمرار !.

وان هذه الزيادة فى عدد سكان مصر لا ترجع الى جلب الرقيق لأن تجارة الرقيق فيها لم تبلغ قط ما بلغته فى بلاد الاغريق ! ولهذا لا يعزى الى وجود الرقيق فى مصر الاخلال بميزان الاحوال الاقتصادية فيها كما هو الحال فى بلاد الاغريق فى بعض عصور تاريخها ! ولهذا فان المؤرخين يعزون استيراد مصر للمواد الغذائيه الى الزيادة الطبيعية السريعة فى عدد سكانها ! .

ولقد كانت منطقة البحر المتوسط آخر المناطق التى كانت تتبادل منتجاتها مع مصر ! ولقد كانت مصر فى الحقبة الأولى لما قبل التاريخ ذات علاقة تجارية مع بلاد الاغريق ، وكانت تستورد منها الصنفرة لاستخدامها فى صقل رءوس الصولجانات المصنوعة من الأحجار الرملية ! كما كانت تستورد فى الحقبة الثانية من هذا العصر العتيق الانسديان(١) من ساموس (٢) ، ومخلوط الذهب والفضة من باكتولس (٣) ! كما يبدو وأنها كانت تستورد الذهب

(١) هو الحجر الرجاجى الاسود ، وهو زجاج طبيعى بركانى الاصل ، وعندما يكسر الى قطع يكون شفافا ، وكان يستخدم فى مصر لصناعة الآلات ورءوس الحراب ، وعيون التماثيل ، والجمارين وبعض الاوانى الصغير الحجم !

(٢) ساموس احدى جزائر بحر ايجة .

(٣) منطقة تركية يمر بها نهر باكتولس (Pactulos) جنوب غرب مدينه انقرة .

فى عهد الأسرة الثانية من تراتسلفانيا (١) .

وكانت هذه أهم السلع التى كانت تنقل الى مصر عبر البحر المتوسط .

ومن الأدله على وجود تبادل تجارى بين مصر وكريت فى عهد الأسرة الأولى تلك الأقداح الفخارية السوداء ، التى كان يستخدمها المصريون فى تعبئة الأصباغ الحمراء لتصديرها ، وكذلك أوانى الأمفورا السوداء (٢) التى تشبه تمام الشبه متيلاتها فى كنوسوس (٣) .

ولقد استدل الاثريون والمؤرخون على أوصاف السفن التى كانت تحمل البضائع والسلع من أقطار البحر المتوسط الى مصر ، ومنها اليها من الرسوم المنقوشة على الأوانى التى عثر عليها ، ويرجع

(١) اعتمد المؤلف فى ذلك على أن الذهب الذى كان يجلب الى مصر فى ذلك العصر كان يحتوى على مقدار من الاثمد ، ولما كانت ترانسلفانيا هى موطن الاثمد ، فرجح استيراده منها (انظر
Petrie : Descriptive Sociology of Egypt, p. 57.
ولكن الدكتور سليم حسن يعارض ذلك ، ويقول ان الوثائق المصرية تدل على أن الذهب كان يجلب الى مصر من الأقاليم الجنوبية ، ولا توجد لدينا وثائق تاريخية تشير الى أنه كان يستورد من الشمال قبل عصر الاسرة التاسعة عشرة (انظر : سليم حسن : مصر القديمة ، ج ٢ صص ١٩٠ – ١٩١) .

(٢) أوانى اغريقية الطراز ذات عروتين ، كانت تستخدم فى حفظ النبيذ والزيت وبعض الأطعمة والعسل . ولها فتحات تسمح بادخال مغرفة ، وكثيرا ماكانت تحلى برسوم ملونة !

(٣) العاصمة القديمة لجزيرة كريت .

تاريخها الى عهود ما قبل التاريخ ! فقد كانت مختلفة الأحجام يصل طول أكبرها حجماً الى نحو مائة قدم ، وتسير بمجازيف ! وكان على ظهر كل سفينة منها غرفتان صغيرتان تتصلان بمعبر (كوبرى) يمتد بين سطحيها ، كما كان يوجد على سطحها مظلات لتقى البحارة والمسافرين عليها حرارة الشمس ! وكانت تحمل شعار القطر التابعة له فوق ساريه منبتة فى أعلى الغرفة الخلفية ! وكان يوجد فى مؤخرتها مجداف طويل يستخدم لتوجيهها بمثابة الدفة ! أما المرشد الذى كان يجلس فى مقدم السفينة فكان يحتمى من وهج أشعة الشمس بغصن مورق من أغصان بعض الأشجار .

ولقد استدل الاثريون والمؤرخون من تقاليد أهل كريت لطرز الأوانى المصرية ، فى عهد الدولة القديمة ، على قدم الصله بين البلدين فى ذلك العصر !.

أما فى عهد الدولة الوسطى فقد كانت مصر تستورد الأوانى الكريتية المصنوعة من الفخار ذات الرسوم الملونة ، والتى كان يطلق عليها سلع كاماريس (١) .

ولقد استنبط المؤرخون من انشاء الميناء الكبير شمال

---

(١) أوانى كبيرة على هيئة نصف كرة عليها زخارف هندسية حمراء وصفراء وبيضاء على أرضية سوداء .

الإسكندرية (١) ، والمغمور تحت مياه البحـر الآن أن التجارة بين مصر وكريت كانت نشيطة •

ولقد اتسع نطاق التجارة الخارجية لمصر في عهد الملكأمنحتب الثالث ، ولا أدل على ذلك من وجود أوانى فخـارية مصـقولة ، وجعارين خاصـة به ويزوجته الملك تى فى ميكينا (٢) • ولقد أتقن الاغريق تقليد المصنوعات المعدنية المطعمة التى كانت تصنع فى عهد أحمس الأول اتقانا يصعب معه التفريق بين المقلدة والأصيلة !ولقد وجد ضمن مخلفات قصر أخناتون بقايا لما يقرب من ٨٠٠ آنية من صنع اقليم بحرايجة ! غير أن تلك التجارة النشـيطة بين مصر واليونان وجزائر البحر الأبيض لم تلبث أن اضمحلت نتيجة لغزو الدوريين لبلاد الاغريق ، وانتهاء دولة الرعامسة ، ولكنها عادت

---

(١) كان يقع هذا المينا شمال غرب جـزيره فاروس القـديمة (راس التين الحاليه) وكان مدحله فى الفجوة المحصورة بين الراس التى يقوم عليها الآن فنار رأس التين وبداية حاجز الأمواج ، ويتناثر الآن فى هذه الفجوة صخور تعـرف بالرملة البيضاء . ولقد ذكر هذا الميناء هرميروس فى الياذته ، اذ يقول : «وهناك جزيرة فى البحر الخضم يسمونها فاروس ، خارج حدود مصر لها ميناء ذو مرأس جيدة» .

ويقول جونديه الذى كشف عنه : ان بحارة نرست بنوه فى العصر المتوانى، ولكن يرجح بعض العلماء انه من عمل رمسيس الثانى على حين يقول آخرون ان هذه الاطلال ليست الا أبنية الغرض منها حماية جزيرة فاروس من طغيان البحر انظر : (Jondet : Mémoires de l'Institut Français, tome IX).

(٢) منطقه اثريه شرقى اليونان قامت بها حضاره مزدهـرة بين القـرنين السادس عشر والثانى عشر قبل الميلاد . وقد قضى الدوريون عليها عند غزوهم لبلاد اليونان عام ١١٠٤ ق.م .

فنشطت مرة أخرى ، اذ جاء التجار الاغريق فى القرن السابع قبل الميلاد الى مصر ، وأنشأوا صلات تجارية مع المصريين ومع سكان الدلتا بخاصة !

ولما اعتلى ابسماتيك عرش مصر بمساعدة جنود مرتزقة من الاغريق فى عام ٦٤٤ق٠م أسكنهم على جانبى الدلتا فى حصون نقراطيس فى غربيها ، ودفنى فى شرقيها !٠

وبعد غزو الاسكندر الاكبر لمصر وبنائه مدينة الاسكندرية أصبحت مصر من الناحية العلمية جزءاً من العالم التجارى الاغريقى آنذاك ! وما جاء عام ٢٥٠ق٠م حتى أصبحت الاسكندرية أغنى مدن العالم بفضل تجارتها الواسعة ٠

وكان النيل هو الطريق الرئيسى للنقل الداخلى ، ولم تكن هناك حاجة الى وسائل أخرى للمسافات الطويلة ! وقد أنشأ المصريون طرقا طويلة ممهدة كلما دعت الحاجة الى نقل الأحمال الثقيلة الى النيل والترع ، ومنهما الى جهات مصر المختلفة وكان ينتهى الى كل هرم من أهرامات مصر طريق تنقل عليها قطع الأحجار اللازمة لبنائه٠

ولقد بلغ طول الطريق الذى انشأه خوفو عندما بدأ فى بناء هرمه الأكبر(١) أعجوبة الدهر ومعجزة الأيام ألف ياردة ، وعرضه ستين قدما !٠

---

(١) ذكر هيرودوت أن هذا الطريق استلزم اتمامه عشر سنوات ، وأنه بنى بحجارة مصقولة ، منقوش عليها صور بعض الحيوانات .

ولقد بالغ هيرودوت فزعم أنه يضـــارع الهـــرم الأكبر فى عظمته •

ولقد كان نقل التماثيـــل الضخمه بعد نحتها ، الى الأماكن المخصصه لاقامتها فيها ، يتطلب طرقا ممهددة تمهيدا جيدا ، وكانت الطريقة التى اتبعها المصريون فى نصب التماثيل الضخمه هى سحبها فوق منحـــدر طويل ، وبعد وصـــولها الى قمة المنحدر يهبط بها فى الجانب الآخر فى اتجاه قواعدها التى تقام عليها ! •

وكانت المسلات تنقل فى النيل بعد نحتها فى سفن عدة مربوطه بعضها ببعضها الآخر بحبال ! ولقد أثارت السفينة المصرية التى استخدمت فى نقل المسلة المقامة حتى الآن فى روما دهشة الرومان واعتبروها أعجوبة من أعاجيب الزمان ! (١) •

---

(١) فى عهد الملك تحوتمس الاول كانت تستخدم سفينة واحدة لنقل المسلات، طولها ١٢٠ ذراعا (حوالى ٦٠ مترا) وعرضها ٤٠ ذراعا (حوالى ٢٠ مترا) وكذلك الحال فى عهد الملكه حتشبسوت ، وكان يجرها ٢٧ قارب من دراب المجاديف مرتبه فى ثلاثه صفوف •

الفصل السادس

التشيد والدفاع

التشييد والدفاع

لقد كانت المساكن البدائية للقبائل المصرية في الصحراء (١) تتكون في بدء نشأتها من أكوام من الأحجار الخشنة غير المصقولة تقيهم حر الصيف وبرد الشتاء ، ومن العثير التي تذروه الرياح ! ولم يلبثوا أن استبدلوا بهذه الأكواخ البدائية خياما لها فتحات في الجهة المضادة لاتجاه هبوب الرياح السائدة آنذاك ! ثم زوردت تلك الخيام بعد ذلك بسياج من الغاب في الجهة المواجهة لهبوب الرياح ليضعف من حدتها ويمنع بعضا من الرمال التي تحملها ، ثم لم يلبث السياج أن أحاط بالخيمة من جميع جهاتها لمنع أطفال الأسرة وما كانت تملك من معزى وأغنام من التسرب الى الخارج فتضل ،

(١) كان سكان مصر الافدمون يبنون اكواخهم في الصحراوين الشرقية والغربية اثناء لفيضان النيل الذي كان يغمر جميع اراضي الوادي مده تقرب من ثلاثة شهور كل سنه .

الأطفال الطريق عندما تهم بالرجوع ، وتضيع المعزى والأغنـــام !

وعلى مر السنين وتقدم حضـارة المصريين اسـتبدلوا بسياج الغاب حائطا من اللبن حول الخيمة التى كانت تشد حبالها الى أوتاد تدق فى الحائط ! ولم يلبثوا أن استبدلوا بسقف الخيمة الذى كان من القماش سقفا من الغاب أو عيدان الذرة ، يرتكز على أعمــده ويضعون فوقه قليلا من أوراق الأشجار وأغصانها !٠

ويستطع الذى يجوب أنحاء مصر المختلفة أن يرى أكواخاً تمثل المراحل المختلفة التى مرت بها على كر الدهور ومر العصور ٠ ولا يزال الغاب وعيدان الذرة « البوص » يلعبان دورا هاما فى حياة ســكان وادى النيل فى مصر الى الآن ! ولا نزال نرى أنواعا من أكواخ الغاب أو من عيدان الذرة وسط المراعى والحقول يقيمها فلاحو مصر فى زمن الربيع يقضى فيها رعاة الماشية وحراس الحقول الليل ! ٠

ويقول ديودورس : لقد كان الرعاة المصريون القدماء يصنعون أكواخهم التى كانوا يأوون اليها آناء الليل من الغاب والبوص (١) كما يفعل أحفادهم فى الوقت الحاضر (٢) ٠

ولقد كانوا عند اقامة أكواخهم من سيقان الغاب يسـدون

(١) تطلق هذه الكلمة على عيدان الذره ٠

(٢) يقصد بالوقت الحاضر الزمن الذى عاش فيه ديودورس ٠

فى كثير من الأحيان الثغرات بينها بعيدان الذرة ! ولقد ظل طراز مبانى الأضرحة والمعابد باعتبارها مخلفات دينية لها قداستها ، محتفظاً بطابعه البدائى حتى عصر الدولة القديمة • ثم لم تلبث هندسة المبانى على اختلاف أنواعها أن تطورت ، فأصبحت الأكواخ مربعة الشكل مثبتا أمام كل كوخ منها عمودان يرتكز عليهما سقفه المكون من سيقان الغاب ، والممتد أمام باب الكوخ للاستظلال به ، وهذا الطراز لا تزال تراه اليوم فى حقول صعيد مصر ، يستخدمه بعض سكانه فى اتقاء حرارة الشمس •

وان الاكواخ المصنوعة من سيقان الغاب يطليها أصحابها بالطين لسد منافذها ، ومن سيقان الغاب يصنع الزراع أعمدة يطلونها بالطين، ويضعون على كل عمودين منها عارضة قوية من الخشب يعلقون بها شادوفاً تتراوح زنته بين قنطارين وثلاثة قناطير ، يستخدمونه فى رى أراضيهم !

ويرى بعض المؤرخين أن طلاء سيقان الغاب بالغرين بداية لبناء الحيطان ، وعلى أحد جدران أثر من الآثار المصرية القديمة نموذج لحائط يطل منه عدد من الرجال ، ويرجع تاريخه الى العصر الأول من عصور ما قبل التاريخ ! كما يوجد نموذج آخر لمنزل مثبت بحائط واجهته ألواح من الخشب فوق بابه ، وأخرى مثبتة فى أعلى نافذته وأسفلها •

ولقد أوحت طبيعة أرض مصر لسكانها بفكرة صناعة اللبن ،

اذ أن تشقق تربة أرضها بعد انسلاح ماء فيضان النيل عنها ، أتاحت لهم أخـذ كتل منها بعد جفافهـا ونقلهـا الى حيث يريدون اقامـة مساكنهم ، ويضعون بعضها فوق بعضها الآخر ليصنعوا منها حيطانا غير منتظمه الشكل لحظائر الماشـية ، كما كانوا يسـتخدمون الطين للصق الكتل بعضـها ببعض كما يستخـدم البناءون المونة فى ذلك ! وقد بدأوا صـنع قوالب اللبن المنتظمة الشكل خلال الفترة الأخيرة من عصر ما قبل الأسرات ! وأستخدموها فى رصف أرض المقابر ، وفى عهد الأسرة الأولى استخدموها فى اقامة المنازل والمبانى الكبيرة الأخرى !

ولقد كان سراة المصريين يسـكنون فى بيوت من الخشب ، وكانوا يصنعونها من ألواح يتراوح عرض كل لوح منها بين ١٢ و ١٤ بوصة ، وطوله يتراوح بين ٦ و ٧ أقدام وكانوا يقيمون تلك الألواح بعضها الى جوار بعضها الآخر بحيث تكون جوانبها متداخله فى بعضها بعضا ، ثم تربط بطريقة تجعل أطرافها لايصـدها صـاد ، حتى اذا تمددت أو انكمشت بسبب رطـوبة الهواء ليلاً أو جفافه نهاراً ، لاتترك ثغرات بينها مفتوحة ، وقد كانت لتلك البيوت الخشبية أبواب كثيرة لكى تسمح عند فتحهـا بمرور هواء كاف الى داخلهـا عندما تكون الريح ساكنة والطقس حارا !

وكان لكل بيت من تلك البيوت مدخل ينتهي بالباب الذى يؤدى الى بهوه ! وكان في ذلك المدخـل ينام أتباع صاحب البيت وخدمه لحراسته !

وكانت تلك البيوت تنقل من أماكنها اذا كانت في مستوى ماء الفيضان وتقام على حافة الصـحراء المطلة على الوادي في وقت قصير قد لا يعدو يوماً واحداً ! كما كان ينقلها أصحابها الى جوار أكواخ الرعاة المصنوعة من الغـاب أو عيدان الذرة والمقـامة في الحقول أو المروج الخضراء عندما يريدون !

هذا وقد حفظت لنا أشكال بيوت الفلاحين في مصر الفرعونية في حال تدعو الى الدهشة والاعجاب على بعض الأواني الفخارية التي كانت توضع في القبور أو الى جوارها لتأوى اليها أرواح الأموات كما كانوا يعتقدون ! وهي عقيدة لاتزال راسـخة في اذهان بعض القبائل الافريقية الى اليوم •

وتدلنا هذه النماذج على أن أبسط أنواع تلك البيوت المصرية القديمة كان مجـرد مأوى مفتوح من أحـد جوانبـه ، وأن بعضها الآخر ملحقاً به غرفة من الخلف ! ويبدو أنها كانت الأصل في نشأة البهو كما كان بها سلم يوصل الى أعلى المنزل ، وكانت تقام حواجز حول أسطح بعضها ! كما كان في بعضها أدوار علوية كاملة يعلوها صوامع للغلال يوصل اليها بسلم ! ولم تلبث أسقف الطوابق العليا

للمنارل أن تقوست فاصبحت نقبيات ! ثم نفس البناءون فأقاموا أعمدة على هيئة أشجار النخيل ، وشرفات مثلثة الشكل تبرز من الطوابق العليا تزينها وتجملها ! كما فتحوا في السقف فتحات ليدخل منها الهواء عليلاً ! وهذه وغيرها من التفاصيل الدقيقة التي ابتدعها البناءون المصريون لاتزال محفوظة بفضل تلك النماذج الفخارية !

ولقد عثرنا على نماذج لأثاث منازل المصريين القدماء ، منها كرسي عال وأريكه وحامل لقدور الماء وجراره ورحاً لطحن الغلال مرتكزة على قاعدة موضوعة تحت سلم البيت وبجوارها امرأة تديرها !

وكان المصريون القدماء اذا أرادوا انشاء مدينة جديدة ، وضع لها المهندسون رسومات تبين شوارعها ومنازلها المختلفة ! وكانت الشوارع مستقيمه لا عوج فيها ومتوازية ! كما نراها في مدينه اللاهون ، التي يرجع تاريخ انشائها الى عصر الأسره الثانية عشرة ، وكانت منازل المدينه تختلف في عدد حجراتها وسعة كل حجرة ، اذ كانت تتراوح بين أربع حجرات وستين حجرة ! كما كانت المنازل التي تحيط بكل شارع تختلف باختلاف الشوارع ، اذ كانت منازل كل شارع ذات حجم واحد ، كما كانت الشوارع تختلف في طولها ، فكان في مدينة اللاهون شارع طوله ٦٢ قدماً يشرف عليه منزلان من كل جانب ، وآخر طوله ٢٣٠ قدماً يشرف عليه ثمانية منازل من جانب وتسعة من الجانب الآخر ، وكان طول الشارع الرئيسي الذي

تشرف عليه القصور الكبيرة ٩٠٠ قدما ، وكان يشرف على كل جانب من جوانبه ثمانية قصور فخمة ! وكان يتراوح عرض الشوارع بين ١١ و ١٢ قدماً ! وكان في وسط كل شارع قناة أشبه بالقناة التى كانت تشق فى الشوارع الانجليزية ، وكان مبنيه بالاحجار ومخصصة لتصريف المياه . ولم يكن فى الشوارع أفاريز مخصصة للمشاة ، اذ لم يكن آنذاك عربات تسير في الشوارع !

ولقد كان أبسط المنازل يتكون من فناء مكشوف مواجها لمدخله ، وحجرة عامة واحدة فى جانب ، وفى الجانب الآخر المواجه حجرتان للتخزين ، وسلم موصل الى السطح .

ولقد كانت البيوت المخصصة للفنيين من الصناع والمشهورين منهم بخاصة ، أكثر اتساعاً ، ويشتمل كل بيت منها على فناء مكشوف وأربع حجرات مفتحة أبوابها عليه ، وتتصل بخمس حجرات أخرى ! وكانت الحجرات جميعها مسقوفة بقوائم (عروق) من الخشب من فوقها عيدان الذرة وسيقان الغاب ، وكان لبعض تلك الحجرات سقوف مقبية من اللبن ! وكانت مداخل جميع الأبواب معقودة ! أما سلمها فكان يتكون من مجموعتين من الدرجات عدد كل مجموعة منها اثنتا عشرة درجة ، وبينهما بسطه ، وكان عرض كل درجة ٢٧ بوصة . وكانت احدى حجرات البيت تخصص لطهى الطعام . وكانت الأبواب وعتباتها تصنع من الخشب .

وكانت فى البيوت الكبيرة صوامع مخروطية الشكل لحفظ الغلال يبلغ قطرها نحو ستة أقدام وسمك حائطها سمك قالب من اللبن ! وكانت تبنى تلك الصوامع بحيث تكون قريبة من بعضها بعضا قربا لا يسمح لأى انسان أن ينفذ من بين اثنتين منها الا بشق النفس !

ولقد كانت الدور الكبيرة تختلف اختلافاً بيناً عن البيوت الصغيرة التى وصفناها ، وكان يتبع فى بنائها طراز خاص ، يشبه الى حد كبير طراز القصور التى أنشئت بعد ذلك بنحو ثلاثة آلاف سنة . ففى كل منها كانت حجرة للبواب تواجه الباب الخارج للدار ، فاذا ما اجتزت الباب وجدت ثلاثة ممرات ، أحدها الى يسارك يوصل الى المطبخ والى الجناح المخصص للرجال ، وتتفتح عليه أفخم حجرات الدار ، ترى بعد ذلك أمامك ممرين متوازيين ، أحدهما يوصل الى الحجرات المفضله عند الأسرة (١) ، والآخر يوصل الى جناح الحريم . وكانت المطابخ والمخازن تتألف من نحو أربع عشرة غرفة ، وقاعة كبيرة للخدم ! أما عدد غرف الأسرة فكانت ست عشرة تتفتح على ثلاث أبهاء متسعة ذات أعمدة ، وكان جناح السيدات يحتوى على ثلاث عشرة حجرة وعلى بهو ذى أعمدة ! وكان خلف القصر أو الدار فناء متسع مكشوف أى غير ذى سقف تحيط به

---

(١) لعل المقصود بحجرات الاسرة هى تلك التى يجتمع فيها جميع أفراد الأسرة من رجال ونساء وأطفال فى المناسبات المختلفة !

بواكى مسقوفة ، وملحق به ستة مخازن أخرى ! وهذه الغرف والقاعات والأبها ، التى يزيد عددها على ستين كان يوصـــل اليها بمدخل واحد ضيق ! •

وكان بكل قاعه من قاعات الحريم والخدم حوض يملأ بالماء ! وكان يخصص بهو للشتاء ذو أربعة أعمدة ، وكان مسقوفاً ، كما كان يخصص بهو للصيف وكان غير مسقوف وبه اثنا عشرة عموداً تحيط بحوض للماء مصنوع من الحجر !

وعلى آثار تل العمارنه يوجد نمودج لمساكن الطبقة الوسطى من الموظفين الذين كثر عددهم فى عصر الأسرة الثامنة عشرة ! وكانت المسافة التى تفصل بين كل مسكنين متجاورين تتراوح بين أربعين وخمسين قدما ، وكان يحيط بكل مسكن سور يشبه سور الحدائق ! وعندما كان يجيء الأسرة المصرية زائر ويرقى درجات منزلها الأماميه ، يجد حجرة مخصصة للبواب ، وممرا ينتهى الى حجرة مخصصة لاستقبال الزائرين والضيوف ، ومن الممر يتفرع ممر آخر ينتهى الى بهو بأحد جوانبـه أريكة قليلة الارتفاع أمامها مدفأة ، وفى جانبه الغربى محراب للعبادة أحمر اللون ! كما كان يحيط به أربع مجموعات من الغرف ، تتألف المجموعة الأولى من حجرة مخصصه لرب البيت ، بها سرير له يوضع فى جنوبيهـــا حيث تضيق بعض الضيق ، ومن بضع غرف للسيدات ، ومن المطبخ •

وتحتوى المجموعة الثانية على عدة غرف مخصصه لرجال الأسرة (١)، وبهذه المجموعة بهو صغير ! ويغلب أن يكون بها باب خلفى ! وتحتوى المجموعة الثالثة على حجرات صغيرة تستعمل مخازن ! وتحتوى المجموعة الرابعة على حجرات بها صواوين عدة ، ومن بينها سلم يرقى الى سطح المنزل ! ».

ولقد كانت تلك القصور والدور الكبيرة أنواعا مختلفة ، وكان يضاف عليها على مر السنين مبانى يختلف طابعها ونظامها باختلاف الغرض الذى كانت تخصص له ! وضرب المؤلف لذلك مثلا بقصر تل العمارنة . ولم يكن لهذه القصور والدور الكبيرة نمط واحد يمكن أن يتخذ نموذجا لها ، ولكن يمكن القول بأنه كان كل منها ــ بوجه عام ــ يشتمل على حديقة مسورة وعلى عدة أجنحة ، بعضها لاستقبال الضيوف والوافدين ، وبعضها لأفراد الأسرة ، وبعضها للخدم والمطابخ والمخازن ! وكانت كلها متصلة بعضها ببعض لا يفصلها فاصل . وكان بها طبقات عليا ، تعلوها حجر مكشوفة حيطانها غير سميكة ، أو ستائر جميلة من القماش !.

أما بيوت الطبقة الفقيرة فكانت تتكون من دور واحد صغير وقل أن يعلوه دور آخر !»

(١) لعل المقصود بالرجال أبناء رب البيت واخوته .

ولقد كانت تبنى الدور المصرية فى العهد الرومانى باللبن ! وقد أدى استخدام الآجر (١) والجص الى رفع مستوى البناء فى مصر فى ذلك العهد بحيث أصبحت الدور فى مدنها المختلفة لا يقل عنه فى مدن الامبراطورية الرومانية ، ويبدو أن المصريين فى هذا العصر لم ينسوا نصيبهم من الدنيا ، ومتع الحياة وترفها ! على أن كثرة نشوء كثير من الضواحى فى المدن ، ومن المساكن التى عمرت بها بعض المناطق الصحراوية ، وانتشار الفخار المتين الجميل ، والزجاج الملون ليدل على أن سكان مصر فى هذا العصر كانوا أكثر عددا وأوسع ثراء من أى عهد مضى ! وهكذا كان شأن سكان أقطار شمالى أفريقية وحوران حيث بلغت مظاهر الحضارة أوجها فى العصر الرومانى !.

وان الحركة الجديدة للنساك التى نشأت فى هذا العهد عن اضطهاد والحكام الرومانيين فى بادىء الأمر ، ثم استمرائهم لها ورغبتهم فى الرهبانية آخر الأمر ، والتى حدت بهم الى سكنى كهوف الجبال فى حافة الصحراويين الشرقية والغربية ، لم تكن مظهرا من مظاهر الرغبة الخالصة فى التقشف والزهد والرجوع الى الحياة البدائية الأولى التى كان يحياها أجدادهم الأولون ! ولا أدل على ذلك من أن نساك العمارنة والعرابة المدفونة قد شيدوا أديرة فاخرة ، رصفت بالبلاط رصفا جميلا منسقا ! وطليت جدرانها بطلاء أبيض ناصع جميل ، وزودت بأنواع الأثاث والرياش والفرش ، كما زينت جدرانها

(١) الآجر هو الطوب الأحمر .

بالصور الجميلة ، وأوصلوها الى الطرق العامة بمسالك مرصوفة والحقت بها مرافق جيدة لطهى الطعام ولتخزين المؤن والماء .

وان في تفصيل فن العمارة في مصر القديمة أشياء كثيرة تثير أعجابك ! منها أن وصول ضوء الشمس الى داخل المنازل فى مصر يختلف جد الاختلاف عنه في الأقطار التي يقل ضوء الشمس فيها ! اذ يكفى لوصول الضوء الى حجرات المنازل في مصر وجود كوة صغيرة في سقوفها أو نافذة أو أكثر في جدرانها الخارجية ، وكثيرا ما يكتفي بوصوله متسللا من الأبواب الخارجية ! أما في المعابد فكان يكتفى بوجود كوة في سقوفها لا تزيد مساحتها على تسع بوصات مربعة ليدخل منها الضوء الى داخلها ! ولهذا كانت جدران المنازل فى القرى المصرية فى العصور القديمة والحديثة لا يوجد بها الا نوافذ صغيرة يسميها الفلاحون المعاصرون طاقات فى أجزائها العليا ! منها يدخل الضوء الى حجراته فوق الضوء الذى يأتيها من أفنيتها المكشوفة !.

ولقد كانت نوافذ الأدوار العليا تغلق بشبابيك ذات أشكال مختلفة ، وفي متحف اللوفر بفرانسا نموذج من العاج لشباك منها مكون من قضبان صغيرة أطرافها العليا على هيئة أزهار نبات اللوتس !

وفى المبانى الحجرية كانت الشبابيك تصنع من الحجر أيضا ، وأحسن ما عرف منها حتى الآن يوجد فى البهو الكبير فى معبد الكرنك ، وفي معبد مدينة هابو . وقد وجد منها فيه فقط أشكال مختلفة ، بعضها مكون من قضبان رأسية تعلوها كوة مستطيلة مقوسة،

ومنها ما هو على هيئة شبكه مكونة من قضبان متقاطعه ، بعضها مصمت ، وبعضها مفراغ ، ومنها ما كان على هيئة وردة ذات ست ورقات ، وقد استخدمت أنواع متعددة من الأعمدة في بناء المنازل ، منها الأعمدة المتعددة الأضلاع ، وكانت تصنع اما من الحجر أو من الخشب ، ومنها الاعمدة المخططه ، ومنها أعمدة على هيئة ساريات الخيام ! وهذا النوع الأخير ، يرمز في الكتابة الهيروغلوفية الى المباني الصغيرة ! ولقد كانت تيجان الأعمدة التي تحاكي سعف النخل تصنع من الخشب بعد نقشه ! وكانت تيجان بعضها تنحت على هيئة براعم زهرات اللوتس ، أو على هيئة الجزء العلوى من نبات البردى • ولقد وجدت نقوش على مصراع أحد الأبواب تمثل أعمدة على هيئة قاعدة المصباح •

ولقد كان المصريون يعنون برصف أرض الحجرات ، فكانوا يغطونها بأسطوانات من الفخار ، ذات أطراف مستوية السطح ، ثم يغطونها باللبن ! وكان الغرض من وضع اسطوانات الفخار تحت طبقة اللبن صرف المياه التي قد تنفذ الى باطن أرض الحجرات ! كما كانوا يغطونها باللبن ! وكان الغرض من وضع اسطوانات الفخار تحت طبقة يضعون أنابيب من الفخار ملتصقة بأحد الجدران ، ومتدلية من سطح فوقه •

وكان في حدائق القصور والدور الكبيرة أكشاك من الخشب سقوفها من الحصر ، ولقد استخدم المصريون الحصر منذ العصور

الاولى لعمل الستائر ، وكساء الجدران الداخلية ، وفرش أرض الغرف !.

وكانوا ينشئون مخازن للمحاصيل المختلفة بجوار المنازل والدور ، ذات سقوف مقبية كما كانوا ينشئون في حدائق الدور أحواضا لتربيه الأسماك فيها لاعتقادهم أنها تقضى على البعوض (١) الذى يتسبب فى مرض الملاريا .

وان أقدم ما عرف من الطرق فى الصحراء الغربيه طريقان أحدهما يصل الوادى بالفيوم ، والآخر يصله بالواحات (٢) . وكان عرض كل منهما خمسين ذراعا (٨٥ قدما) .

أما الطرق التى كانت تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر عبر شمالى الصحراء الشرقية فكانت كما وصفها بلينى ، تمتد من الفرما ، ومن منطقة شرقى جيرون(٣) وعلى عقربة منها ، ومن جبل كاسيوس (٤) الى السويس (٥) ، وكانت تلتقى جميعاً فى منتصف الطريق .

---

(١) من المعروف أن هناك أنواعا من السمك تتغذى على يرقات البعوض .

(٢) لانعلم علم اليقين أى واحه يقصدها المؤلف .

(٣) بلدة صغيرة مكانها الآن قرية المحمدية ، وتقع عند الطرف الغربى لبحيرة البردويل .

(٤) يقع جبل كاسيوس شرقى جيرون .

(٥) كانت تسمى برنيس آنذاك .

أما الطرق التي كانت تخترق الأراضي الزراعيـة ، فقد كانت دروبا بين الحقول تكفي لسـير السـابلة والحمير ، ثم فيما بعد لسير الجمال عند ما جيء بها من بلاد العرب ! وكانت تمتد على جـوانب الترع دروب أكثر اتساعا ، وكانت أهم الطرق التي تعبر الأراضي الزراعية هي التي كانت تمتد فوق الجسور التي كانت تقسم الأراضي الى أحواض تمتلىء في زمن الفيضان بماء النيل الذي كان يحمل الغرين المخصب ، والذي كان ينصرف الى النيـل عنـدما ينخفض ماؤه !•

ولقد قام الملك أمنمحات الثالث ببناء السد القائم عند بياهو ، وقد كان على وشك الانهيار (١) ! وبهذا السـد تكون خزان عظيم لخزن الفائض من ماء النيل عند ارتفاع منسوبه في زمن الفيضان ، وتصريفه عند انخفاضه •

---

(١) ويرى بعض المؤرخين أن أمنمحات الثالث لم يبن هذا السـد ، وانما قام بتجديده ، وأن الذى قام ببنائه هو أمنمحات الاول ! على حين يرى سرى أنه كان قائما منذ عهد الاسرة الثالثه ، وأن أمنمحات لم يقم الا بتجـديده كما أشرنا • والذى لا ريب فيه أن الملك أمنمحات الثالث بنى سدين فى اليوم أحدهما عند فتحة اللاهون ، بحجز المياه المتجمعه فى البحيرة ، ومنعها من انصرافها الى النيل عندما تبدأ مياهه فى الانخفاض ، وتصريفها عند الحاجه اليهـا فى فصـل التحاريق ، أما السد الآخر فقد شـيده عند بلدة بياهو الواقعـة فى منتصفه المسـافة بين سنورس ومدينة الفيوم .. ولقد كان هذا السد على هيئة قصـفه دائرة ، وكان يقصد ببنائه تجفيف الأراضي الواقعة بينه وبين سد اللاهون وبذلك أمكن استرداد مساحة قدرها عشرون ألف فدان ، ومن بينها الارض المقامة عليها مدينة الفيوم التى يشير اسمها القديم وهو شدت ومعناه بالهيروغلوفية «المستردة» الى هذا المشروع والقصد من القيام به !

وقد بلغت مساحة هذا الخزان (البحيرة) آنذاك نحو ٧٠٠ ميل مربع ، ولقد ظل هذا الخزان يستخدم فى الغرض الذى أنشىء له الى عهد بطليموس الأول الذى كان جل جيشه من الاغريق ، وقد رأى ان يهيهم أرضا زراعيه يستقرون فيها ، فعمل على تصغير حجم الخزان أو البحيرة تدريجيا بالحد من مقدار مياه الفيضان التى كانت تنساب فيها ، فلما انحسر الماء عن حافاتها أقطعهم اياها ! .

ويرى معظم المؤرخين أن نظام الرى توطد فى مصر بحيث شمل القطر كله منذ عهد الأسرة الأولى مستدلين على ذلك بالنقوش التى وجدت على رأس صولجان للملك العقرب (١) يمثله حاملا فأسا ويهم بالحفر ، بينما كان العمال وهم خائضون فى الماء يعملون لاقامة سد .

ولقد عرف المصريون منذ ذلك العهد البعيد فائدة المصارف فى التخلص من المياه الزائدة عن حاجة الأرض الزراعية والمحملة برواسب الأملاح ، التى من شأنها أن تضر بالزرع اذا بقيت عليها ! أما نظام الرى والصرف الذى اتبع فى مصر الحديثة فانه يعتمد على وجود قنوات يختلف مستواها ، فما كان منها ذا مستو مرتفع يستعمل للرى ، وما كان ذا مستو منخفض يستخدم للصرف .

---

(١) هو الملك السابق لمينا مباشرة ، ولايعرف نطق اسمه بالهيروغلوفية الذى كتب على هيئة عقرب .

ولقد كانت أولى الخطوات التى اتخذها ولاة الأمور المصريون الذين عنوا بتنظيم ماء الفيضـان تقسيم الأراضى الصالحة للزراعة الى أقسام واسعة (أطلق عليها لفظ أحواض) تفصل بينها جسور يبعد كل منها عن الآخر مسافه بضعة أميال ! ويفصل هذه الأحواض عن النيل جسر عظيم يسير محاذيا لمجراه وبذلك تمكنوا من التحكم فى ماء الفيضان وفقا للحاجه اليه ! ولقد كانت مياه الفيضان تغمر أرض الحياض لفتره معينة يرسب فى اثنائها معظم الطمى التى تحمله فيجدد خصوبتها ، ثم تصرف عندما ينخفض منسوب ماء النيل محملة ببعض أملاح تربة الأرض والتى اذا لم يتخلص منها أضرت بالزرع !.

ولقد استمرت طريقة رى الحياض حتى العصر الحديث(١) . ولم يبطل اتباعها الا بعـد أن اسـتبدل بها نظام الرى الدائم أن الصيفى ! (٢) .

وعلى الرغم من فائدة طريقة الرى الدائم فانها حرمت الأرض

---

(١) لقد كان من مزايا رى الحياض تجديد خصوبة الأرض بما يرسب عليها من الطمى كل عام ، وترك الأرض بدون زراعة فترة تستريح فى أثنائها ، وتتشقق فتتعرض شقوقها لأشعة الشمس التى كانت تقتل ماقد يوجد بها من ديدان وحشرات تضر بالنبات ، وكان من مساوئها زراعة الارض مره واحدة فى السنة .

(٢) من مزاياه زراعة الأرض مرتين أو ثلاث مرات فى السنة ، وقد تطلب استخدام هذه الطريقة انشاء عدد من القناطر على النيل ، وحفر كثير من الترع والمصارف ، واقامة السدود !

ومن عيوب الرى الدائم اضعاف الارض لزراعتها مرات فى السنة وحرمانها من الطمى ، وعدم تعرضها للشمس والهواء فترة طويلة كما كان الشأن فى نظـام رى الحياض ، الأمر الذى تكثر معه الآفات الزراعية .

من الطمى المخصب لها الذى كانت تحمله مياه الفيضان اليها ! الأمر الذى اضطر المزارعون الى استبدال المخصبات الحيوانية والكيماوية به

ولقد كان منسوب ماء النيل يسجله المصريون على مدار السنة منذ عهد الأسرة الأولى ، وقد استخدموا لذلك مقاييس أقاموها فى أماكن عدة ، ولقد كانوا يحجزون مياه النيل بسدود من تراب تزال عند عدم الحاجة اليها !.

ويروى ديودورس أن فتح سد الفيوم واغلاقه كان يتكلف خمسين وزنة من الذهب فى المرة الواحدة .

ولقد كان المصريون حتى عهد قريب يحتفلون بفتح سد الخليج الذى كان يخترق مدينة القاهرة احتفالا كبيرا يبلغ مرتبة الأعياد .

ولقد كانت المحافظة على سلامة السدود وقت الفيضان من شئون الدولة الهامة ! فقد كان الخفراء يسهرون على حراستها ، وفكانوا يرون صفوفا متراصة ، وقد وقف كل منهم على مدى سمع الآخر ، كما كانوا يتناوبون الحراسة ليلا نهارا ، وكانوا يزودون بقدر كاف من العروق الخشبية والحبال لسد أية ثغرة تحدثها المياه فى السدود .

ولقد كان فى العصر الرومانى يعاقب الذى يتسبب فى احداث تلف فى سد من السدود بالاشغال الشاقة أو النفى الى الواحات !

ولقد حدثت فى السدود ثغرات عدة فى العصور السابقة ولما كان من الضرورى ترميمها من أمام السد لوقايته وتقويته ، أصبح من اليسير تمييز مواضع تلك الثغرات المرممة بوجود انحناء فى جدار السد ! ولهذا السبب نجد عددا كبيرا من السدود تنحنى جدرانها حتى لتكاد تشبه الأفعى فى تلويها ! وذلك لأن الذين قاموا بالترميم لم يراعوا المحافظة على استقامتها عند قيامهم بترميمها .

* * *

لا نعلم علم اليقين تاريخ حفر القناة التى كانت تصل بين النيل والبحر الأحمر ، اذ لايزال المؤرخون غير واثقين من أن أسطول الملكة حتشبسوت الذى زاد بلاد بنت وعاد منها سلكها . ولكن الذى يعلمونه علم اليقين أنه كانت هناك قناة تخرج من النيل ، وتمتد مسافة كبيرة جهة الشرق ! ولقد عثروا على آثار تمثل الملك سيتى الأول ، وهو يعبر قناة تموج بالتماسيح وتعلوها قنطرة ذات أبراج حصينة فى طريقه الى الشام ! فاذا فرضنا وجود قناة تمتد بين النيل وهيروبوليس (١) غربى بحيرة التمساح الحالية ، عند تل المسخوطة، لم بعد ما يدعو الى وجود قناة ملاحية تمتد الى أبعد من ذلك لأن خليج السويس كان - حتى العصر الرومانى - يمتد شمالا حتى

(١) هيروبوليس Heropolis ومعناها بلغة الاغريق مدينة الابطال ومكانها الآن تل المسخوطة والتى سميت كذلك لوجود تماثيل كثيرة بها .

تلك المدينة (١) ! •

ويقول استرابو : ان سيزوستريس ، ويقصد رمسيس الثانى (٢) هو أول من حفر تلك القناة ! ولقد حاول دارا اكمالها ولكن أثناه عن ذلك اعتقاده أن مستوى ماء البحر الأحمر أعلى من مستوى أرض مصر ، وهو نفس الخطأ الحسابى فى تقدير مستوى ماء البحرين الأبيض والأحمر الذى وقع فيه مهنوسو الحملة الفرنسية •

أما هيرودوت فيزعم أن نخاو هو الذى بدأ بحفرها (٣) ، أو على الأقل زاد فى امتدادها ، وأن دارا هو الذى أتمها ، وجعلها من السعة بحيث تسمح بمرور سفينتين فيها فى وقت واحد وذلك فى جزئها الواقع بين بوبسطة والبحر الأحمر •

ويقول ديودورس أن القناة كانت تصل الفرع البلوزى

---

(١) كان خليج السويس يصل اليها آنذاك !

(٢) كان مؤرخو اليونان يطلقون اسم سيزوستريس على سنوسرت الثالث أحد ملوك الاسرة الثانية عشرة ، ولكن المؤلف يرى أن استرابون يقصد بسيزوستريس الملك رمسيس الثانى لاسنوسرت الثالث • والواقع أن أسماء فراعنة مصر اختلطت على هؤلاء المؤرخين ، فنسبوا كثيرا من أعمال بعضهم الى بعضهم الآخر •

(٣) يكاد يجمع المؤرخون على أن أول من قام بحفر قناة وصلت البحر الأحمر بأحد فراع النيل وهو التانيسى هو الملك سنوسرت الثالث (١٨٨٧ ق•م - ١٨٤٩ ق•م) وكان البحر الاحمر ممتدا آنذاك الى البحيرات المرة : مصر الخالدة للمترجم ص ٦٨ •

بالخليج العربى والبحر الأحمر ، وان المحاولة الأخيرة بعد محاولة نخاو ودارا هى التى قام بها بطليموس الثانى الذى قام بحفر قناة عبر برزخ السويس واقامة هويس عليها فى أصلح موضع يفتحه كلما أراد عبورها ، ثم يغلقه مباشرة ! وكان يسمى فرع النهر الذى كان ينساب فى تلك القناة باسم بطليموس !.

وعند ملتقى القناة بالبحر أسست مدينة « ارسينو » ومكانها شمال مدينة السويس الحالية بقليل ! ولقد عثر على بعض آثار دارا على مقربة من تل المسخوطة ، وفى « أرسينو » .

ويرى بعض المؤرخين أنه كان هناك اتصال مائى بين النيل والبحر الأحمر فى عهد الأسرة التاسعة عشرة .

ومصدر الماء فى الصحراء الغربية منخفضات فى بعض جهاتها تغطى سطحها طبقتان ، احداهما وهى السفلى مسامية من الحجر الرملى مشبعة بالماء ، والثانية طفلية وغير مسامية ، وهى العليا ، ولا ينفذ اليها الماء خلالها الا اذا حفر بئر ارتوازى عبرها ! فاذا ما حفر انبثق الماء وملأ المنخفض وأصبح معين ماء يمكن استخدامه للشرب ورى الأراضى المجاورة !.

ولقد نجح الرومان فى الحصول على مقادير وفيرة من الماء الباطنى فى الواحات ، وذلك بحفر أنفاق يتراوح طولها بين ميلين وثلاثة أميال تتصل بالانكسارات والشقوق الطبيعية فى القشرة الأرضية !.

ولقد عفا الزمن على كثير من تلك الآبار الرومانية بسبب اهمالها ، على أن هناك عددا قليلا منها لا يزال يتفجر منه الماء بصورة مستمر وبمعدل يبلغ مئات من الجالونات فى الدقيقة ! •

* * *

وان اقامه ذلك العدد الكبير من المبانى والمنشآ الأخرى بالحجر فى عهد الأسرة الرابعة ، وفى العهود التى تلته قد تطلب استغلال المحاجر على نطاق واسع ، وبخاصة تلك التى كان يستخرج منها الاحجار المتينة •

ولقد كانت الطريقة التى كان المصريون القدماء يتبعونها للحصول على الأحجار اللازمة للبناء هى حفر فجوات حول كتل الصخر يسمح اتساعها بمرور ذراع الحجار وبيده معول (أزميل) الى عمق يتراوح بين قدمين وثلاثة أقدام فى داخل الصخر •• وكان قطع الكتل الكبيرة يتم عن طريق اعداد خنادق تتسع لنزول الحجارين فيها ! وكان الخندق يحدد برسمه على الصخر ، ثم ينحت الى أسفل •

ولقد عثر فى تلك المحاجر على نقوش وكتابات قام بنقشها وكتابتها العمال الذين كانوا يشتغلون فيها أو أولئك الذين لجأوا اليها فيما بعد هربا من الاضطهاد الدينى !

ولقد سار المصريون بعد ذلك على نهج هذه الطريقة فى قطع

الأحجار من المحاجر ، كما ساروا على هديها فى نحت الأبهاء العظيمة فى جوف الجبال المطلة على الوادى لعمل المقابر •

ويغلب على الظن أن الأحجار التى كانت تنزع لعمل المقابر كان يستخدمها النبلاء فى بناء منازلهم التى يقيمونها فى أرض الوادى المجاورة !

***

ولم يكن التعدين فى مصر يجرى على نطاق واسع ، لأن مناجم المعادن ، ومناجم الذهب بخاصة كانت فى جهات الصحراء الشرقية النائية •

ولقد كانت الصخور التى كانت تحتوى على الذهب تتكون من الكوارتز الأبيض ، الذى كان يكسر قطعا ثم يسحق حتى يصير وفى شبه جزيرة سيناء كان الفيروز وكذلك الملاخيت والنحاس والمواد اللازمة لصنع الزجاج تستخرج كلها من بين طبقات الحجر الرملى ! ولم تكن المناجم فى سيناء عميقة ، وكان الضوء لذلك يصل من الخارج ، وكان المنقبون يتتبعون الطبقات التى تحتوى على المعادن ! •

وفى الواحات الخارجة مناجم كبيرة لاستخراج الشب ! •

أما الملح فكان يستخرج من الواحات ومن برزخ السويس !•

ولقد كان المصريون القدماء يقيمون القلاع والاستحكامات اتقاء غارات الأعـداء ! فمى عهـد الأسرة الاولى كانت الاســوار متينة على الحدود ، وكان أول واجب يقوم به كل ملك جـديد بعـد اعتلائه عرش مصر الذهاب اليها والطواف بها للتأكد من سلامتها (١) ويشير سنوحى الى تلك الأسوار فيقول : وصـلت الى أســوار الملك (٢) الكائنة على مقربة من بلبيس ، والتى شيدت لصد غـارات قبائل « الساتى » (٣)

ويزعم المؤلف أنه لا يزال أحد الأسوار فى منطقة الشلال فى حال لا يأس بها ، ولكنا لا نعلم علم اليقين تاريخ بنائه ! ويغلب أنه بنى لصد القبائل الضاربة فى الصحراء الشرقية .

على أن أقدم الحصون الباقية الى الآن هو حصن ابيدوس الذى يرجع تاريخه الى عهد الأسرة الثانيـة ، ويعرف الآن بالشونة ــ أو شونة الزبيب ــ ويبلغ سمك جداره الرئيسى سبعة عشر قدما ،وارتفاعه أربعة وثلاثون قدما ! ويبدو أنه شيد بادىء ذى بدء الى ارتفاع واحـد وعشرين قدما ! ثم زيد ست مرات ! وكل زيادة كانت تتم فى خلال عام ! ويبلغ طول الحصن اربعمائة قدم وسبعة أقدام وعرضه

---

(١) ان ماوصل اليه الاثريون من الكشوف الحديثة لايتفق مع هذا الراى .

(٢) سور أنشأه المصريون القدماء على الحدود الشرقية لمصر لصد البدو ، يرجع فى الغالب الى زمن الملك سنفرو .

(٣) الاسم المصرى الذى كان يطلق على القبائل البدوية الذين كانوا يقيمون فى الصحراء الشرقية .

مائتا قدم وعشرة اقدام ، ويحيط به ممر عرضه عشرة أقدام ونصف القدم ، يليه حائط مرتفع سمكه تسعة أقدام ونصف القدم ! ولذلك كان الجدار الرئيسى للحصن فى مأمن من الاصابه بقذائف المغيرين بطريقه مباشرة ، وعلى أن العدو المهاجم كان اذا تمكن من الوصول الى الممر بعد افتحامه للسور الخارجى ، يتعذر عليه التقهقر فى سهوله ويسر ، لتعرضه لانهيار الأحجار الثقيلة عليه من أعلى السور الرئيسى . وفى الحصن أبواب أشبه بالحجرات .. ومن الغريب حقا أننا لم نجد أثرا لسلم يوصل الى أعلى الحصن ، أو حتى لمكان لتثبيت سلم خشبى يؤدى اليه ، مع أن الوصول اليه أى الى أعلى الحصن ـ كان أمرا ضروريا للدفاع اذا ما هاجمه الأعداء المغيرون ! ويوجد بالقرب من هذا الحصن قلعتان من طرازه . احداهما لم يبق منها الا أساسها ، والأخرى مستخدمة كدير للأقباط !.

ولقد شيد المصريون فى عهد الأسرة الخامسة بعض الحصون فى جنوبى بلاد الشام.(١)وفى عهد الأسرة الثانيه عشرة كان المصريون يبنون الحصون متبعين طرازا جديدا ، وأبرز مثل له حصن سمنه (٢) العظيم ، تتلخص فى بناء مجموعة من الابراج المنيعة حول أسوار

(١) لقد عثر الاثريون على رسم لاحدى القلاع المصرية فى جنوبى بلاد الشام يحاصرها الاعداء الذين يبدون وقد تسلقوا سورها الخارجى بسلالم من خشب ! بينما يقوم بعضهم بهدم بعض أجزائه !

(٢) بلدة صغيرة على شاطىء النيل الغربى جنوب وادى حلفا .

الحصن ، وبذلك يمكن للمدافعين صد هجوم المغيرين عليه قبل الوصول الى أسواره المنيعة !.

ولقد كانت أسوار الحصن ترتفع اثنتين وثمانين قدما ويحيط بها خندق يحميه جدار متين من الحجر منحدر الى الخارج ! وكان العدو المهاجم يتعرض لرماح المدافعين التى يرمونه بها وهو يحاول اجتياز منحدرين عسيرين وهما منحدر الجدار الخارجى ومنحدر الخندق قبل وصوله الى أسوار الحصن نفسه ! .

وكانت عروق الخشب تستخدم فى تدعيم جدران الحصن المبنية باللبن ، لتزيدها متانة وقوة حتى اذا استطاع العدو المهاجم احداث ثغرة واسعة فى الجزء الأسفل من الجدار لا تتعرض أجزاؤه العليا للانهيار ، ويرجع استعمال عروق الخشب لتقوية الجدران المبنية باللبن الى عهد الملك سنفرو .

وقد استبدل بهذا الطراز طراز آخر فى العصر الرومانى ،فقد كانت الحصون فى هذا العصر تشيد من الآجر ، يتخلل جدرانها أبراج قوية مجوفة على هيئة أنصاف دوائر كما هو الحال فى حصن بابليون فى القاهرة ، الذى يشبه الحصون الرمانية فى بعض أقطار أوروبة ! .

أما وقد عرفنا وسائل الدفاع الماديه ، فقد حق علينا أن نستعرض طريقة تكوين القوات المدافعة عنها !

لقد تعرضت مصر لغزوات الشعوب المحيطه بها ، لا بل والبعيدة عنها ، فقد تعرضت لغزو الليبيين من الغرب ، ولغزو بعض الشعوب الآسيوية من الشرق (١) ! وكان المصريون يصدونهم لا بل ويهاجمون بعضهم فى بلادهم ! ومن ذلك أن مينا (نارمر) استولى بعد انتصاره على بعض أولئك الغزاة على ١٢٠٫٠٠٠ أسير وعلى ٤٠٠٫٠٠٠ ثور ، وعلى ١٫٤٢٢٫٠٠٠ من المعزى ! ولاريب فى أن ذلك كان يتطلب جيشاً كبيرا منظماً ! كما هزم أحد ملوك الاسرة الثانية بعض أولئك الغزاة وقتل ٤٧٫٢٠٩ من جنودهم !

ومن ذلك يتبين شغف المصريين بالاحصاءات الدقيقة •

وفى أواخر عهد الأسرة الثالثة قام سنفرو بمحاربة النوبيين ، وعاد بعد انتصاره عليهم ومعه ٧٠٠٠ من الأسرى و ٢٠٠٫٠٠٠ من الماشية !

ولقد انتهت الحرب ضد الليبين فى عهد أحد ملوك الأسرة الخامسة باستيلاء جيشه على ٨٣٢٫٩٤١ رأسا من الماشية •

وكانت بعض تلك الحروب تستغرق وقتا طويلا ، يرسل المصريون فى اثنائه البعثات المختلفة للكشف والاستطلاع ! كما كان يتطلب تقديم الغذاء لعشرات الألوف من الجند فى أوقاته ! وكل ذلك يدل على تنظيم دقيق محكم •

ويبدو أن تلك الحروب قد استدعت فرض الخدمة العسكرية على ثلث عدد البالغين من الرجال ، ممن هم فى سن التجنيد !

وفي عصر الدولة الوسطى كانت أسماء الذكور ممن هم فى سن الخدمة العسكرية تسجل ، لامكان دعوتهم للانضواء تحت لواء الجيش متى احتاج الأمر الى ذلك ! كما كانت هناك كتيبه تابعه للملك ، منظمة تنظيما دقيقا ، تقوم بما يقوم به الحرس الملكى أو الجمهورى الآن ! ولقد كان الجانب الأكبر من القوات المصرية يدرب محليا فى الأقاليم المختلفة ! فكان فى عهد الأسرة التاسعة عشرة فيلق آمون من مصر العليا ، وفيلق بتاح من مصر الوسطى ، وفيلق رع من هليوبوليس وجنوبى الدلتا ، وفيلق سوتخ (١) من تانيس ••• وكان حكام الأقاليم والمقاطعات هم المسئولون عن تجنيد تلك الفيالق وتدريبها !

ولقد سبق أن ذكرنا أن المجتمع المصرى كان يتألف من ثلاث طبقات وهم المزارعون والكهنة والجند • على أن تاريخ هذا التقسيم غير معروف •

---

(١) هو الاله ست وكانت عبادته سائدة فى شمالى شرق الدلتا منذ عصر ماقبل الاسرات ، وعندما غزا الهكسوس مصر واستقروا فى هذه المنطقة عبدوه وكانوا يطلقون عليه ذلك الاسم (سوتخ) وظلت عبادته قائمة بعد طردهم من مصر وفى عهد الاسره التاسعة عشرة بخاصة التى كان ملوكها ينحتون أسماءهم من اسمه مثل سيتى !

ولقد كان الجيش النظامى فى عهد الملك سيتى مزودا أحسن تزويد بكل ما يحتاج اليه من زاد وعتاد ، وكان يصرف لكل جندى ما يكفيه من لحم وسمك وخضر وخبز (١) ، كما كان يصرف له رداءان من الكتان كل شهر ! أما تابع الملك أى احد أفراد حرسه الخاص فقد كان يصرف له عدا ذلك مقادير من النبيذ والزيت وعسل النحل والتين .

وكان الجيش اذا ما سار يسير فى صفوف منتظمه ، وكان لكل فرقة من فرقه علم خاص بها !

ولقد كانت الجيوش المصريه منذ العصور الاولى تضم بعض الفرق الأجنبيه ! وآية ذلك أن حملة الاعلام فى جيش مينا أونارمر كانوا ينتمون الى جنسين مختلفين ! فقد كان أحدهما حليق الذقن ، وكان آخر طويلها ! كما نجد فى عهد الأسرة الخامسه أقواما من البدو يحاربون فى صفوف الجيش المصرى ! وكان فى عهد الأسرة الثانية عشرة فى صفوف الجيش المصرى جنود لبيون يحملون أقواساً وسهاماً ! ولقد كان لرمسيس الثاني حرس من سكان جزيرة سردينيا ! أما فى عهد الأسرة السادسه والعشرين فقد حدث تغير عظيم ! اذ لم يقتصر الأمر على ضم فرق من الاغريق الى الجيش المصرى ، بل كان فى سلكه عدد قليل من الكاريين (٢)

---

(١) كان يصرف لكل جندى أربعة أرطال من الخبز .

(٢) الكاريون نسبة الى كاريا ، وتقع فى الجنوب الغربى من شبه جزيرة الاناضول ، ولقد ازدهرت حضارتها فى العصر الاغريقى .

وغيرهم من الشعوب الآسيوية ! •

ولقد كانت القوات الحربيه المصرية آنذاك تتألف من قسمين كبيرين أحدهما خاص بمصر العليا وشرقى الدلتا ، ويسمى أفراده الكالاسيرى ، والقسم الآخر خاص بغربى الدلتا ، ويعرف أفراده بالهرموتيبيز (١) (Hermotybies) ، وكان عدد جنود القسم الأول ٢٥٠٫٠٠٠ ، وعدد جنود الثانى ١٦٠٫٠٠٠ ، وكان أولئك الجنود مقصورين على الخدمة العسكريه لا يسمح لهم بمزوالة عمل سواها ! ، وكان يصرف لكل منهم بالاضافة الى محاصيل ما يملك من أرض مقرر يومى مقداره خمسة أرطال من الخبز ورطلان من اللحم ، وأربعة أكواب من النبيذ •

وفى عهد البطالمة كان ينخرط فى الجيش عدد كبير من الاغريق ومن أهل مقدونيا بخاصة ؟ وفى عهد بطليموس الثانى كان الجيش يضم بين فرقة فرقة من الكلت يبلغ عددها أربعة آلاف• وفى سنه ٢١٣ ق•م كان يضم فرقة من تراقيا وغلاطية (٢) عددها أربعة آلاف جندى ! ذلك غير ألفى جندى جيء بهم من خارج مصر• وفى العصر الرومانى أبعد أحد البراطرة (٣) بعض الجنود المصريين

---

(١) القسم الاول كان يطلق على المجندين الجدد ، والقسم الثانى كان يطلق على الفرسان •

(٢) منطقة حول مدينة أنقرة •

(٣) اسمه هالنس وهو أحد براطرة روما ، وقد حكم من ٣٦٤ م الى ٣٧٨ م •

لأمر لا نعلم عنه علم اليقين شيئا ، واستبدل بهم جنودا من القوطيين، جاء بهم من بلادهم التي كانت جزء من امبراطوريته .

وفي القرن الثالث جند العرب في الفرق الاحتياطية ، كما جند بعض رماة السهام التدمريين (١) .

ولقد كان من أهم أسلحه الجند في فجر التاريخ هو المضرب الذي كان على هيئة القرص ، ثم لم يلبث أن تغير شكله فأصبح في هيئة الكمثرى ! .. ثم استعمل الخنجر والحربة المصنوعان من الصوان كسلاحين بعد ذلك ! وكان في أثناء ذلك العصر البعيد يستخدم أهل صعيد مصر الحربة ذات الحدين كسلاح من الاسلحه التي كانوا يعتمدون عليها في الحروب ! .

وكان أقدم سلاح مصنوع من المعدن عرف في مصر ذلك النصل العريض المثلث الشكل ، ثم ظهر بعد ذلك نصل رفيع في وسطه خط غائر ! وقد استعمل هذا النوعان قبيل انتهاء العصر الثاني لما قبل التاريخ ! ثم ظهرت الحربة المصنوعة من النحاس ، ثم الدبوس المدبب الطرفين والقوس والسهم وعصا الرماية (٢) في مستهل عهد الأسرة الأولى ! وفي عهد الأسرة الرابعة ظهرت الفأس ، واستخدمها الجنود كسلاح في حروبهم

---

(١) اى سكان مدينة تدمر .

(٢) عصا مسطحة ومقوسة من احد طرفيها كانت تستخدم لصيد الطيور ، وتسمى البومرانج ولايزال سكان استراليا الاصليون يستعملونها الى اليوم !

ولكنها كانت أخف وزنا من الفأس التي كان يستعملها الفلاحون في شئون الزراعة !•

وكانت العصا الغليظة التى تسمى الآن النبوت سلاح الأهالى العادى ! ما لبث أن أضيف اليه نصل مدبب حاد من معدن •

ولقد كان المقلاع من الأسلحة التى استوردها المصريون من الأقطار المجاورة (١) •

وكان الجنود المصريون يتقون أسلحة الأعداء بدروع مصنوعه من الجلود السميكه !

ولم تكن الخيول تستخدم فى الركوب الا نادرا ، وانما كانت تستخدم فى جر العربات الحربيه ! التى كانت تعد بالآلاف ، فقد روى أنه كان فى مدينة طيبة وحدها عشرون ألف عربة حربية• ولقد كانت العربات الحربية التى كان يستخدمها الجيش المصرى فى المعارك الحربية فى بلاد الشام يجر كل منها فرسان ، ولعل السبب فى ذلك وعورة الارض التى كانت مسرحا لتلك المعارك !

ولقد كان الطبل يستخدم ايذاناً للجيش بالمتقدم ، كما كان يستخدم قادة الجيش النفير (البوق) لاصدار الأوامر ، وتوجيه سير القتال !

ولقد ابتدع المصريون أنواطا وشارات من الذهب لتمنح

(١) لقد كان لسبى الأصل •

للضباط أو الجنود الذين يقومــون بأعمــال بطولية • كمــا كانت توهب للأبطال بلط صغيرة من الذهب ، وهى تقابل سيف الشرف فى العصر الحديث !

والآن وقد استعرضنا فى ايجاز خصائص الحضارة المصريه ومقوماتها العامة ، ومنها يتضح أنها وليدة الظروف الطبيعيه الخاصه بتلك البلاد الفريدة • فيض عظيم من الخصب والنماء والوفرةوسط صحراء قاحله جرداء ، وحرارة لافحه تلطفها رياح عليله منعشة فى الصيف ، وحرارة معتدلة تميل الى البرودة أحيانا فى الشتاء ، وشعب نشيط زكى مجد قوى ، يعتوره الضعف كل بضع مئات من السنين سنة الله فى خلقه ، فتعرض بلاده الى غزاة من الجنوب ومن الغرب ومن الشرق ، فيتعرض لمؤثرات مختلفة ، ولكنه على الرغم منها ظل يحتفظ بطابعه وصفاته القوميه ، وشخصيته الواضحة المعالم !

وخلاصة القول أن المناقب العالية والصفات الحميدة التى وهبها الله لهذا الشعب المجيد ، وكذلك ثبات دعائم حياته ، واســتمرارها ، ووفرة الكنوز التى تدل على أمجاده التاريخية كل ذلك خليق بان يجعل منه أهم وأعظم مجتمع انسانى جدير بالبحث والدراسة سواء أكان ذلك من الناحية الاجتماعية أو السياسية أو من ناحيــة الاختراعات والابتداعات التى قام بها ، فاقتبسها العالم المعاصر ، وعبرت اشراقاتها البحار والمحيطات الى العالم الجديد !

فهرس

الموضوع	صفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٢٠٧٢

الثمن ٩٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العـام